فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

459

آيار 2026

ملف العدد
استذكار د.نوري جعفر

مقالات
زهير الجزائري
إدريس الصنهاجي
هاشم نعمة
اديسون جوزيف قرنق
ريتا فرج

نصوص قديمة
وثائق من وزارة الخارجية البريطانية
عن الرفيق فهد

نصوص مترجمة
الفريد مولر

حوارات
حوار مع أريك بروكس

ادب وفن
حسب الله يحيى
أوس حسن
سعيد عدنان
خزعل الماجدي
ضحى عبدالرؤوف المل
جني قبيس
طالب عبد الأمير
رباب هاشم البيضاني
عمرو أبوالعطا
إسماعيل نوري الربيعي
زهير كاظم عبود
خالد الحلي
كاظم اللامي
عصام كاظم جري
ياسين غالب
صالح الصحن
منار غالب حسين
زهراء اخلاص عادل

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

رئيس التحرير : صالح ياسر

مجلس التحرير

ابراهيم اسماعيل — جـــــواد الزيدي

رضـــــا الظاهر — علي إبــراهيـــــم

كـــــاوة محمود — مظهر محمد صالح

هـــــادي عزيـــز علي

هيئة التحرير

زهيــر الجـزائـري

هـــاشـم نعمــة

سوران قحطــان

حسب الله يحيى

محرر "أدب وفن"

العدد 459

آيار 2026

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment– Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير: althakafaaljadeda@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير: thakafajadida4u@gmail.com
ايميلات باب أدب وفن : hassab1944@yahoo.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت: althakafaaljadeda.net

عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.

رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

شروط النشر

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي فيما يرسلون للنشر:

- أن تكون المقالة أو الدراسة أو الشعر... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
- ان لا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة، وبالنسبة لباب قراءة في كتاب، ألا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 - 3000 كلمة.
- ان لا يزيد عدد كلمات باب ترجمات عن 4000 كلمة ويمكن لهيئة التحرير أن تنشر أكثر من ذلك إذا رأت ان هناك ضرورة.
- باب نصوص قديمة، تعتمد كلماته على النص المختار.
- وبالنسبة لباب أدب وفن، لا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 كلمة.
- ان تكون المادة معدة اصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن اخرى أو على صفحات المواقع الالكترونية.
- ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. وارتباطا بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال او الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود سطر ونصف الى سطرين إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال او الدراسة.
- لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة اعلام صاحبها بذلك.
- بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
- للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
- يجوز للباحث/الباحثة اعادة نشر بحثه/بحثها المنشور في المجلة شريطة ان يشير/تشير الى المصدر عند اعادة النشر.
- بالنسبة لتوثيق المصادر خصوصا في المقالات يفترض أن يكون موحدا وهو يتوافق مع شخصية وأسلوب المجلة، وهنا يكون في الهامش وليس في داخل المتن بدون قوس، وهناك عدة طرق للتوثيق ولكن الأكثر استخداما ما يأتي، راجين من الباحثين والكتاب اعتماد ذلك:
- بالنسبة للكتب: اسم المؤلف أو المترجم أو المحرر، عنوان الكتاب، رقم الطبعة، مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر، رقم الصفحة.
(لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)
- بالنسبة للدوريات أو المجلات: اسم الكاتب، «عنوان الدراسة أو المقالة»، اسم المجلة، المجلد و/أو رقم العدد، سنة النشر، رقم الصفحة.
(لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5 - كلمة العدد

مَلفُ استذكارِ أستاذ فلسفة التربية وعلم النفس التربوي نوري جعفر

9 - بين الفسلجة والفلسفة والتاريخ، قراءة في فكر نوري جعفر..... نجم حيدر
20 - فِي رِحَابِ مَكتَبَةِ عَالِمِ النَّفْسِ نُوري جَعْفَر.....رشيد الخيون
24 - مشروع نوري جعفر التعليمي – التربوي:
المراهنة على العقل بوصفه ثروة وطنية..... جمال العتابي
30 - تجليات المادية الجدلية في فكر د. نوري جعفر..... نبيل عبد الأمير الربيعي

مقالات

37 - الذاكرة والتاريخ في الحالة العراقية..... زهير الجزائري
45 - المجتمع المدني: مسارات المفهوم وتعقد الواقع، المغرب مثالا..... إدريس الصنهاجي
56 - الليبرالية الجديدة بين تناقضاتها الفكرية واشتراطات الواقع.....هاشم نعمة
68 - الاقتصاد الريعي وتحدي التنمية: حالة جنوب السودان.....اديسون جوزيف قرنق
75 - المرأة والزعامة في الخطابين العالِم والشعبي.....ريتا فرج

نصوص قديمة

81 - وثائق من وزارة الخارجية البريطانية عن الرفيق فهد.

نصوص مترجمة

89 - ماركس والديمقراطية المباشرة..لـ الفريد مولر.....ترجمة: رشيد غويلب

حوارات

103 - الثقافة الجديدة تحاور أريك بروكس .....حاوره: سوران قحطان

ادب وفن

112 - ثقافة السلام.....حسب الله يحيى
113 - د.ممتاز كريدي.. سلاما، سلاما.....هيئة التحرير
114 - إمبراطورية الكوربورقراطية... أمريكا ولعبة الموت بين الأمم.....أوس حسن
123 - يا صائغا للكلمات الصادقة... وداعا.....هيئة التحرير
124 - عليّ جواد الطّاهر.. الكاتب.....سعيد عدنان
130 - طريق الغوايات.....خزعل الماجدي
135 - طمأنينة المربع أهو الأمان
أم قناع القلق المنظم في لوحة جبران طرزي ؟..... ضحى عبد الرؤوف الملا
141 - سلطة الدّين وتسلّط المتديّنين في رواية
''عندما تشيخ الذئاب'' جمال ناجي.....جني قبيس
145 - الفقيد المناضل حميد مجيد موسى الرجل المضيء حاضراً ومستقبلاً.....طالب عبد الأمير
150 - البعد التاريخي والمتخيل السردي في رواية
(نور خضر خان) لجابر خليفة جابر.....رباب هاشم البيضاني
155 - مالك المطلبي: يا مالكا الحكمة... وداعا.....هيئة التحرير
156 - دوستويفسكي والاختبار الأخير للحرية.....عمرو أبو العطا
162 - (بيت الهموم) فضاء السرد وتشكيل الاستجابة..... إسماعيل نوري الربيعي
165 - صور الوجع في ''بيت الهموم ''.....زهير كاظم عبود
167 - بيت الهموم ''عندما تتواصل المعاناة وتلزم المبدع بالبوح.....خالد الحلي
169 - ''خارطة الريح'' : التثبيت المتحرك.....كاظم اللامي
175 - هبوط متكاثف.....عصام كاظم جري
176 - الرَّجُل الَّذِي قَطَعَ شَجَرَ الجَنَّةِ.....ياسين غالب
178 - نزعة الصدارة.....صالح الصحن
182 - جدلية فيلم (الست) أم كلثوم.....منار غالب حسين
185 - لزهرة البيضاء.....زهراء اخلاص عادل

لوحتا غلافي العدد للفنانة : بان الحلي

التدقيق اللغوي: مصطفـــى عبـــاده
التصميم والاخراج الفني: علي العـتابي

كلمة العدد

هشاشة الدولة ونظامها السياسي في العراق

كشفت الحرب الأمريكية - الإسرائيلية العدوانية على إيران وما ترتب عليها من تداعيات عسكرية وأمنية واقتصادية بالغة الخطورة عن هشاشة النظام الإقليمي في منطقة الشرق الأوسط، خصوصا بالنسبة إلى بلدان الخليج العربي التي تُعد حليفا استراتيجيا للولايات المتحدة. فلم توفر لها هذه العلاقة الخاصة حماية من الهجمات العسكرية التي طالتها من إيران التي بررتها باستهداف القواعد والمصالح الأمريكية المتواجدة فوق أراضيها، بل أصبح وجود هذه القواعد عبئاً على هذه البلدان. وهذا الأمر يكشف عن أن الأولوية القصوى للولايات المتحدة تتمثّل في حماية أمن إسرائيل. وأن تبقى متفوقة على بلدان المنطقة عسكريا وتكنولوجيا. وهذا يكشف أيضا أن تطبيع بعض بلدان الخليج علاقتها مع إسرائيل للاستقواء بها، قد فشل في أن يوفر لها ما كانت تحلم به من أمان.

أما بالنسبة إلى العراق، فقد كشفت هذه الحرب وتقاطعاتها عن عمق هشاشة الدولة ونظامها السياسي، أمنيا وعسكريا واقتصاديا. فقد زُج العراق في حرب لا تخصه ولم يخترها. وأصبح في بؤرة الصراع، تتهدده أخطار خارجية وداخلية؛ نتيجة انتهاك سيادته، وعدم قدرة الدولة على الرد على ذلك. وأيضا نتيجة عدم امتلاك الدولة قرار الحرب والسلم الذي صادرته منها الميليشيات المتغولة. إضافة إلى ما نتج عن ذلك من انخفاض في تصدير النفط بنسبة تفوق 80 في المئة؛ بسبب إغلاق مضيق هرمز من جانب إيران. ولكونه المورد الرئيس للبلاد واجهت الدولة تراجعا في مواردها المالية. وإذا استمر الوضع لفترة أطول نتيجة حالة اللا حرب واللا سلم فستكون التداعيات أكثر عمقا وشمولا لمفاصل الاقتصاد العراقي، وستطال حياة المواطنين في مورد رزقهم. كذلك انتج هذا الوضع شحّاً في غاز الطبخ وارتفاع أسعار المواد الأساسية، إضافة إلى تراجع ساعات تجهيز الكهرباء، بعد أن تراجعت إمدادات الغاز الطبيعي من إيران. وهذا يدل بوضوح أن الحكومات المتعاقبة طيلة أكثر من عشرين عاما لم تكن تتوفر لديها رؤية استراتيجية لإدارة الأزمات حال وقوعها، خصوصا تصدير النفط وضرورة تنويع منافذه وإنتاج الطاقة الكهربائية.

أما فيما يتعلق بإنجاز الاستحقاقات الدستورية بعد إجراء الانتخابات الأخيرة في تشرين الثاني/ نوفمبر العام الماضي، فقد جرى خرق المدد الدستورية لاختيار رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء على مرأى ومسمع من المحكمة الاتحادية، تحت ذريعة "عدم الاختصاص"، في مسألة دستورية تُعد من صلب اختصاصها، كما ثبتها الدستور. وهذا ينم عن منحى واضح لتسييس القضاء الذي يفترض أن يبقى مستقلا. ويهدد بتحلل

السلطتين التشريعية والتنفيذية من التزاماتهما الدستورية دون رادع قانوني. هذه الحالة التي تكررت بعد كل انتخابات، نتجت ـ كما أكدنا مرارا ـ بالأساس من تبني نهج المحاصصة الطائفية ـ الإثنية الذي شرع لخرق الدستور وتفشي الفساد السياسي والمالي والإداري، وجعل الفاسدين السياسيين الكبار في منأى عن الحساب. لذلك جاء حسم اختيار المناصب السيادية هذه كما هو معتاد عبر الصفقات والتوافقات السياسية الضيقة التي باتت تتحكم بها "أقلية أوليغارشية"، ولدت من رحم الأحزاب والكتل المتنفذة. كل هذا يجري بعيدا عن مصالح الشعب، وضرورة اخراجه من دوامة الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والخدمية المتفاقمة.

وهناك مؤشر آخر على ضعف الدولة وهشاشتها، وهو الاستمرار في مصادرة الأراضي المسكونة من قبل المواطنين منذ عقود، تحت ذريعة ما يسمى بالاستثمار! وبممارسات بعيدة عن السلوك الحضاري، حيث يُجبر ساكنوها على تركها دون التفكير بما ينتظرهم من أزمة سكن خانقة. ولا تتوفر هذه الممارسات على سند قانوني ويشوبها الفساد، فيما نرى الحكومة تقف عاجزة لمنع هكذا انتهاكات تطال حق المواطنين بالسكن.

مجدا للطبقة العاملة في عيدها العالمي

تحتفل الطبقة العاملة على مستوى العالم بعيدها الأممي في الأول من أيّار، هذا العيد الذي جاء ثمرة نضالها الشاق والطويل ضد الاستغلال والحيف، ومن أجل أن تنال حقوقها في العمل وتعيش حياة آمنة كريمة. يحل هذا العيد والطبقة العاملة العراقية تعيش ظروفا صعبة على مستوى نيل حقوقها المهنية، تتمثّل خصوصا بعدم تطبيق قانون العمل كاملا الذي يوفر في حال تطبيقه الضمان الاجتماعي لشريحة واسعة من الطبقة العاملة. إضافة إلى أنها تعيش مشكلات أخرى تتمثّل بانخفاض الأجور ـ خصوصا للذين يعملون بأجور يومية ـ ومخاطر العمل والعرضة للبطالة وتراجع المستوى المعيشي وسوء الخدمات الصحية والتعليمية وظروف السكن غير اللائق. وكي تحصل الطبقة العاملة على حقوقها كاملة، يفترض بها أن تُؤسس اتحادات عمالية قوية ومتماسكة ومستقلة عن نفوذ الأحزاب السياسية التي تستخدم بعض الاتحادات العمالية لتحقيق مصالحها الحزبية الضيّقة. ولتكون بالتالي قادرة على مقاومة الاستغلال الطبقي وتهميش العمل النقابي، وانتزاع حقوقها المهنية والاجتماعية. وهذا يُحفز لتكون مساهمتها أوسع نطاقا في عجلة التنمية الاقتصادية في البلاد.

مَلفُ استذكارِ أستاذ فلسفة التربية وعلم النفس

التربوي نوري جعفر

ملف استذكار أستاذ فلسفة التربية وعلم النفس التربوي نوري جعفر (1914 ـ 1991)

د. حميد الخاقاني
منسق منبر حوار التنوير

في إطار نافذة (شخصيات تنويرية) تناول (منبر حوار التنوير)، في إحدى ندواته الفكرية، في 8 تشرين الأول| أكتوبر 2025، ثلاثة جوانب من الاشتغالات الفكرية والعلمية والفلسفية والأدبية لهذا العالم والمُربّي الكبير، ـ قدمها الدكتور نجم حيدر والدكتور رشيد الخيون والأستاذ جمال العتّابي ـ والذي أدرك، في وقت مُبَكر من مسيرته الأكاديمية، أهميّةَ أن يتخصصَ في فلسفة التربية وعلم النفس، وذلك لأنهما، وكما كتب هو مرَّة، قد أصبحا جزءاً منه.

وإضافةً لمؤلفاته في حقول اختصاصه فقد كتب (نوري جعفر) في السياسة، وفي التنوير، وعن نشوء اللغة وعلاقتها الوشيجة بالفكر، وعن ظواهر في الأدب العربي والتاريخ الإسلامي.

وفضلاً عن بحوثه ودراساته الكثيرة في هذه الحقول وسواها، أصدر الكثير من الكتب منها: (التربية وفلسفتها)، (التاريخ مجاله وفلسفته)، (جون ديوي حياته وفلسفته)، (الفكر طبيعته وتطوّره)، (الجهاز العصبي المركزي الأساس المادي لعقل الإنسان ومشاعره)، (طبيعة الإنسان في ضوء فسلجة بافلوف)، (الأصالة في مجال العلم والفن)، (الجوانب السايكولوجية في أدب الجاحظ)، (القُدرات العقلية النادرة في الرياضيّات في ضوء علوم الدماغ).

ظَلَّ (نوري جعفر) يرى نفسه، حتى رحيله عن هذا العالم، بأنه ليس عالِماً بل طالبَ عِلم لا غير، وكما كتبت ابنته (نجود نوري جعفر) مرةً: إنّ (طالبَ علم) هو الوصف الذي اختاره لذاته، حيث لم تَرَ ً هي غيرَ الكتاب رفيقاً له، والعلمَ دربه، والقلم يسابقُ فكرَهُ، والفكر يُسابقُ قلمَهُ.

وكم هو جميلٌ من مجلة (الثقافة الجديدة) أن تستضيف على صفحاتِها مَلَفَّ استذكار هذا العالم الكبير، وبمساحةٍ أوسعَ، واكثر تنَوعاً، مما جرى تناولُهُ في ندوة (منبر حوار التنوير) عنه.

وكم سيكون جميلاً أن تستيقظ مؤسسات الدولة الرسمية من سباتها: وزارة الثقافة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، وكذلك مجالس المحافظات، وتستذكر

مثلَ هذه العقول الفَذَّة وتُكَرِّمَ ذكراها، وهي التي أسهمت في تعليم الأجيال وإغناء معارفها، ليكون لها دورُها في بناء وطنها وتطويره.

استذكارٌ وتكريمٌ لا تأخذنا إليهما نوازعُ طائفية أو إثنية، وإنما جدارةُ وأهمية ما قدَّمته هذه العقول لوطنها وإنسانٍ هذا الوطن لا غير.

بين الفسلجة والفلسفة والتاريخ
قراءة في فكر نوري جعفر

د. نجم حيدر

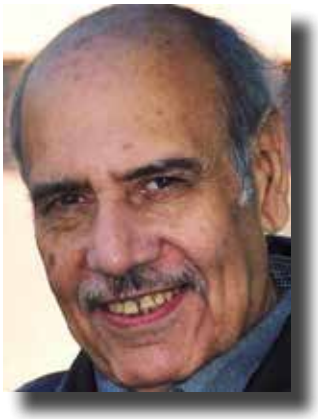

الثراء المعرفي وعمق التحليل

قلما تجد مثل هذا الثراء في التنوع المعرفي مع عمق التحليل والتركيب، نحو صناعة منطق فكري منتج ومستفزٍ لمن يبحث في مجالات الفكر بتنوعه باحثاً عن البيان منه. إنه استثناء تجسد في هذا الفذ المتواضع (نوري جعفر).

تمر علينا صدفٌ حسنةٌ، بعضٌ منها يغير مسيرة حياتنا بمتحولٍ جذريٍّ في وعينا وبنائنا الفكري. في أعمّها الأغلب يصنعها مربون وأكاديميون، وممّا لا شك فيه أنهم في أسمى صفات واجباتهم، معظمهم يمتهنون التعليم بمستوياته المتنوعة يضاف لهم الأب والأخ، ومن ليس له صلة قربى فضله أوسع لأن دوافع عمله أسمى.

إنه (المعلم، المدرس، الأستاذ)، هو من لا بد أن يُجازى على ما قدم، ولو بجزءٍ يسيرٍ من الوفاء في استذكار طلبتهم لهم، والموقف مهما كان لا يوازي قطعًا ما قدموا من عطاءٍ منحوه لطلبتهم.

إن من هو خارج عاطفة القربى عندما يكون بناؤه كبيرًا وراسخًا فله فضل لا يقاس بمقياسٍ ماديّ.

ها أنا في هذه الوريقات أحاول أن أستوفي اليسير من الوفاء لرجلٍ عظيم في علمه وأخلاقه وتفانيه، إنه (الدكتور نوري جعفر 1914 – 1991). فهو غنيٌّ عن التعريف، لكني أحاول أن أكتب عنه ما أعتقد أنه لا بد أن يُذكر، ولا سيما ما لم يُكتب نتيجة مجاورتي له كأستاذٍ ومعلمٍ ومن ثمّ صديقٍ لأكثر من ثماني سنوات بينَ تدريسه لي في مرحلة الماجستير وإشرافه على رسالتي (الأسس السيكولوجية لعملية الإبداع الفني) في بدايات الثمانينيات.

(لم أجد توصيفًا مختصرًا لـ (نوري جعفر) إلا (الفذّ المظلوم). في جزءٍ من هذا الظلم كان مقصودًا بإمعان، وفي البعض الآخر كان بفعل وجوده في الزمان والمكان الخطأ، فهو كأي عربيٍّ وعراقيٍّ، شاء أم أبى يؤطَر ضمن سياقات حياةٍ يهيمن عليها التخلف والاستبداد.

في الحالين الآنفين جابه الرجل ما يصد ويصدم مسيرته الإبداعية، اذ حاولت السلطات المتنوعة منذ الخمسينيات إلى هجرته الأخيرة وهي الهجرة الثانية، أن يكسبوه كمروج او مجمل لسياساتهم، إلا انه رفض بوسائل ذكية حققت له عقوبات التهميش والإبعاد دون ان تصل إلى ما هو أصعب، برغم ان هجرته الاولى بعد 1963 إلى السعودية ومنها إلى ليبيا، كانت بفعل قراءته الاستبداد الذي توج بالفصل من وظيفته، وقد يكون السجن نتيجة أفكاره اليسارية التي لم يحمد عليها لا من اليمين المناهض ولا من اليسار الراديكالي.

جزء من السيكو الجمعي للعراقيين تعاظم الأنا على نحو عدواني مخبوء ولاسيما من هو في دائرة التخصص القريب، هذ ما كابده نوري جعفر في حياته المهنية، ومن مساوئ الافعال انه وجد التمجيد والتعظيم خارج بلده، ولاسيما في العالم الأوربي، أذكر انه صارحني ممتعضاً ان دعوة وجهت له من جامعة ويلز لمناقشة بحوث مؤتمرها السنوي لطلبة الدكتوراه في علم النفس التربوي وفلسفة التربية، حجبت عنه في درج أحد المسؤولين برغم ان تكاليف السفر وكل المستلزمات على الجامعة الإنكليزية. والأمر شخصي، بل الغريب ان المسؤول لم يلتق بدكتور نوري ولم تجمعهم مناسبة أو مصلحة، والأمر ليس إهمالاً عابرًا، لأن الجامعة طالبت بعد حين من إرسال الكتاب الأول إعلامها أو الرد على الدعوة.

الكتابة عن عالمٍ يتميز بشموليةٍ وتنوعٍ استثنائيٍّ لا بد أنَّ تكون مجانبة للعاطفةً، على الرغم مما تستفز ذكراه من عواطف محفزة للوجدان لمن جاوره وتتلمذ تحت يديه، مما يثير الأحاسيس الجياشة. إذ كانت لي تفاعلًات عاطفيٌّة بشعوري به كأبٍ يحرك ولده بمنهجية العلم.

في قراءتي لحياة الرجل برؤى متعددة: أولُها علاقةُ حياته بما يمتلك من انتماءٍ فكري، وثانيها تنامي افكاره بتطورٍ ديناميكي أساسها دخوله في مناطق بحثيةٍ متنوعة، وثالثها تركيبه القصدي في بنى ومناهج فكريةٍ متجاورةٍ ليصنع رؤاه الفكرية المتشكلة ببصمته. وإزاء ما تقدم وجدت ثمانية مواقف تحوّلية بنت الرؤى الفكرية الخاصة به، والتي ستشكل أبواب كتاب أعمل عليه أسميته: هكذا كان معلمي: نوري جعفر، مكابدات الزمان والمكان.

يتشكل الموقف الأول في أول مغادرته من (القرنة) مدينته التي ولد بها إلى العاصمة بغداد للدراسة الجامعية، لأنه يمتلك معدلًا تخطّى التسعين، والأمر نادرٌ جدًا في ذاك الزمن، توجهت آماله نحو الكلية الطبية كأيّ يافعٍ تقوده أعراف الحياة السائدة.

في ذاك اليوم الدراماتيكي الممتلئ بأحداثٍ صادمةٍ ابتدأ من اكتشافه لفقره المادي، وما شكّل صدمةً أساسها ذاك التمايز الطبقي المقيت.

إذ يقول : سافرتُ من القرنة فجرًا بملابس كان قميصي يمثل الجزء العلوي من (البيجامة) وهي ملابس النوم، لأني لا أمتلك قميصًا، كان ذلك في سنة 1931.

وصلتُ بغداد متوجهًا إلى الكلية الطبية وكان الوقت ظهرًا، حاملًا إضبارة تخرّجي وقدمتها إلى سكرتارية العمادة التي يرأسها (سندرسن باشا) طبيب الملك فيصل الأول. قيل لي: انتظر لحين استدعائك، جلستُ على الدكة الخارجية أنتظر استدعائي للدخول،

إلا أن الكثير من أبناء الباشوات ومن هم في حالة غنى يركنون سياراتهم الفارهة ويدخلون مع أبنائهم أو أقاربهم ويخرجون فرحين ضاحكين إلى نهاية الدوام، مما اضطرني للذهاب إلى فراش السكرتارية فوجدتهم قد نسوني، إلا أن إضبارتي أسعفتني عندما وجدوا معدّلي أعلى طالب.

دخلتُ على (سندرسن باشا) فوجدته يُمعن النظر في إضبارتي، وعندما رفع رأسه ليراني سحب نظارته لتعديل نظره وكأنه صدم بهيئتي الفقيرة، قال بلكنةٍ:

سندرسن باشا: ما عمل والدك؟

نوري جعفر: فلاح، باشا.

سندرسن باشا: أتدبّر خمس دنانير شهريًا للدراسة؟

نوري جعفر: لا والدي ولا أنا شاهدنا شكل الخمس دنانير.

سندرسن باشا: أنصحك أن تذهب إلى دار المعلمين العالية، أفضل لك.

انتهى اللقاء وخاب أمل نوري جعفر في أن يُقبل في الكلية الطبية.

مع الموقف السابق تشكّل في وعي (نوري جعفر) ذاك (الإجحاف الطبقي) الذي تماهى بعد حين نحو انتماء (سيكو– إبستمولوجي) مع الفكر الماركسي، ولا سيما عندما بدأ في القراءة المنهجية لعلوم السياسة والعقائد، إلا أن الرجل لم ينتمِ إلى حزبٍ سياسيٍّ أبدًا.

أما في الموقفَ الأخر، بوصفه المتحول الثاني في مسيرته، كان مع (الدكتور فاضل الجمالي) أستاذه في دار المعلمين العالية، الذي قرأ مستقبلًا أكاديميًا وفكريًا في شخصية تلميذه الفذ، ما وجّه الموقفَ تركيبةً أنبتت عند نوري أثرًا في ليبرالية الجمالي الذي يُعد من أهم الليبراليين العراقيين، فضلًا عما يمتلكه من تميزٍ في الدراسات التربوية، مما منحه تميزًا في رؤاه السياسية. إذ اطّلع (جعفر) على هذا التوجه الليبرالي، مع الراسخ في ذاته من انتماءٍ لليسارِ الماركسي، إذ عاش صراعًا إيجابيًا منتجاً بين ما يقدمه أستاذه من حجج ذات مواقف ليبرالية وبين ما يقرأه في الخفاء عن الماركسية، هذا الذي سيمتزج مع الموقفين الثالث والرابع.

كان إيفاده إلى أمريكا يمثل موقفا ثالثا، إذ شاءت ظروفه الحسنة أن يتتلمذ على يد الفيلسوف البراجماتي (جون ديوي). إذ انفتحت أمامه حوارات بجدل فلسفي مزجت الفلسفة بعلم النفس والتربية، مما أحال القراءات النفسية والتربوية إلى نظم فلسفية.

مما مكن (نوري جعفر) تحقيق نظمٍ تأويليةٍ بتركيبٍ منهجيٍّ، يتميز بما حمل من انتماءٍ خفيٍّ نحو (الماركسية) التي كانت وراء الستار في نظم تحليلاته، لكن أثر جون ديوي جعل التوجه يأخذ أحيانًا اتجاهًا عكسيًا اتضح في قراءاته السياسية.

هذه القراءة التي زاوجت بين الماركسية والليبرالية والبرجماتية، قدّمت ثراءً متميزًا في التحليلات الفلسفية والسياسية والتاريخية، وكانت الإضافة الداعمة للموقف الرابع.

الموقف الرابع يتمثل في إنجازه خارج نطاق البحوث الجامعية، عن طريق ترجمة كتاب (برتراند رسل) سنة 1949، بمعنى بعد رجوعه من الدراسة، ويبدو أنه تهيئ للموضوع وهو في أمريكا.

وما يسترعي الانتباه أن (رسل) ينتمي إلى اتجاه فكري يختلف عما ينتمي له (ديوي)، إذ يُعدّ من رواد الفلسفة الوضعية المنطقية

وفلسفة العلم. وهناك حوارات اشتغل عليها الكثير من الباحثين تكشف مراكز الخلاف أحيانًا والتوافق في أحيان اخر، ومن المؤكد أن (نوري جعفر) كان على اطلاعٍ عليها أو حاول استكشاف أراء ديوي فيً فحوى توافقاتٍ واختلافات الرأي بين القطبين الفلسفيين، مما حفزه ليقدّم كتاب رسل كأول إنجازٍ مطروحٍ خارج الوسط الجامعي.

(سنقدم في هذًا الموقف قراءة نوري جعفر المختلفة بين برجماتية ديوي ووضعية رسل، مما أتاح له أن يقدم رؤى فكريةً سياسية المنحى تستقرئ التاريخ بقراءة اليسار الليبرالي الذي لا يغفل الدعوات الموضوعية أو العملية ذات البعد البرجماتي).

الموقف الخامس، مع انتخابات عام 1949 إذ رشّح عن مدينته (القرنة) وحُرّفت النتائج، مما جابه منافسيه بضراوة عن طريق الصحافة والخطابات، فأثار الحكومة، مما أدى إلى استدعائه من قبل رئيس الوزراء وزجره، إلا أنه وقف موقفًا شجاعًا في الدفاع عن نفسه.

في هذا الموقف تحوّل في أساليب المواجهة والدفاع من الكتم إلى المجابهة، واستمر مواجهًا مباشرًا يدافع عن الحق والحقوق دون اكتراث لما يمكن أن يصيبه، فأُضمر له، مما أدى إلى تهميشه ومحاولة إيقاف انتشار أفكاره في فتراتٍ متعددةٍ مختلفة المشارب.

الموقف السادس، (نتاجه في التربية وعلم النفس): بعد إكمال دراسته في الدكتوراه متخصصًا في العلوم الفلسفية للتربية، قاده البحث نحو مركبٍ فكريٍّ متميزٍ بين التربية والتعليم والبنى السيكولوجية للفرد لتحقيق منظومةٍ متقدمةٍ تصب في البناء التربوي العام من خلال التعليم. ولأنه درس على يد الفيلسوف البراجماتي جون ديوي كانت آثار التربية من خلال المدرسة حاضرةً في نتاجه.

الموقف السابع: (نتاجه في علوم الدماغ والإبداع)، وهنا تتجلى له أقصى درجات الإبداع في قراءة علوم الدماغ في إحالتها من الوظيفة الفسيولوجية في الفعل النتاج لأقسامه ولا سيما القشرة المخية إلى وظيفةٍ تركيبيةٍ بمعادلةٍ جدليةٍ تقدم تبادلاً بين الجانب الفسيولوجي والأداء المتراكم، مما يحيل الدماغ من بنيته المادية الثابتة إلى بنيةٍ ديناميةٍ تتقبل النمو والتطور كما هي عضلات الجسد يمكنها النمو في تراكم الأداء ويمكن أن يصيبها الضمور، وعلاقة الإبداع بفيزيولوجية الدماغ وتفاعلية الأداء في النتاج الإبداعي الذي أسس له بما يمتلك من فهم سيكو- إبستمولوجي، مع ما مكنه من استدعاء ما هو فاعل في الفلسفتين البراجماتية والماركسية.

الموقف الثامن: (نتاجه في اللغة والأدب والتاريخ والسياسة والمجتمع)، في هذا النتاج مؤشّر لرؤيةٍ تمتلك التفرد في فهمٍ ذي خصوصيةٍ يمكن أن يُكنّى بها.

إذ إن تحليله ونتاجه الشعري واللغوي ينمّ عن شغفٍ عزز بقراءاتٍ مكثفة بما يخص دراسات التاريخ، ولا سيما الإسلامي منه، بما قدمه من تحليلٍ مدعَّم بتركيبته الفلسفية التي أشرنا إليها آنفًا، بكلً ما يمتلك من نزعة تقدميةٍ وليبراليةٍ مفعمةٍ بيساريةٍ مناهضةٍ لكل أشكال الاستبداد في نتاجاته الاجتماعية والسياسية.

*****

وجهة النظر الحديثة بعد بافلوف (علوم الدماغ وعلم النفس المستند اليهما النور وسايكولوجي) قراءات في رؤية نوري جعفر

قبل ان أقدم قراءتي في البناء الفكري لأستاذي الفذ وجدت ما ذكر (مانويل كانت) في كتابه (نقد ملكة الحكم)، في فكرة وماهية العبقرية، موضوع يمكن ان يكشف شيئا عندما نبحثه في البنية الفكرية لـ (نوري جعفر).

إذ يصف (كانت) العبقرية بتلك (الموهبة أو الهبة الطبيعية) ... بما يؤشر للموهبة، من حيث هي ملكة إبداعية فطرية، تنتمي للطبيعة، فيمكن التعبير عن هذا على النحو التالي: (العبقرية هي الميل الفطري للعقل الذي تعطي الطبيعة قواعد للفن).

أولاً: أن العبقرية هي موهبة إنتاج ما لا يمكن أن تعطى له قاعدة محددة، وليس إظهار البراعة في مهارة يمكن تعلمها بحسب قاعدة معينة، وبالتالي يجب أن تكون الأصالة سمتها الأولى.

ثانياً: من هنا، ففي حين لا تكون العبقرية هي نفسها نتيجة تقليد، لا بد أن تنفع الآخرين بهذه الطريقة، أي كمعيار أو قاعدة للحكم.

ثالثاً: لا تستطيع هي نفسها ان تصف أو تفسر علمياً كيف حققت وجود نتاجها، بل تقتصر على إعطاء القاعدة كطبيعة))[1]

ووفقاً لرؤى (كانت) في ما دون أن العبقرية تعتمد الأصالة وهنا لا بد من تعيين لماهية الأصالة على وفق مقصدية (كانت) اذ ينتمي كانت إلى المتحول او المتطور في الميتافيزيقيا، ولأنه مؤسس (للميتافيزيقيا النقدية) فان الأصالة لا تفقد المرجعيات بما تمتلك من انفتاح بين الطاقة الفيسيولوجية والإقرار او الإرادة نحو عد الفاعل يتمثل في عملية ذهنية تحكمها دافعية الإنسان وإخلاصه نحو الإنتاج الفكري المتطور او الجديد بوصفه ابتكارا، فإرادة المنتج المبدع المخلصة تحقق قيمة الإنتاج حتماً.

انتبه (نوري جعفر) لذلك إذ يذكر ((أننا لا نقدم كل المعلومات المنتجة في الذهن، لأننا ننتقي بعضها بقدر وفق ميزان عوامل في أعمها موضوعية بدافعية ذاتية))[2] .

إذ توصف المعرفة بظاهرةِ الفكر، ويوصفِ الفكرْ بظاهرةِ الإنسان، وبالنتيجة المعرفة ظاهرة إنسانية بالكامل، ولأنها كذلك، نجدها متنامية متطورة مع محركات الحياة بتشكلها للحضارة، ومنشطرة مع انشطاراتها ومصبغة بصبغاتها، ومتصفة بصفاتها، وصولا إلى عصرنا الذي استطاع أن يذيب الفوارق بين الحضارات، باعتماد العلم ونتاجه، ما جعل من الكوكب قرية صغيرة يتقدم فيه الأوسع تفاعلاً وإنتاجاً.

إذ يُعدْ العقل ونتاجه الفكري المحرك والمؤسس لكل ظواهر الوجود، بل كل ما هو خارجه إلا وجود في دائرة الاختلاف في طرف منه نفي أو عدم، هذه الظواهر بعضها أوسع من غيرها في التثبت والتمسك بأذيال الوعي نتاج الحراك العقلي، ولأن ظاهر العقل يتمثل في الفكر والمعرفة، نجد أن المعرفة فعل الفكر في الأشياء والظواهر وعلاقاتهما، ولأن فعل الفكر يعُد أداة بناء المعرفة فأن المعرفة أسيرة الفكر، والفكر نتاج المعرفة، إنها دائرة جدلية لا يمكن تعيين بدايتها، فهما في تداخل منتج.

يعد (نوري جعفر) أحد المؤسسين لنظرية تعتمد نتائج منطقية في تحليل البنى الإبداعية المنتجة للمعارف أساسها المزاوجة بين الطاقتين الفيسيولوجية و السيكولوجية في

داخل الإنسان، وهي (النيرو سيكولجي) التي تبنت قراءات إجرائية تعتمد الجانب التشريحي للدماغ البشري، ولاسيما القشرة المخية، هذا ما انتبه له علماء هذا التوجه المركب بقصدية بين الفسلجة وعلم نفس الفرد، ولاسيما تلك المؤثرات المتبادلة بين القشرة المخية والانفعالات ذات الأثر السيكولوجي "إذ ثبت في ضوء علوم الدماغ أن الإنسان ينفرد بوجود مناطق مخية خاصة لا تشاركه فيها الحيوانات الراقية الأخرى بما فيهما القردة العليا القريبة منه في سلم التطور البايولوجي: تسمى المناطق المخية الثلاثية، تقع خلاياها العصبية في الطبقة المخية الأولى العليا وهي طبقة مخية إنسانية محضة من ناحية تكامل تطورها التشريحي ونتيجة لدقتها المتناهية لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة تحتها طبقات مخية مايكروسكوبية أربع أخرى توجد مثيلاتها بمستويات أقل تطوراً لدى الحيوانات اللبنية العليا وبخاصة القردة.

والمناطق المخية الثلاثية المشار اليها تنقسم إلى (حسية) أو (خلفية) وجبهية (أو أمامية) من ناحية موقعها في المخ ومن حيث وظائفها الفسلجية. فالمناطق المخية الحسية الثلاثية تقع على الحدود الفاصلة بين الفصين القذاليين (أو الخلفيين) والفصين الصدغين (أو الجانبين) والفصين الجداريين اللذين يقعان إلى جانب الفصين الصدغيين الواقعين في القسم الأعلى الأوسط من المخ وعلى جانبيه الأيمن والأيسر. ووظيفتها الأساسية القيام بعملية الإدراك الحسي الناجم عن التعامل مع الأشياء المحسوسة، كما ذكرنا، وهي بالغة الأهمية في حياة الإنسان وأوسع مناطقه المخية الحسية مساحة وحجمها يتجاوز حجم المناطق المخية الحسية بأسرها.

كما أنها جميعاً رقيقة التكوين وسهلة التخريب ولا يكتمل نضجها الا بعد بلوغ الطفل السنة السابعة من عمره، وتقع خلاياها العصبية في الطبقة الأولى المخية العليا. أما المناطق المخية الثلاثية (الجسمية فتقع كما ذكرنا في الفصين الجبهيين). وهي تمارس أعلى الوظائف الفكرية أو الإدراك العقلي الناجم عن التعامل مع المجردات وينفرد بها الإنسان وحده كما ذكرنا. وهي حديثة التكوين من الناحية النشوئية وأرقى من جميع المناطق المخية عند الإنسان (بما فيها المناطق المخية الحسية الثلاثية).

من حيث الموقع والأهمية تحتل خلاياها العصبية الطبقة المخية الأولى. وهي تستأثر بالقسم الأكبر من مساحة المخ، ولا يتم نضجها الا بعد اجتياز الطفل السنة السابعة من عمره[3].

انتبه (نوري جعفر) إلى ان البشر لا يمكن ان يكونوا متساوين بالقدرات المخية ذات المصدر الفيسيولوجي الا ان الأمر في ذاته لا يمكن ان يكون هو الحاسم في النتاجات الابداعية والابتكارية، فالأمر يحتاج إلى تعزيز الارادة التي يلعب فيها ضاغطان: الاول في البنية السيكولوجية للفرد التي تتأثر بالمحيط الاجتماعي بما يمتلك من ضواغط بعضها ميثولوجي يؤسس للعقائد وما شابها من انتماءات فكرية. والضاغط السيسيولوجي. هذه باجمعها ذات تأثير في مسيرة النتاج الابداعي لمن يمكن توصيف نتاجه بالابداع، هذا كان ضمن دائرة ابحاث الرجل طوال سنوات اخذت مأخذا مهما من حياته في مكان لا يأبه بهذه الابحاث (العراق) بفعل تخلف اصحاب القرار فيه *.

ان ما قدمه في أبحاث الثمانينيات التي انطلقت من جذور ابحاثه في العقدين الستيني والسبعيني من القرن العشرين يؤكد الشروط الثلاثة التي لابد من توفرها في شخصية الانسان المبدع:

أولاً ــ الأساس الجسمي (المخي: الفسلجي) الموروث.

ثانياً ــ الأساس البيئي (الاجتماعي: الثقافي) المكتسب.

ثالثاً ـــ الأساس السايكولوجي أي الدافع الذي يحفز المرء على استثمار مناطقه المخية الثلاثية الحسية إلى أقصى حد وعلى أفضل وجه.

وأن انتقاء أو فقدان أي من العناصر الثلاثة المشار إليها يحول دون حصول إنتاج فني إبداعي او يحقق إنتاجا فنيا الا انه فاقد الأصالة والابتكار.

ما يصدق على المبدعين بما نطلق عليه الابداع الوجداني او بمنتجي المعرفة الانسانية من شعراء وادباء وفنانين يصدق أيضا على علماء الرياضيات والعلوم الطبيعية النظرية. انها عمليات تحليلية تحتاج إلى معطيات بيئية اجتماعية وواقعية، تجعل من النتاج الابداعي غاية وهدفا لا ينافسه أي إغراء آخر. وهو بالنتيجة تجربة وخبرة في بناء ذاكرة تخصصية، وفي آلية مخيلة، تعرف بتراكم التجربة، آلية التحليل والتركيب، وتبني نتاجا يتصف بالإبداع والابتكار.

على وفق رؤية (نوري جعفر) لغرض التوضيح والتبسيط يمكن تقسيم الناس على وجه العموم إلى ثلاث مجموعات من ناحية كثافة الخلايا العصبية في مناطقهم المخية الثلاثية (الأمامية والحسية) التي أشرنا إليها. هذه المجاميع هي:

1ــ مجموعة الأفراد الذين يتقارب عندهم مجموع الخلايا العصبية في المناطق المخية الثلاثية الجبهية مع مجموع الخلايا العصبية الموجودة في المناطق الثلاثية الحسية.

كما يتقرب عندهم أيضاً مجموع الخلايا العصبية الواقعة في المخ مع مجموع الخلايا العصبية الواقعة في الأقسام الدماغية التي تقع تحت المخ.

وهؤلاء يمتلكون الأساس الجسمي (المخي) الذي يؤهلهم للاستمتاع بالرياضيات والعلوم النظرية وبالفنون على حد سواء. وبإمكانهم أن ينتجوا أعمالاً في الفن أو في الرياضيات والعلوم الطبيعية النظرية بمستوى معتدل أي دون مستوى الدماغ.

2 ــ مجموعة الأفراد الذين يتجاوز عندهم مجموع الخلايا العصبية الواقعة في المنطقة الثلاثية المخية الجبهية، مجموع الخلايا العصبية الواقعة في القسم الخلفي الأعلى من المخ، والذين يتجاوز عندهم مجموع الخلايا العصبية الواقعة في المخ على مجموع الخلايا العصبية في الأقسام الدماغية الواقعة تحت المخ. وهؤلاء يمتلكون الأساس الجسمي (المخي) الذي يؤهلهم للقيام بأعمال إبداعية ذات مستوى عال في الرياضيات والعلوم الطبيعية النظرية.

3 ــ مجموع الأفراد الذين يتجاوز عندهم مجموع الخلايا العصبية الواقعة في المناطق المخية الثلاثية الحسية مجموع الخلايا العصبية الواقعة في القسم الأمامي الأعلى من المخ والذين أيضاً يتجاوز عندهم الخلايا الواقعة في الأقسام الدماغية التي تحت المخ مجمع الخلايا العصبية الموجودة في المخ. وهؤلاء يمتلكون الأساس الجسمي (المخي) الذي يؤهلهم للقيام بأعمال إبداعية ذات

مستوى عال في مجال الفن.
ذلك هو الأساس الجسمي المخي للأشخاص المبدعين في مجال الفن من جهة والرياضيات والعلوم الطبيعية النظرية من جهة أخرى.

بين الماركسية والليبرالية: قراءة في رؤية نوري جعفر الفلسفية

تعرفت على الرجل وانا في السادسة بعد العشرين وهو في أواسط العقد الستيني، وعندما استرجع صور لقاءاتنا الأسبوعية التي تطورت بعد حين لتكون شبه يومية، برؤية تحليلية الآن، اجد ان الرجل كان يدرس بإمعان شخصية شاب يمثل ذاك الزمان بكل إرهاصته، وهو تواق للتدخل في تغيير المفاهيم والسلوكيات، بما فيها الأفكار التي في بعض منها تمثل ملامسة للرؤى الفلسفية، ليستطيع ان يحقق ما يرغب في التحول الذي يبتغيه، وقد نجح بعد ان منح الحرية في المجادلة والاعتراض، وهو بذلك حقق
الكشف لينطلق ببطء ممنهج للتدخل نحو التغيير، وانا بدوري برغم من ذاك البون في الوعي أمام هذه القامة الممتلئة بتراكم بين مركبات الفكر بأركانه المتعددة (فلسفة، علوم، أداب، تاريخ) بل وعي استثنائي أسس بفعل هذا الاندماج التركيبي الاستثنائي، انتج ما يعد تحولا مهما في سياقات الإنتاج الفكري التداولي السائد.
أتذكر في حادث لا يغيب عن ذاكرتي عندما كلفني بواجب دراسي يخص درس (الفلسفة المعاصرة) بقراءة كتاب جون ديوي، الفن خبرة، وكتابة تلخيص لكل فصل منه مع إشكالات أجدها في ملائمة أراء ديوي مع حركة النتاج الفني في القرن العشرين. وكان يوم اللقاء الأربعاء وطلب ان انجز الواجب السبت بموعد صباحي، فانتفضت متعجبا كيف لي إكمال هذه الواجبات لكتاب تخطى الـ 600 صفحة بثلاثة أيام، تعجب من هذا الخمول مقارنا الموقف بذاته وهددني ان لم افعل سيعتذر عن الإشراف على رسالتي.
خلال الثماني سنوات التي حرصت ان التقيه في الأسبوع أكثر من ثلاث مرات لساعات كشفت ان الرجل في مخاضات فكرية مستمرة لا تتوقف عند حد، فهو نهم في القراءة محللا كاشفاً مضيفاً بتركيب يكشف نتائجه بمنطق خليط بين معززات الماركسية والبرجماتية التي أحيلت إلى رؤية ليبرالية يسارية في السلوك او المنهجية الإجرائية الفكرية.
يبادر أي باحث في فكر وانتماءات (نوري جعفر) الفكرية ذات الطابع الفلسفي، للسؤال لماذا وكيف يوصف فكر الرجل بنزعة ماركسية؟ وأفكاره تتسم بالتجديد بفعل استلهام إيجابي تفاعلي بين الماركسية وفلسفة العلم والبرجماتية، التي كانت لأبحاثه في فلسفة التربية ذات اثر مهم في المتحول الذي أصفه بالتجديد، ما هو إلا تحول إيجابي أوسع في واقعيته وموضعيته في قراءة دقيقة لقوى الضغط ببعديها الاقتصادي ونتاجات الكشف العلمي.
نتفق ان الماركسية نظرية تعتمد ثلاث مركزيات تتمثل في: المادية التاريخية، والمادية الجدلية، ومتنام تتابعي للاشتراكية العلمية، فضلا عن قراءة تعتمد الماديتين التاريخية والجدلية للطبيعة والمجتمع وتحولات الفكر الإنساني.
هذا البناء المتداول في قراءة الفكر الماركسي، بما اعتمدته الراديكالية السياسية

بثقافتها السوفيتية، لم يكن رائقا لـ (نوري جعفر)، بحكم رفضه الافتراضات القسرية في التحولات التاريخية، ولاسيما في الصفات القدسية التي منحتها للافتراض التاريخي في تعاقباته (المشايعة، العبودية، الإقطاع، الرأسمالية، والاشتراكية).

إلا ان (نوري جعفر) اعتمد فكرة الاشتراكية العلمية، التي أراد لها ان تكتشف الواقع ومحركاته الضاغطة في حركة رأس المال للفرد والمجتمع. تمثل ذلك في قراءته الدقيقة للاقتصاد الاشتراكي مقابل الاقتصاد الرأسمالي، ولاسيما بعد ترجمته لكتاب (برتراند رسل) (السلطة والفرد).

المنطقة التي أسست لرؤية (نوري جعفر) الماركسية تبنت المادية الجدلية بحكم ما تتماهى به مع فلسفة العلم، ومن ثم فإن هذه التحولات الحتمية التي قدمتها الماركسية استطاع تفعيلها مع جدل العلاقة بين الفرد والمجتمع عن طريق جدلية السلطة والحرية الفردية، فهو في انتباه لضرورة السلطة بحكم احترامها للحريات الفردية، انطلاقاً من رفض القمع السلطوي بحجج استبدادية مختلفة.

إنها علاقة تنظيم أسست لما نطلق عليه بالليبرالية اليسارية، وانا في هذا البحث لا ادعي ان د. نوري أحد مؤسسي الليبرالية اليسارية، لكن ما اعتمده من تفاعل فكري واضح في بنى نتاجاته ومقالاته.

وبغية اختصار رؤيته التي تتماهى مع اليسار الليبرالي يمكن إيجاز أفكاره بالنقاط الآتية:

1 : يعد الفكر الماركسي بناء تحليليا أقرب إلى التشخيص العلمي من الافتراضات المنطقية، الا انه يعتمد الرؤية الماركسية في المادية الجدلية المركز الأهم والأقرب إلى الكشف العلمي، لكنه لا يقدم المادية التاريخية بحتمياتها إلى ذات المستوى في اعتماد المادية الجدلية، فلتتابعية التحولات من المشاعية إلى الشيوعية امر لا يخلو من تعسفية في الافتراض.

2: على الرغم من ابتعاده عن المعترك السياسي على نحو كامل في أواخر الستينيات، إلا ان قراءاته الفلسفية اليسارية المنحى جعلته في تأطير سياسي كان لا يرغب فيه. وفي كتابه (فلسفة الحكم عند الأمام) توضح كيف يقرأ الحدث التاريخي والفكر الديني برؤية حضارية بسيمياء يساري بحت.

3: يؤمن ان الطريق الأمثل إلى الحكم يتجسد بالديمقراطية المكللة بالثقافة الشعبية التي تعتمد التربية والتعليم، فالشعب المثقف يستطيع ان يختار حكامه بما يحقق المصالحة دون دكتاتوريات تعسفية تتبنى فكرة الغلبة.

4 : في مقالة له (الثورة مقدماتها ونتائجها) 1958 وفي أوج التوجه اليساري، وهو محسوب على هذا المد الثائر الذي لا يخلو من انفعال جماهري، قدم في مقالته ما يكشف رؤاه التي مهدت للنمو ذي البعد اليساري الليبرالي؛ اذ استدعى آراء (جون لوك) (1632 – 1704) في قراءة جاورها بآراء (كارل ماركس) (1818 –1883) بجدل فكري يؤشر ما يتفق معه وما يعده رؤى قابلة للاختلاف، ويقدم ما يعده مزاوجة بينهما في ان شروط الثورة تعتمد الجذر الاجتماعي المتوجه بوعي يقود الانفعال وليس العكس.

يتضح ان (نوري جعفر) عاش مخاضا

فلسفيا في تعيين الأفضلية في بنى الفكر الفلسفي الذي تعامل معه، او الذي وضعه فوق طاولة التحليل والتقييم، فهو ماركسي النزعة بحكم الجانب العلمي في المادية الجدلية التي تقدم تحولات في بنى الظواهر بفعل صراع حتمي، فضلاً عما يؤشره من سلبيات في توزيع رأس المال، التي أسست لتمايز طبقي لم ينصف الشرائح الأوسع من المجتمعات، ولاسيما ما يشكل صورة عذاباته في حياته نتيجة فقر أثر حتى في فقدان حقوقه المشروعة، الا ان قراءاته المكثفة في علم النفس التربوي وتاريخ العلوم التربوية، وما تنامت واختلفت عليه الاتجاهات والمناهج الفلسفية المتنوعة، شكل صورة انتماءاته او التزاماته في الانتقاء المبرمج بين الماركسية بتناميها لدى (لوكاش وبياجيه وكرامشي)، حتى انه توافق مع (جان بياجيه) في قراءاته التي اعتمدها في آليات (اللغة وعلاقتها بنتاج الفكر) ضمن كتبه (اللغة و الفكر) و(الفكر). إذ تتضح مقاربة بين أراهما في البناء المعرفي للإنسان، بفعل صور التحول في الذكاء الإنساني بأثر استعمالات اللغة، فـ (الابيستيمولوجيا التكوينية) لـ(جان بياجيه) تنكشف بالقراءات المتقاربة التي قدمتها علوم النفس، على وفق ما تقارب مع نتاجات (النيرو سيكولوجي). انهما يتفقان في رفض ما اعتمدته الميتافيزيقيا الكلاسيكية ذات المرجع الأفلاطوني، لما تعتمده من فطرية او قبلية المعرفة. كما ان قراءة (نوري جعفر) و(جان بياجيه) تنتظم ضمن رؤيتهما المتقاربة في التربية والنمو المعرفي للأطفال.

فالعقل الإنساني منذ السنوات الأولى لتكوين الوعي وبناء المعرفة، ما هو إلا مختبر تفاعلي مع محيطه، نعم يحركه في الأعم ضاغط الحجات وهي متحولة ومتغيرة بحسب ضواغط متنوعة ومختلفة. يتحكم بها محركات الزمان والمكان المحيطة بالإنسان.

لقد استطاع (نوري جعفر) ان يركب بذكاء استثنائي بين (البرجماتية) على مستواها العلمي المنطقي، ولاسيما في استلهامه لكتاب (جون ديوي) (المنطق نظرية البحث)، وكتابه المهم (البحث عن اليقين)، وبين نتاج (نوري جعفر) المهم في تأثر الإنسان بضواغط الاشتراط (السيكوفيسيولوجي) عن طريق كتابه المهم الذي يعد متفرداً في الثقافة العربية (الإنسان في ضوء فسلجة بافلوف). ولاسيما عندما يكون الضاغط الاجتماعي جزءًا من تكوين الحجات.

إن الفكر واللغة كليهما ينطلق من أثر الواقع المحيط بالإنسان، ولا سيما متطلبات المجتمع، فالفكر متفاعل مع حل إشكالات الوجود المتنوعة التي تجابه الإنسان، ان رؤية (نوري جعفر) انطلقت من محاولة اندماج استثنائي قصدي بين (المادية الجدلية والبرجماتية) بمرتكزاتهما المنطقية المتماهية مع فلسفة العلم، اذ تتوافق أفكاره معهما في تقويض الرؤية الميتافيزيقية، ولا سيما برفض المغالاة (الميتافيزيقية) في اعتماد (القبلية) بوصفها المنتج للإبداع الإنساني.

انها العقلانية التجريبية التي أسست بأذرع تفاعلية بين (علم النفس التجريبي واثر اللغة بمنطق اللسانيات)، فضلا عما قدمته (الوضعية المنطقية) وفق (برتراند راسل) الذي حاول (نوري جعفر) دمجها مع

(المنطق البرجماتي) على وفوق ما أسس له (جون ديوي).
وبإزاء ما قدمنا يتضح ان العلاقة بين الفكر واللغة يمكن ان تكون ضمن دائرة ينتج أحدهما الآخر، ولهذا فان للغة إمكانية إعاده تشكيل الفكر، كما ان الفكر يتحرك بأدوات اللغة ومنها الصورية.
لقد استطاع (نوري جعفر) ان يعلن موت مقولة (الموهبة) ذات المرجع الميتافيزيقي الذي هيمن على سردياتنا.

---

10 نيسان 2026

*** جابه الرجل تهميشا متعمدا في بعض منه إبعاد بفعل شعور أصحاب القرار ان نتاجه محرج لهم لتخلفهم، ولعدم مجاملة وتعظيم كاذب لأصحاب القرار في السلطات العليا، فهو ابي صادق، لا يناغي ويتملق مهما كلفه الامر من اشكالات.**

الهوامش:

1 - عمانؤيل كانط: نقد ملكة الحكم ، ترجمة: سعيد الغانمي ، بيروت، كلمة ومنشورات، 2009، ص، 238 –239 .
2 - نجم حيدر: الأسس السيكولوجية لعملية الإبداع الفني، رسالة ماجستير، جامعة بغداد ، كلية الفنون الجميلة، 1984، منشورة، نقلا عن كتاب نوري جعفر بالإنكليزية: JAFFR,NOURI; CREATIVITY AND BRAIN…1979, p. 50.
3 - ينظر فيما ورد من أفكار لمجموعة كُتب د. نوري جعفر (الفكر، اللغة والفكر، الأنسان في ضوء نظرية بافلوف).

في رحاب مكتبة عالم النفس نوري جعفر

د. رشيد الخيون

عندما كان يكتب العلامة نوري جعفر بحثاً، كنا نحن طلبة الثّانويات على الرَّغم مِن مستوى الدّراسةِ الثّانوية العالي آنذاك؛ نقرؤه بحذر، وإن فهمناه فبصعوبة بالغة، فهو لم يكتب خاطرةً أدبيَّةً ولا مقالاً صحفيَّاً سياسيَّاً، كان يكتب علماً مازجاً بين عناصر عدة: العِلم بمعلوماته والتّراث بشواهده، والأدب بأسلوبه، يبحر في داخل النّفس الإنسانيّة وفسلجة الدَّماغ، وما لجهاز الأعصاب مِن وظائف، تبدأ مِن الإحساس إلى التفكير، وكيف يكون الحبّ وشعور الكراهيَّة عبر هذا الجهاز العجيب، ثم يبحث كيفية نشأت اللُّغة التي نتحدثها، وليس للمتحدث بها السُّؤال مِن أين أتت، لأنَّ هذا مِن واجب العلماء وشغلهم، لذا في ذلك المستوى لم تكن مثل هذه المواضيع مطروقة في المجال الثّقافيّ العراقيّ، وفي بداية الاطلاع عليها كأنها لم تكن تعنينا شيئاً، ومع تحاشي التمعن بها لصعوبتها وغرابتها، أذكر تماماً كان اسم نوري جعفر يجبرنا على الاحتفاظ بعدد المجلة أو الجريدة التي نشرت مقالته أو بحثه. قد لا نتذكر تفاصيل ما كان يكتبه نوري جعفر، في تلك الآونة، وهو الباحث المتمرس، بعد نيله شهادة الدكتوراه (1949)، لكنّ اسمه وتخصصه في النّفس الإنسانيَّة ظل مرسوماً في الذاكرة، حتّى تمكنا مِن قراءته وترقب مّا يكتب، وما مزجه بين دراسة النَّفس وأغوارها وما في التّراث مِن شواهد طرقها بتحليل سيكولوجي.

كتب نوري جعفر في عدة مجالات، لكنه ربطَ ما كتب بتخصصه الأول والأخير كافة، فعندما كتب عن الجاحظ تحدث عن تأثيره السّايكولوجيّ، في زمانه، على مجتمعه وانعكاس ذلك على شخصيته، وكيف أنّه عكس نفسية مجتمعه آنذاك، وجمع معه جورج برنادشو وجائزة نوبل، وقد يكون العنوان غريباً «كتابان بين الجاحظ وجورج برنادشو وجائزة نوبل»، نُشر ضمن سلسلة «الموسوعة الصّغيرة»(دار الشؤون الثّقافيّة العامة- بغداد 1990)، في الأصل بحث لمؤتمر كان مؤملاً عقده بالبصرة لألفية الجاحظ(1983)، ولا ندري هل تم عقده أم ألغي بسبب الحرب، التي كانت رحاها تدور فوق نخيل البَصْرة، وكانت إحدى أهم ملحقاتها الإداريَّة «القرنة» مسقط رأسه. صدر ما عده

لمؤتمر الجاحظ كُتيباً، وهو أمامي الآن، لا يتخطى حجم الكراسة، لكن بعد إتمام قراءته تجد نفسك قد قرأت ثلاثة مجلدات ضخام، بمعلوماته ومصادره وأفكاره.

في هذا الكتاب وغيره، كان نوري جعفر كاتباً تراثياً ومؤرخاً وعالماً؛ لكنه لم يؤرخ لأحداث، فهذه مهمة المؤرخ المختص، إنما حلَّل التّاريخ على أساس فلسفي في كتابه «التّاريخ مجاله وفلسفته»، ومثل هذا الكتاب يحتاج إلى قراءة التّاريخ، فنجده دخل إلى التّاريخ ولم يستطع الانفكاك منه، ظلت كتبه ومقالاته ذات منحى تاريخي، مع فرض التحليل السايكولوجي والاجتماعي عليها. يُذكرنا هذا بما حصل مع أبي حامد الغزاليّ (تـ: 505هـ/1111م)، فلكثرة اطلاعه على كتب الفلسفة، بدافع الرَّد على الفلاسفة، قيل عنه: «شيخنا أبو حامد دخل في بطن الفلاسفة، ثم أراد أنْ يخرج منهم فما قدر "(ابن تيمية، الانتصار لأهل الأثر)". فما الذي أوصل نوري جعفر إلى تأليف «الجوانب السّيكولوجيَّة في أدب الجاحظ»؟ غير انجذابه إلى التُّراث، وهذا ما جذبنا إليه منذ البداية، ولكثرة اهتمامه بهذا التّراث، وتمعنه في جزالة عبارة الأولين عشق العربيَّة، وألف لها «مواطن الأناقة والجمال في اللّغة العربيّة»، وبهذه الصّلة كان شاعراً أيضاً، ولم يتفرغ للشعر، إلا ما فرضته عليه المواقف وسخت به العاطفة.

قرأ الكثيرون «مقامات الحريري» (القرن السادس الهجريّ)، كما كتب الكثيرون عنها، لكن قد لم يتقدم كاتب ويصف نفسية الحريري، ويتجرأ ليقول عنه «كان تقدمياً» (مقال: مع الحريري في مقاماته/ آفاق عربية 1979) مثل نوري جعفر. أقول: مَن يجرؤ على المقابلة بين الجاحظ وبرنادشو، ولم يعبأ بالنقد على هذه المقابلة، غير مَن دخل سايكلوجياً إلى نفسية الكاتبين الفذين، وميز كل منهما بعصره، وما بينهما مِن تشابهات؟! غير مَن دخل في بطن المؤرخين والفلاسفة، ولم يقدر الخروج من هذا المنحى في التَّأليف والتَّفكير أيضاً.

اعترض نوري جعفر على مَن عزل بين اللُّغة والفكر، وأقول: مثله مثل العازل بين الشّمس ونورها فلا وجود لأحدهما دون الآخر. أتى علامتنا بمثال أوضح خطأ هذا العزل، الذي يحول اللُّغة إلى مفردات جامدة لا تعني شيئاً. فأتى بمثال الماء وعنصريه الأساسيين: «الهيدروجين والأوكسجين»، صحيح أنهما غازان، والماء سائل، والماء يطفئ النَّار والغاز يشعلها، وغيرها مِن المميزات، لكن يبقى الرَّابط أنَّ الماء يتشكل منهما، وهكذا تتشكل اللغة مِن اللفظ والمعنى والأخير مهمة الفكر، وإلا لا تسمى لغة. نقول: هل يمكن تسمية أصوات الببغاوات لغةً، لا يمكن لأنها لم تنشأ لغة بل أصواتاً. هذا ما ناقشه نوري جعفر في كتابه «اللُّغة والفكر».

كان نوري جعفر إذا كتب في الأدب أو التُّراث أشرك فيه اختصاصه «علم النَّفس» مثل كتابه «الجوانب السايكولوجية في أدب الجاحظ» مثلاً؛ وما كتبه في المتنبيّ، لكن إذا كتب وبحث في اختصاصه جعله خالصاً، خذ «الجهاز العصبي المركزي»، وما كتبه في فسلجة الدّماغ مثلاً.

مِن المعلوم أنّ قراءة المؤلفات والمقالات في علم النّفس صعبة، وهو علم بحت، نال مكانته متأخراً على بقية العلوم، أي ذات موضوعها معقد، فلا تستهوي الكثيرين، غير أنّها تسهل عندما يكتبها محترفون بالكتابة والتأليف، نالوا قسطهم مِن فن الكتابة وأسلوبها المحبب، وبهذا

سهلت معقدات علم النَّفس بأقلام أمثال نوري جعفر.

صحيح أنَّ شأن الحب ومخزنه، كان ومازال، محط اختلاف، بين القلب والدَّماغ، فكلّ أشعار النَّسيب أو التَّشبيب، وكل شكوى العشاق وعذاباتهم، تخص القلب لا الدَّماغ، وقد أجاب نوري جعفر على هذا التَّساؤل والاختلاف بكتاب خاص «الحب بين القلب والدّماغ»، وكأن الجواب فيه من جوابه على مَن أراد عزل اللغة عن الدَّماغ، وفي الحب لا يعزل القلب عن الدَّماغ، القلب ليس الآلة الضَّاخة للدم، الضَّاخة للحب والأحاسيس أيضاً، والدَّماغ مولدها.

إذا كان العلم والأدب مؤسسين لثقافة نوري جعفر، المهنية والعامة، فإن التّرحال العلمي، حيث الدّراسة والتَّدريس في جامعات عدة وببلدان مختلفة، شرقاً وغرباً النَّاطقة بالعربيّة والنَّاطقة بالإنكليزيَّة، كان منهل آخر مِن مناهل ثقافته، وزيادة خبرته في النّفس البشريَّة، مِن تلك المحطات محطة التّدريس بالمملكة العربيّة السّعوديَّة، وهناك كان نوري جعفر وزملائه، وهم مِن كبار أكاديميي العراق، أمام محنة، أن يجدوا ابن وطنهم، لاختلاف عقائدي، فهو مِن الإسلاميين وهم مِن أهل اليسار، بذل الجهود الحثيثة كي يبعدهم عن العمل، الذي لاذوا به بعد عزلهم عن التّدريس ببلادهم (1963)، في عهدٍ من العهود، مستغلاً طابع المملكة السعودية المتّدين هناك، وخصومتها العميقة مع اليسار سياسياً في ذلك العهد بالذّات، لكن وزارة المعارف، ممثلة بوزيرها حسن آل الشّيخ، وما كان يعكسه للملك فيصل بن عبد العزيز عن هؤلاء العلماء، لم يؤخذ بمشورة السَّاعي ضدهم، وانتهى الأمر باستقبالهم مِن قِبل الملك، كي يوصل رسالة، بأن بلاده لا تفرط بمثل هذه القامات العلميَّة، حتَّى قال وزير المعارف السّعودي، حينها لهذا السَّاعيّ بما معناه: «هؤلاء مشغولون بمحراب العلم، انتفعنا بعلمهم»، وبأثر هذا الموقف ووفاء له سمَّى نوري جعفر ابنته نجُود، وحفيده فيصلاً. كنت كتبتُ عن هذه الحادثة، وفصلتها تفصيلاً، ولا مجال لإعادتها في هذه المقدمة.

اتصلت بيّ نجُود نوري جعفر، قبل نحو سنتين مِن إطلاق موقع «مكتبة العلامة نوري جعفر»، وعرضت أفكاراً لإعادة نشر خزانة أبيها مِن تآليفه، ناهيك عن مئات البحوث والمقالات، وهو إرث حضاري لا يُقدر بثمن، فكلُّ ما كتبه رائد علم النَّفس بالعراق، وأحد أبرز رواده بالمنطقة والعالم، يصب في نهر التّقدم الحضاريّ، وفيه شفاء مما نرى ونسمع مِن مفجعات التّأخر، فكان يعتبر التَّعليم اقتصاداً مع الاقتصادِ في تقدم البلدان، وأهم استثماراً تستثمر به الأنظمة، إذا كانت حقَّاً مهتمةً بشعوبها، وهذا التَعليم سيكون مضراً على المجتمع في ظل الأنظمة القمعيَّة، لأنه سيعلم القمع والاستبداد والاستعباد يُقدم وفق عقيدة بعينها، تنسف المعرفة في العقول.

كتب ذلك العام (1962)، ونشره في مجلة «المعرفة» السّوريَّة (1963)، وكانت المجلة اعتذرت عن تأخير نشره، بقصد أن يُنشر لأهميته في عددها الممتاز من تلك السّنة. بحكمة معرفيَّة أوصى العلامة الرَّاحل بالأدب والفن خيراً، فالتقدم يحتاج الجناحين، بينما هناك مَن اعتبر العِلم لا شريك له، لهذا كتب «الأصالة في شعر المتنبيّ»، وكتب «الأصالة في مجال العِلم والفن».

قلت وضعت نجُود جملة أفكارٍ، وصار الخيار تأسيس موقع إلكترونيّ خاص، تنضد

فيه تآليف نوري جعفر مِن كتبه ومقالاته، وكلُّ ما يتعلق بإرث أبيها، يكون «مكتبة العلامة نوري جعفر»، وأرى في هذا الإنجاز خدمة جليلة للباحثين والأكاديميين والطَّلبة والقراء، في شأن علم النّفس وفسلجة الأعصاب والاجتماع واللغة، مِن حيث كونها نتاج الدَّماغ الإنساني لا بما يخص صرفها ونحوها ومعاجمها، وكذلك لمَن يبحث في الجمع بين الأدب وعلم النفس، وكيف يعالج عالم النفس موضوع التاريخ وشخصيات منه مازالت تشغل حاضرنا، ولم يكن الطِّفلُ منسياً في مؤلفات نوري جعفر فلتربيته ونشأته وكيانه أكثر مِن كتاب، وأحدها «الخيال العلميّ في أدب الطفل».

في الختام وجب التّنويه: ما ورد مِن رواية خاطئة عن سبب رحيل العلامة نوري جعفر ليس غريباً؛ فمَن يقرأ التّاريخ بعين الناقد وهمة الباحث، سيجد أضابير مِن المختلقات، وما يُبنى على الأصل مِن أغاليط، فالأصل أن الرَّاحل توفى بليبيا(1991)، بنزلة برد شديدة، لكن ما بنيّ عليه كان مختلقاً، وهو أنّ سائق سيارة أجرة اغتاله، وهو في طريقه إلى المطار مغادراً إلى العراق، وقد شاع ذلك على مواقع الإنترنيت حتّى كاد يكون هو الحقيقة، وللأسف تورط به كتاب معروفون، وهذا ما أزعج أسرته.

حقَّاً كان نوري جعفر عبقرياً، في ما فكر وكتب، وبالنسبة لي تتجلى عبقريته في الجمع بين العِلم والتّراث وله «التّراث العربيّ في مجال التّربيّة وعِلم النَّفس كما ورد في رسائل إخوان الصَّفا»، ومع أهمية هذا الكتاب لم يطرقه المؤلفون في إخوان الصَّفا ورسائلهم، والأسباب جمة، وبينها قصور المؤلفين أنفسهم، وأنا بينهم في طبعة كتابي الأولى «إخوان الصّفا المفترى عليهم إعجاب وعجب»، لكنني تدبرت أمري، وتطهرتُ مِن خطيئتي، في طبعة الكتاب الجديدة.

أقول: أبلغ ما يُقال برحيل عبقريّ في مجاله مثل نوري جعفر، وتبادل الحياة والموت اللغز الأزلي (الجواهري، في معروف الرُّصافيّ 1959):

لَغزُ الحياةِ وحيرةِ الألبابِ
أنّ يستحيلَ الفكر محضَ ترابِ
أن يصبحَ القلبُ الذَّكي مفازةً
جرداءَ إلاّ مِن خفوقِ سَرابِ

وما يتمناه الشَّاعر لمرثيه، وما نتمنى لمثل الرَّاحل عبر تركته الفكريَّة، التي بين أيدينا:

ليتَ السّماءَ الأرضُ ليتَ مدارَها
للعبقريّ به مكان شِهابِ
يومى له ويُقال ذاك شعاعه
لا محضُ أخبارٍ ومحضُ كتابِ

مشروع نوري جعفر التعليمي - التربوي: المراهنة على العقل بوصفه ثروة وطنية

د. جمال العتابي

تحتل تنمية الثروة العقلية واستثمارها محلّ الصدارة في جهد العلّامة نوري جعفر، أصبح هذا الهدف محور اهتمامه الفكري والعلمي طيلة انشغاله في البحث العلمي الرصين، فانصرف كلياً للكشف عن المواهب والكفاءات وتنميتها وتوجيهها ورعايتها علمياً وتربوياً ومهنياً، ذلك أنه يَعدّ العنصر البشري جزءاً لا يتجزأ من الثروة الوطنية، ولأجل ضمان تحقيق هذا الاستثمار على خير وجه على وفق منهجية علمية مبرمجة، قدّم نوري جعفر المئات من البحوث والدراسات إلى المؤسسات العلمية والهيئات التربوية، داخل العراق وخارجه، لكي تتحول تلك الأفكار إلى واقع ملموس يرنو ببصره إليه، ليتحول إلى حقيقة ماثلة أمام عينيه، ولأنه كان يعي تماماً الصعوبات الجمّة التي كانت تعترض سبل الكشف عن مصادر الإبداع وإعاقتها، بسبب العقلية المتخلفة السائدة التي تدير أو تشرف على ميدان العلم ومؤسساته، وكثيراً ما تعرّض بسبب منهجه هذا إلى المضايقات والملاحقة، أو التهميش من قبل السلطات الحاكمة، ودفع بسبب ذلك ثمناً باهظاً فاختار الغربة، أيضاً، وعاش بعيداً عن وطنه. بألم وحسرة وهو يشهد ما أحاط بالوطن من ظلمة وخواء، يقول الراحل نوري جعفر: كان أملي كبيراً بأن يصبح مشروعنا في المستقبل

غير البعيد مثالاً نموذجياً رائعاً يحتذى به في أرجاء البلاد العربية والدول النامية، وأن يتحول أيضاً بصورة تدريجية إلى أكاديمية علمية، ينصرف أعضاء الهيئة التدريسية فيها وطلابها إلى إجراء أبحاث علمية أصيلة رائدة نظرية وتطبيقية، ويعني بذلك «مشروعه الوطني « في أساليب الكشف عن المواهب العلمية وطبيعتها. وكان يحلم بأن يعرض العراق في هذا المشروع منجزاته العلمية النظرية والتكنولوجية في المحافل العلمية الدولية.

تتلخص فكرة هذا المشروع بدراسة المواهب وتحديد ماهيتها، والتي يعرّفها: أنها قدرات عقلية نادرة أو فريدة يتّصف بها بعض الناس وتعبّر عن نفسها عند النضج، بالرابطة

الخفية بين الموهبة والخيال.

ومثلما يشير (فاخز عاقل – الإبداع وتربيته) وهو يبحث في طبيعة العمل الإبداعي وشروطه، الذي يعرّفه بـ (الدهشة الفعّالة)، فالبحث في وظائف الدماغ أخذ الحيز الأكبر في انشغالات نوري جعفر العلمية، في ضوء علوم الدماغ الحديثة. وكانت جلّ طروحاته تنفي وجود قدرات رياضية وغير رياضية نظرية كامنة في طبيعة الفرد، أو مسجّلة على صفحة المخ، فمحتوى القدرات العقلية جميعها ينشأ بالاكتساب البيئي وأن الخصائص المخيّة لأصحاب المواهب لا تؤدي من نفسها إلى إنتاج أي شيء إلا إذا وجدت الظروف البيئية الملائمة واستثمرها صاحبها إلى حدها الأقصى في الموضوع الذي يجنح نحوه منذ سن مبكرة، مع العلم أن تلك الخصائص موجودة بشكلها العام لدى جميع الأفراد الأسوياء بدرجات متفاوتة.

إن القدرات العقلية برأيه ليست قوة فطرية مسجّلة تتحجر على صفحة المخ، بل هي تنشأ وتتطور في مجرى الحياة اليومية، والفروق الفردية في هذه القدرات لا تدلّ على شيء آخر، سوى أن الأشخاص قادرون على القيام بجميع أوجه النشاط العقلي بدرجات متفاوتة وأن كل شخص سوى أقدر من غيره (ومن نفسه أيضاً) في مجال معين منه في المجالات الأخرى، فبعض الطلاب يتخطى أقرانه في بعض الموضوعات ويتخلف عنهم في موضوعات أخرى، وبإمكانه أن يتخطّى نفسه في موضوع أو أكثر من موضوعات الدراسة، وأن يكون مبدعاً فيها، وهذا يستلزم إتاحة فرص تعليمية واجتماعية ملائمة لجميع الطلاب ليستثمر كل منهم رصيده المخّي إلى حده الأقصى في الموضوع الذي يميل إليه.

في ضوء ما تقدم، يؤكد نوري جعفر ضرورة تجهيز الطالب منذ اليوم الأول في تعليمه مادة الرياضيات - بوصفها الميدان الأكثر واقعية في الكشف عن المواهب - بمواد حسية بصرية كثيرة ومتنوعة، وجعله يتعامل معها تمهيداً لحصول الصور الذهنية، والحسية والبصرية والتعامل معها بدل الأشياء المادية. ويستلزم كذلك تدريب الطلاب على فهم معاني المصطلحات الرياضية الملائمة وتجهيزهم بثروة لغوية رياضية مناسبة وتبسيط صوغ المسائل الحسابية والعناية بدقة التعابير المستخدمة والابتعاد عن استعمال الألفاظ والعبارات الغامضة تفادياً لحصول الالتباس في أذهانهم. وهو بذلك ينبّه إلى عقم أساليب التعليم في مراحل الدراسة الابتدائية، وبخاصة في الصفوف الثلاثة الأولى، لذا كان يدعو إلى أن يغير المعلّم موقفه السلبي من الطالب إلى موقف إيجابي يتّسم بالحنان والتوجيه وبعث الثقة بالنفس لتمكينه من التغلب على صعوبات التعلم والدراسة.

يطرح نوري جعفر أساليبه المتنوعة في رعاية الموهوبين، منطلقاً بذلك من تجارب عالمية في هذا المجال، وجد في تطبيقها، أو الإفادة منها، معيناً مهماً في ابتكار أساليب جديدة تناسب الواقع المحلي، وتكاد تجمع تلك الأساليب على رعاية الموهوبين من خلال إثراء مفردات منهج الدراسة المعتاد، بإضافة موضوعات جديدة، أو التوسع في موضوعاته أو باعتماد أسلوب التعجيل (التسريع) وذلك بالسماح للطالب بالانتقال إلى صف أعلى من صفه في أثناء العام الدراسي الواحد، فضلاً عن الرعاية الخاصة بالنشاطات اللّاصفية خارج أوقات الدوام المحدد، في ضوء برامج معدة علمياً لهذا الغرض.

ويستلزم تنفيذ هذه الأساليب القيام بمسح شامل للقدرات المتميزة في كل مدارس العراق، وتسجيل الحالات الأكثر وضوحاً في تلك القدرات منها: الرغبة الواضحة في موضوع الرياضيات والفيزياء، والميل الملحوظ نحو تعلم وإتقان المهارات الأساسية، كذلك القدرة على تعميم المادة الرياضية المتعلمة، والمرونة في إجراء العمليات الرياضية وإدراك جوهرها والقدرة على ابتكار أساليب جديدة لحل المسائل الرياضية، والإلمام بالعلاقات الرياضية العامة وبأساليب التفكير الرياضي، كذلك القدرة على اختزال خطوات العمل الذهني والميل نحو إدراك العالم الخارجي إدراكاً رياضياً، أو تحليل الظواهر البيئية وعلاقاتها تحليلاً رياضياً، والقدرة على ممارسة التفكير بشكل مقلوب، أو معكوس أي السير من المجهول والرجوع به إلى المعلوم، فضلاً عن الجرأة أو الإقدام على اقتحام المجهول. مع ضرورة توفر استقلالية التفكير الرياضي والاتصاف بالمبادرات الشخصية والابتعاد عن التقليد أو المحاكاة أو التطبيق الميكانيكي على الحالات الجديدة.

إن أحد الأسباب التي دعت نوري جعفر التركيز على حقلي (الرياضيات والفيزياء) في كشوفاته العلمية، هو إيمانه المطلق بأن تقدم الشعوب، وتمكنها من بناء حضارتها لم يأتِ من فراغ أو مجهول، بل اعتمدت كلياً في برامجها وخططها العلمية على ذينك العلمين، ووضعهما في ميدان التطبيق الفعلي والعملي. وهكذا ظلت الدول المتقدمة تتسابق من أجل تحقيق أفضل الإنجازات بفضل هذين العلمين. ولابد من الإشارة إلى الرأي الذي كان يرجع سر تفوق (الاتحاد السوفيتي) آنذاك، على الولايات المتحدة في مجال غزو الفضاء، أيام الحرب الباردة، هو تفوق علمائه الرياضيين والفيزيائيين على زملائهم في الدول الأخرى، وربما تأثر نوري جعفر بالمدرسة (السوفيتية) -إذا صح التعبير- بعد أن سنحت له الفرصة بعد تموز 1958 للاطلاع مباشرة على تلك التجربة، وهو لا يخفي هذه الحقيقة حين قدّم لكتابه (طبيعة الإنسان في ضوء فلسفة بافلوف) الصادر عام 1978 إذ يقول: أتاحت لي ثورة 14 تموز فرصة الاطلاع المباشر عن طريق اللغة الإنكليزية على منجزات الفكر السوفيتي في علم النفس وفلسفة الجهاز العصبي المركزي، فكانت حصيلة ذلك هذا الجهد الفكري المتواضع.

يلمس المتتبع لسيرة حياة هذا العالم ملامح جديدة في مواقفه السياسية والاجتماعية فيها انحياز واضح لقضايا شعبه، ويتجلى هذا الانحياز في تعاطفه الكامل مع «بافلوف» حينما يستعرض حياته يقول عنه: ومع أن «بافلوف» كان رجل علم مختبري تجريبي، إلا أنه مع ذلك لم يعزل نفسه أو علمه عن الحياة الاجتماعية التي كانت تجري من حوله فارتبط بالجماهير بكل جوارحه وعواطفه النبيلة وأعدّ العمل الشريف الذي يدرّ على صاحبه الرزق الحلال أثمن شيء في الدنيا.

البعد المنهجي لمشروعه

لم يكن مشروع نوري جعفر مجرد دعوة إصلاحية عامة، بل قام على رؤية منهجية متكاملة استندت إلى علم النفس التجريبي وعلوم الدماغ والتربية الحديثة. فهو لم يكتفِ بتشخيص أزمة التعليم، بل اقترح أدوات عملية للرصد والقياس والتوجيه، ما يمنح مشروعه قيمة أكاديمية رصينة، إذ سعى إلى

تغيير الواقع التعليمي لا وصفه فحسب.

مفهوم الموهبة وعلاقتها بالخيال

تتلخص فكرة مشروعه في دراسة المواهب وتحديد ماهيتها، إذ يعرّفها بأنها قدرات عقلية نادرة تتجلى في القدرة على اكتشاف علاقات خفية بين عناصر مألوفة. وترتبط الموهبة عنده ارتباطاً عضوياً بالخيال، الذي لا يعدّه نقيضاً للعقل، بل امتداده الأكثر حرية وخصوبة.

فالخيال هو القدرة على إعادة تركيب الواقع، وعلى الجمع غير المألوف بين عناصر متباعدة، بما يفضي إلى إنتاج الجديد. وكلما ازداد الخيال ابتعاداً عن المباشر، كان أكثر رقياً، سواء في الرياضيات أو الشعر. وهذه الرؤية تضعه في تقاطع مع الفلسفات الحديثة التي ترى في الخيال قوة معرفية منتجة، لا مجرد ترف جمالي.

لم يكن مشروع نوري جعفر، في جوهره، مجرد دعوة تربوية لتطوير طرائق التعليم أو الكشف عن المواهب، بل كان، على نحو أعمق، مشروعاً لإعادة تعريف العلاقة بين الإنسان والمعرفة. فقد أدرك مبكراً أن العقل لا يُبنى بالتلقين، ولا تُستثار طاقاته الكامنة عبر التكرار الآلي، وإنما عبر ما يمكن تسميته بـ»أخلاق المعرفة»، أي ذلك الوعي الذي يجعل من التفكير فعلاً حراً ومسؤولاً في آنٍ معاً.

الرياضيات والفيزياء بوصفهما اختياراً فلسفياً

إن إلحاحه على الرياضيات والفيزياء لم يكن انحيازاً تقنياً بقدر ما كان اختياراً فلسفياً، إذ رأى فيهما النموذج الأعلى للصرامة الفكرية، حيث تتجلى القدرة على الانتقال من المحسوس إلى المجرد، ومن المعطى إلى الممكن. وهذا ما يفسر تركيزه على "التفكير المعكوس" والانطلاق من المجهول نحو المعلوم، بوصفه تمريناً على كسر النسق الذهني السائد، وتحرير العقل من أسر التقاليد الموروثة.

ومن هنا، فإن مشروعه يتجاوز حدود المؤسسة التعليمية ليغدو مشروعاً حضارياً، يراهن على إعادة تشكيل الذهنية العراقية والعربية، عبر استبدال ثقافة الامتثال بثقافة السؤال، وثقافة الحفظ بثقافة الاكتشاف. فالموهبة عنده ليست امتيازاً بيولوجياً مغلقاً، بل هي إمكانية مفتوحة، تتغذى من البيئة، وتزدهر حين تجد نظاماً تعليمياً يؤمن بالاختلاف ويحتضن التفرد.

ولعل أكثر ما يمنح تجربة نوري جعفر فرادتها، هو هذا التوتر الخلّاق بين العلمي والإنساني في مشروعه؛ فهو، وإن انطلق من علوم الدماغ والنفس، لم يغفل البعد الاجتماعي والأخلاقي للمعرفة. لذلك ظلّ حريصاً على أن يبقى العالم مرتبطاً بمجتمعه، وأن يتحول العلم إلى قوة تحرير لا أداة هيمنة، وإلى وسيلة لكرامة الإنسان لا مجرد أداة إنتاج.

بهذا المعنى، يمكن النظر إلى نوري جعفر بوصفه واحداً من القلائل الذين حاولوا أن يؤسسوا لعقل عربي حديث، لا يكتفي باستيراد المعرفة، بل يسعى إلى إنتاجها، ولا يرضى بالاقتباس، بل يطمح إلى الابتكار. وهو طموح، وإن بدا مؤجلاً، إلا أنه يظل ممكناً ما دام هناك من يؤمن بأن النهضة تبدأ من سؤالٍ صحيح، ومن عقلٍ يتجرأ على التفكير خارج المألوف.

جدل البيئة والقدرة

ينطلق نوري جعفر من موقف علمي واضح ينفي أن تكون القدرات العقلية معطىً فطرياً ثابتاً، مؤكداً أنها تنشأ وتتطور عبر التفاعل مع البيئة. فالفروق الفردية ليست دليلاً على امتلاك قدرات نوعية مغلقة، بل على اختلاف درجات التفعيل والاستثمار لما هو مشترك بين البشر.

وهذا الطرح يحرر التفكير التربوي من النزعة القدرية، ويحمّل المؤسسة التعليمية مسؤولية اكتشاف المواهب ورعايتها، بدل الاكتفاء بفرزها أو تصنيفها.

نقد التعليم التلقيني

في ضوء ذلك، يوجّه نقداً عميقاً للنظام التعليمي التقليدي، القائم على التلقين والاستظهار، والذي يحوّل الطالب إلى متلق سلبي. ويرى أن هذه البنية التعليمية تُعطّل الإمكانات الإبداعية، وتقمع المبادرة، وتزرع الخوف بدلاً من الثقة.

ومن هنا يدعو إلى إعادة تعريف العلاقة بين المعلم والطالب، بحيث تتحول من علاقة سلطوية إلى علاقة تربوية قائمة على التشجيع والتوجيه وبعث الثقة.

أساليب رعاية الموهوبين

طرح نوري جعفر مجموعة من الأساليب لرعاية الموهوبين، منها:

- إثراء المناهج الدراسية
- التوسع في الموضوعات
- اعتماد أسلوب التسريع
- نشيط البرامج اللاصفية

كما دعا إلى إجراء مسح شامل للقدرات في المدارس، وتحديد المؤشرات الدالة على الموهبة، مثل المرونة الذهنية، والقدرة على التعميم، والتفكير الرياضي العميق، والجرأة في اقتحام المجهول.

القيمة الحضارية للثروة العقلية

إن مفهوم «الثروة العقلية» عنده يتجاوز كونه استعارة، ليغدو مفهوماً حضارياً، يجعل من العقل ركيزة أساسية في بناء الأمم. فالتقدم لا يتحقق بالموارد الطبيعية، بل بالقدرة على اكتشاف العقول وتنميتها.

بين العلم والعدالة الاجتماعية

لم يكن مشروعه نخبوياً، بل كان مشبّعاً بروح العدالة الاجتماعية، إذ آمن بأن الموهبة يمكن أن تنشأ في أي بيئة، وأن مسؤولية الدولة هي اكتشافها أينما كانت. وبذلك يصبح التعليم أداة للإنصاف، لا مجرد وسيلة للترقي الفردي.

تتجلى أهمية مشروعه اليوم في توافقه مع الاتجاهات التربوية الحديثة، مثل:

- التعلم النشط
- التفكير النقدي...
- التعليم القائم على حل المشكلات

ما يؤكد أنه كان مفكراً استشرافياً سبق زمنه، ارتباط مشروعه أيضاً ببعد أخلاقي واضح، إذ يرى أن العلم مسؤولية اجتماعية، وأن العالم يجب أن يبقى مرتبطاً بقضايا مجتمعه، لا معزولاً عنها.

نحو إعادة قراءة معاصرة

يظل نوري جعفر، في الذاكرة العراقية، أكثر من عالم أو تربوي، إنه مشروع لم يكتمل، وإمكانية ما تزال مؤجلة في ضمير الثقافة. فالرجل الذي راهن على العقل بوصفه ثروة وطنية، لم يكن يبحث عن نجاح فردي أو

مجد شخصي، بل كان يسعى إلى تأسيس بنية ذهنية جديدة، قادرة على تحويل المعرفة إلى قوة إنتاج، والتفكير إلى فعل حضاري.

وإذا كان الزمن قد خذل مشروعه في حياته، فإن القيمة الحقيقية لمثل هذه المشاريع لا تُقاس بمدى تحققها الآني، بل بقدرتها على البقاء كفكرة ملهمة تتحدى الإهمال والنسيان. فالأمم التي تتأخر في تكريم علمائها، لا تفقد أسماءهم فحسب، بل تفقد معها فرصاً كانت كفيلة بتغيير مسارها.

إن خطوة مجلة «الثقافة الجديدة» في استعادة نوري جعفر اليوم ليست عملاً وفائياً بقدر ما هي ضرورة معرفية، لأن مشروعه ما يزال صالحاً لأن يكون منطلقاً لإصلاح تربوي عميق، يعيد الاعتبار للعقل، ويضع الموهبة في سياقها الصحيح، بوصفها طاقة وطنية ينبغي اكتشافها ورعايتها.

إن سيرة حياة نوري جعفر، ومنجزه الفكري والعلمي، تمثل حالة فريدة من العطاء والأصالة، ومنهلاً ثراً للباحثين والدارسين وللثقافة العراقية على وجه الخصوص. فنوري جعفر إنسان ومبدع وإرث علمي بحاجة إلى اليد التي تعيد له مكانته المتميزة، وتردّ له اعتباره فحسناً لو فعلت وزارات التعليم العالي والتربية والثقافة بإعادة طبع مؤلفاته ووضعت أفكاره في مناهج التعليم موضع التطبيق، أو على الأقل لو أطلق اسمه على إحدى الجامعات أو القاعات التدريسية أو خصص يوم للاحتفاء به أو تكريمه، وتلك إجراءات لا نعتقد أنها عسيرة التحقيق لو توفّرت النوايا الطيبة لدى (أولي الأمر) في رعاية العلماء، فالبلد الذي لا يستذكر رموزه وعلماءه، أمثال: نوري جعفر ومصطفى جواد وجواد علي وعبد الجبار عبد الله ومهدي المخزومي وعلي جواد الطاهر، والقائمة تطول... فإنه سيكون والله بلد عاق.

إن إعادة قراءة مشروعه اليوم ينبغي أن تتجاوز التوثيق إلى التفعيل، عبر إدماجه في إصلاح التعليم المعاصر، وبناء برامج حديثة تستلهم أفكاره.

يظل نوري جعفر أكثر من عالم أو تربوي، إنه مشروع لم يكتمل، وإمكانية مؤجلة في ضمير الثقافة. لقد راهن على العقل بوصفه ثروة وطنية، لا لتحقيق مجد شخصي، بل لبناء مستقبل جماعي.

وإذا كان الزمن قد خذل مشروعه، فإن قيمته الحقيقية تكمن في بقائه فكرة ملهمة. فالأمم التي لا تستذكر علمائها، تفقد فرصها في التقدم.

إن استعادة نوري جعفر اليوم ليست وفاءً فحسب، بل ضرورة معرفية، لأن مشروعه ما يزال قادراً على أن يكون منطلقاً لإصلاح تربوي عميق.

وما بين حلمه الذي لم يكتمل، وواقعنا الذي ما يزال يبحث عن طريقه، تبقى دعوته قائمة :أن نمنح العقل فرصته، وأن نؤمن بأن المستقبل لا يُبنى إلا بعقول تفكر.

تجليات المادية الجدلية في فكر د. نوري جعفر

د. نبيل عبد الأمير الربيعي

ولد د. نوري جعفر في مدينة القرنة، جنوب العراق، عام 1914م، ونشأ في بيئة فلاحية، كان والده جعفر علي الجلبي فلاحاً بسيطاً متزوجا من ابنة عمه، أما والدته السيدة حليمة الجلبي فكانت حافظة للقرآن، ولها الدور في حفظه لسور القرآن ودخوله المدرسة، وكانت تتطلع إلى المعرفة وتثمن التعليم، الأمر الذي أسهم في تشكيل وعيه المبكر ودخوله المدرسة.

وقد تلقى تعليمه العالي في مجالات علم النفس والعلوم التربوية، حيث أظهر منذ بداياته ميلاً واضحاً نحو دراسة الظواهر النفسية والعقلية من منظور علمي منهجي، وتوجيه اهتماماته نحو البحث العلمي والفكري.

ولم يقتصر اهتمامه على الجانب النظري، بل اتجه إلى البحث في العلاقة المعقدة بين الدماغ والسلوك الإنساني، محاولاً الربط بين المعطيات الفسيولوجية والعمليات النفسية، في إطار رؤية علمية تتسم بالشمول والتكامل. وقد عمل أستاذاً جامعياً، وأسهم إسهاماً فاعلاً في تطوير الدراسات النفسية والعصبية في العالم العربي، وفي مجال تطوير مدارس الموهوبين، وهو أول من كتب عن الذكاء الاصطناعي عام 1985م، كما ساهم في تطوير الدراسات النفسية سواء من خلال تدريسه الأكاديمي أو عبر إشرافه على البحوث العلمية.

تميزت كتابات نوري جعفر بالجمع بين الدقة العلمية والعمق الفلسفي، إذ لم يكتفِ بعرض الحقائق، بل سعى إلى تفسيرها ضمن أطر نظرية حديثة، متأثراً بالنظرية الماركسية والمادية الجدلية والاتجاهات العلمية العالمية. كما عُرف بجرأته الفكرية في مناقشة القضايا المعقدة، وبمحاولاته المستمرة لتأسيس رؤية علمية عربية حديثة للإنسان، تستند إلى معطيات العلم، دون أن تنفصل عن السياق الثقافي والاجتماعي.

وقد ترك من خلال مؤلفاته ومحاضراته إرثاً علمياً مهماً، أسهم في إثراء المكتبة العربية، وفتح آفاقاً جديدة لدراسة الإنسان بوصفه كائناً بيولوجياً واجتماعياً في آن واحد، مما جعله واحداً من أبرز رواد الفكر العلمي في العالم العربي في القرن العشرين.

انشغل جعفر على امتداد مسيرته الفكرية بقضايا الإبداع والتفكير العلمي والذكاء الإنساني، ساعياً إلى مقاربة هذه الظواهر المعقدة من خلال رؤية تكاملية تجمع بين المعطيات الفسيولوجية والاجتماعية في آن واحد. فقد كان يؤمن بأن الإبداع ليس ومضة غامضة معزولة، بل ثمرة تفاعل عميق بين بنية الدماغ وما يحيط بالإنسان من شروط ثقافية وتاريخية.

وقد خلف إرثاً علمياً غنياً تجاوز ثلاثين مؤلفاً، تناولت موضوعات متعددة، من أبرزها العلاقة بين الدماغ والإبداع، وأثر البيئة الاجتماعية في تشكيل القدرات العقلية، فضلاً عن اهتمامه بتاريخ الفكر العلمي وتحولاته. وتميزت هذه المؤلفات بعمقها التحليلي ودقتها المنهجية، إذ استطاع من خلالها أن يقدم رؤىً جديدة تسهم في فهم الظواهر النفسية والعقلية ضمن أطر علمية حديثة.

كما اتسم أسلوبه بالقدرة على المزاوجة بين التحليل العلمي الدقيق والرؤية الفلسفية الواسعة، فكان يكتب بعقل العالم وروح المفكر، الأمر الذي منحه مكانة متقدمة بين رواد الاتجاه العلمي في دراسة الظواهر النفسية في الفكر العربي الحديث. ولم يكن مشروعه مجرد جهد فردي، بل كان محاولة واعية لتأسيس تقليد معرفي عربي يقوم على احترام العلم والانفتاح على مناهجه المعاصرة.

وفي خاتمة مسيرته، توفي رحمه الله عام 1991م وسط بناته الثلاث وابنه علي؛ في ليبيا ودفن في مدينة طرابلس إثر مضاعفات مرض الزكام الذي ألم به. أما قصة مقتله على يد سائق ليبي في طرابلس وهو في طريقه الى المطار، فهي كذبة مختلقة انتشرت على مواقع الإنترنت.

ترك د. نوري جعفر بعد رحيله أثراً علمياً وفكرياً لا يزال حاضراً في الذاكرة الأكاديمية والثقافية، يشهد على مشروع سعى إلى فهم الإنسان في عمقه البيولوجي والاجتماعي، وإلى تحرير التفكير العلمي من قيوده التقليدية نحو آفاق أكثر رحابة واتساعاً. ولا ننسى دور السيدة نجود نوري جعفر في الاهتمام بما تركه من مؤلفات فكرية ومعرفية، إذ ساهمت بتحويلها إلى pdf وانشأت لها موقعا على الويب سات للانتفاع منها من قبل طلبة العلم والمعرفة.

يعد نوري جعفر واحداً من أبرز المفكرين العرب الذين تحركوا في المساحات الخصبة الواقعة بين العلم والفلسفة، حيث لم يكن مشروعه الفكري مجرد وصفٍ للظواهر النفسية أو العصبية، بل كان سعياً معرفياً عميقاً لتأسيس رؤية إبستمولوجية متكاملة للإنسان بوصفه كائناً مركباً، تتداخل في تكوينه البنية البيولوجية مع الشروط الاجتماعية والتاريخية في جدل دائم لا ينفصل.

لقد انطلق جعفر من إدراك حاد لطبيعة الإنسان بوصفه نتاجًا لتفاعلات متعددة المستويات، فعمل على إعادة قراءة الظواهر النفسية والعقلية في ضوء هذا التعقيد، متجاوزاً الاختزالات السطحية التي تفصل بين الجسد والعقل، أو بين الفرد ومحيطه. ومن هنا، اكتسب مشروعه طابعاً تركيبياً، يجمع بين الصرامة العلمية والانفتاح الفلسفي، في محاولة لبناء فهم أكثر عمقاً وشمولاً للوعي الإنساني.

وفي هذا السياق، يمكن تلمّس الأثر الواضح للمادية الجدلية في تشكيل أفقه الفكري، كما

صاغها كل من كارل ماركس وفريدريك إنجلز، غير أن هذا التأثر لم يكن استنساخًا حرفياً أو تبنياً أيديولوجياً مغلقاً، بل كان انفتاحاً نقدياً واعياً على هذا المنهج، أعاد من خلاله صياغة أسئلته وإشكالاته ضمن حقل علم النفس وعلم الأعصاب.

وهكذا، تحولت المادية الجدلية في فكر نوري جعفر من إطار فلسفي عام إلى أداة تحليل علمية، أسهمت في تعميق فهمه للعلاقة بين الدماغ والوعي، وبين الفرد والمجتمع، بما يجعل مشروعه أحد أبرز المحاولات العربية الجادة لدمج العلم بالفلسفة في مقاربة الإنسان.

ينطلق جعفر من فرضية مركزية تتقاطع بوضوح مع جوهر المادية الجدلية، مؤداها أن الوعي لا يمكن النظر إليه بوصفه كياناً مفارقاً أو جوهراً مستقلاً قائماً بذاته، بل هو نتاج تفاعل جدلي معقد بين الدماغ، باعتباره بنية مادية عالية التنظيم، وبين البيئة الاجتماعية التي تمثل الإطار التاريخي والثقافي الحاضن لتكون هذا الوعي وتطوره. وعلى هذا الأساس، يغدو الوعي ظاهرة علائقية لا تفهم إلا ضمن شبكة التفاعلات التي ينتج عنها، لا في عزلة ميتافيزيقية مجردة.

ويتسق هذا التصور مع الأطروحة التي بلورها كارل ماركس، والتي ترى أن الوجود الاجتماعي هو المحدد الأول للوعي، بحيث يتشكل الفكر الإنساني من خلال شروط الحياة المادية وأنماط التفاعل الاجتماعي، لا بوصفه معطى سابقاً عليها أو منفصلاً عنها. ومن هنا، فإن الوعي عند جعفر ليس انعكاساً ميكانيكياً بسيطاً للواقع، بل هو نتاج عملية جدلية تتداخل فيها البنية العصبية مع الخبرة الاجتماعية، في سياق من التأثير المتبادل والتطور المستمر.

وفي سياق تحليله للعمليات العقلية، يتخذ جعفر موقفاً نقدياً واضحاً من النزعات المثالية التي تفصل الفكر عن الجسد، رافضاً كل تصور يجعل من الذهن جوهراً قائماً بذاته خارج شروطه المادية. فهو يؤكد أن النشاط الذهني ليس إلا تعبيراً عن عمليات فسيولوجية – سيكولوجية متشابكة، تتأسس على ديناميات الجهاز العصبي، وتتطور عبر التفاعل المستمر مع الخبرة الحياتية والمعرفة المكتسبة.

وبهذا الطرح، يضع حداً للتصورات الثنائية التقليدية التي فصلت بين المادة والروح، ليؤكد وحدة الظاهرة الإنسانية في بنيتها ووظيفتها، حيث يتكامل البيولوجي مع الاجتماعي، ويتداخل العصبي مع الثقافي، في تشكيل الكيان الإنساني بوصفه كلاً متماسكاً.

ومن هنا تبرز أهمية مشروعه بوصفه محاولة علمية – فلسفية لتجاوز الانقسامات الكلاسيكية، وبناء فهم أكثر تركيباً وشمولاً لطبيعة الوعي الإنساني وآلياته.

كما تتجلى الروح الجدلية بوضوح في معالجة نوري جعفر لمفهوم التطور، إذ لا ينظر إلى الدماغ بوصفه بنية ثابتة أو معطى جاهزاً، بل يراه نتاجاً تاريخياً لعملية تراكمية متدرجة، تتخذ شكل بناء طبقي متعاقب، تتراكب فيه المستويات دون أن تلغي اللاحقة منها السابقة، بل تعيد تنظيمها وتوظيفها ضمن نسق أكثر تعقيداً وثراءً. وبهذا المعنى، فإن التطور عنده ليس مجرد إضافة كمية، بل هو حركة جدلية تتداخل فيها الاستمرارية مع التحول، ويعاد فيها تشكيل القديم داخل بنى جديدة أكثر تقدماً.

ويعكس هذا التصور بجلاء أحد القوانين الأساسية في المادية الجدلية كما بلورها

فريدريك إنجلز، وهو قانون التحول من الكم إلى الكيف، حيث تؤدي التراكمات الكمية في البنية العصبية - من حيث عدد الخلايا، وتعقيد الروابط، وتكثّف الشبكات - إلى حدوث قفزات نوعية في مستوى الوظائف العقلية، فتنبثق أنماط جديدة من التفكير والإدراك لا يمكن ردها إلى عناصرها الأولية بصورة ميكانيكية. وهنا يتجلى الطابع الجدلي للتطور بوصفه انتقالاً نوعياً ناتجاً عن تراكمات كمية، لا مجرد امتداد خطي بسيط.

ولا يقف هذا التأثر عند حدود التصور النظري للتطور، بل يمتد ليشمل تأكيد جعفر على الدور الحاسم للبيئة الاجتماعية في تشكيل القدرات العقلية وتوجيه مسارها. فهو يرى أن الدماغ، مهما بلغ من التعقيد البيولوجي، يظل عاجزاً عن إنتاج وعي إنساني متقدم في غياب شروط اجتماعية وثقافية ملائمة، تتجسد في اللغة، والتعليم، والعمل، وأنماط التفاعل الإنساني. فالإنسان لا يفكر في فراغ، بل داخل شبكة من العلاقات التي تمنح خبرته معناها وتوجّه نموه العقلي.

وفي هذا السياق، يلتقي جعفر مجدداً مع التصور الذي صاغه كارل ماركس، والذي يجعل من البنية الاجتماعية الأساس الذي يتحدد في إطاره الوعي، حيث لا يُفهم الفكر إلا بوصفه انعكاساً جدلياً لشروط الحياة المادية، مع احتفاظه في الوقت ذاته بقدر من الفاعلية التي تمكنه من التأثير في هذه الشروط وإعادة تشكيلها. وهكذا، يتجسد في مشروع جعفر تفاعل حي بين البيولوجي والاجتماعي، وبين الطبيعي والتاريخي، في إطار رؤية جدلية ترى الإنسان كائناً يتكوّن باستمرار عبر علاقته بالعالم.

ومع ذلك، فإن نوري جعفر لم يكن تابعاً للماركسية بقدر ما كان محاوراً لها ومحاوراً نقدياً في الوقت ذاته، إذ تعامل مع المادية الجدلية بوصفها إطاراً مفتوحاً للتفكير لا نسقاً مغلقاً، فعمل على إعادة صياغتها في ضوء المعطيات العلمية الحديثة، ولا سيما ما أتاحه تطور علم الأعصاب والدراسات السلوكية التجريبية.

وفي هذا السياق، شكلت نظرية إيفان بافلوف منعطفاً معرفياً مهماً في تشكيل رؤيته، إذ وجد في مبادئها -وخاصة مفهوم المنعكس الشرطي - أداة تفسيرية قادرة على ربط السلوك الإنساني بآليات فسيولوجية قابلة للقياس والرصد. فقد أظهرت تجاربه أن الاستجابات النفسية لا تنشأ في فراغ ذهني مجرد، بل تتكون عبر أنماط من التعلم والتكرار والتكيف مع المثيرات البيئية، وهو ما ينسجم مع التصور الجدلي الذي يرى أن الوعي والسلوك يتشكلان داخل شروط مادية وتجريبية محددة.

ومن هنا، سعى جعفر إلى تجسير الفجوة بين التنظير الفلسفي والبحث العلمي التجريبي، ناقلاً النقاش من مستوى التأملات المجردة إلى مستوى التحقق العلمي الملموس. فقد ركز على دراسة الخلية العصبية بوصفها الوحدة الأساسية للنشاط الذهني، وعلى تحليل الدوائر الدماغية التي تنظّم السلوك، وعلى تفكيك الوظائف النفسية باعتبارها عمليات قابلة للرصد والقياس والتفسير العلمي، لا ظواهر غامضة أو كيانات ميتافيزيقية.

وبهذا المنهج التكاملي، استطاع أن يدمج بين الروح الجدلية للمادية التاريخية من جهة، وبين المنهج التجريبي في علم النفس الفسيولوجي من جهة أخرى، ليقدم رؤية أكثر علمية للإنسان، تقوم على فهم السلوك

بوصفه نتاجًا لتفاعل معقد بين الجهاز العصبي والبيئة الاجتماعية، في إطار حركة مستمرة من التكيّف والتطور.

كما تتبدى في مشروع نوري جعفر نزعة نقدية عميقة وواضحة، تتأسس على رفض حازم للاختزال الميكانيكي للإنسان، ذلك الاختزال الذي يحول الكائن البشري إلى مجرد نتيجة مباشرة لحتميات مادية صمّاء أو استجابات عصبية جامدة. فهو ينأى بفكره عن كل تصور يفرغ الإنسان من طاقته الداخلية ويختزله في معادلات سببية مغلقة، ويقابل ذلك بتأكيد متكرر على الطابع الجدلي للوجود الإنساني، حيث لا ينفصل الفعل عن الوعي، ولا تنفصل البنية البيولوجية عن الدينامية الاجتماعية.

وفي مقابل الرؤى الحتمية الصارمة، يضع جعفر الإنسان في قلب الفعل التاريخي بوصفه كائناً فاعلاً، يمتلك القدرة على الإبداع والتجاوز وإعادة تشكيل شروط وجوده. فالإنسان عنده ليس مرآة سلبية تعكس الواقع كما هو، بل هو عنصر نشط داخل هذا الواقع، يساهم في إنتاجه وإعادة إنتاجه وتغييره عبر الوعي والعمل والتجربة. وهنا يقترب مشروعه من الروح الجدلية للمادية التاريخية، التي ترى أن الإنسان يصنع ظروفه بقدر ما تشكل هذه الظروف وعيه وسلوكه.

ومن هذا المنظور، يتجاوز جعفر ثنائية الجبر والاختيار، ليقدم تصوراً أكثر تركيباً للحرية الإنسانية، حرية لا تُفهم خارج شروطها المادية والاجتماعية، لكنها في الوقت نفسه لا تختزل فيها. فالوعي، رغم جذوره الفسيولوجية والاجتماعية، يحتفظ بقدرة نوعية على النقد والتخيل وإعادة بناء المعنى، وهو ما يمنح الإنسان إمكانية دائمة لتجاوز واقعه القائم نحو آفاق أكثر تطوراً.

وبذلك يكتسب مشروعه بعداً إنسانياً واضحاً، إذ يوازن بين الحتمية العلمية التي تؤكدها معطيات علم الأعصاب والتحليل السلوكي، وبين الفاعلية الإنسانية التي تمنح الفرد دوراً مركزياً في التاريخ. إنه تصور جدلي للإنسان، يرى فيه كائناً متجذراً في المادة، لكنه في الوقت ذاته قادر على تجاوزها عبر المعرفة والعمل والإبداع، في حركة دائمة من التحول والتشكل.

إن قراءة مشروع نوري جعفر في ضوء المادية الجدلية تكشف عن محاولة فكرية رصينة وطموحة لتأسيس علم نفس عربي حديث، يتجاوز الطابع الوصفي التقليدي نحو بناء رؤية تفسيرية شاملة للإنسان، تقوم على التكامل بين المعطيات العلمية الدقيقة والرؤية الفلسفية العميقة في آن واحد.

فقد سعى جعفر إلى بلورة نموذج معرفي يفسر الإنسان بوصفه كياناً مزدوج البنية: كائناً بيولوجياً خاضعاً لقوانين الطبيعة والتطور، من جهة، وكائناً اجتماعياً تاريخياً يتشكل وعيه وسلوكه ضمن شروط الثقافة واللغة وأنماط الإنتاج والعلاقات الإنسانية، من جهة أخرى. وبهذا التصور، لم يعد الإنسان وحدة بسيطة يمكن تفسيرها بعامل واحد، بل أصبح بنية مركبة تتداخل فيها المستويات العصبية والنفسية والاجتماعية في شبكة من العلاقات الجدلية المتحركة.

ويعكس هذا التوجه بوضوح الأثر العميق للمادية الجدلية كما صاغها كارل ماركس وفريدريك إنجلز، حيث يفهم الوجود الإنساني باعتباره وحدة جدلية بين المادة والفكر، وبين البنية التحتية الاجتماعية والبنية الفوقية

الفكرية. غير أن أهمية مشروع جعفر تكمن في محاولته نقل هذا التصور من مستوى التأمل الفلسفي العام إلى مستوى التفسير العلمي القابل للاختبار، مستفيدًا من تطورات علم الأعصاب وعلم النفس التجريبي.

ومن ثم، يمكن القول إن مشروعه يمثل خطوة جادة نحو إعادة بناء علم النفس العربي على أسس علمية حديثة، تنفتح على المنجز العلمي العالمي دون أن تنفصل عن أسئلته الثقافية الخاصة، بما يجعل من الإنسان محوراً لفهم متكامل يجمع بين الطبيعة والتاريخ، وبين البيولوجيا والمجتمع، في إطار رؤية جدلية ديناميكية لا ترى في الإنسان كائناً ثابتاً، بل كياناً في حالة تشكّل مستمر.

ولعل القيمة الأبرز في مشروع نوري جعفر تكمن في قدرته اللافتة على ردم الهوة التقليدية بين العلم والفلسفة، وبين التجريب المخبري والتأمل النظري، وبين المادة بوصفها أساساً فيزيائياً والفكر بوصفه نتاجاً معرفياً معقداً. فقد عمل على تجاوز تلك الثنائيات الصارمة التي طالما حكمت التفكير الإنساني، ليقدم تصوراً أكثر تركيباً للمعرفة والإنسان معاً.

ففي رؤيته، لا تظهر هذه المستويات - العلمي والفلسفي، المادي والفكري- كجزر منفصلة، بل تتداخل ضمن شبكة جدلية متشابكة من العلاقات والتفاعلات، تعكس الطبيعة الحقيقية للإنسان بوصفه كائنًا ديناميكياً تتشكل بنيته ووعيه باستمرار عبر التفاعل بين الجهاز العصبي والبيئة الاجتماعية والتاريخ الثقافي. وهكذا يصبح الوعي، في هذا الإطار، عملية مستمرة من التكوين وإعادة التكوين، لا حالة ثابتة أو معطى جاهزاً.

ومن هذا المنظور الجدلي، يقدم جعفر الإنسان بوصفه كائناً مفتوحاً على التحول، لا يمكن حصره في تفسير أحادي أو نموذج اختزالي، بل ينبغي فهمه داخل تعددية من الشروط والعوامل المتداخلة. وهو ما ينسجم مع الروح العامة للمادية الجدلية التي ترى الواقع في حالة حركة دائمة، تقوم على التناقض والتطور والتحول النوعي.

ومن هنا، يبقى فكره حياً ومفتوحاً على قراءات جديدة، وقادراً على الإسهام في النقاشات المعاصرة حول طبيعة الوعي، وحدود المعرفة الإنسانية، وإشكاليات العلاقة بين الدماغ والعقل، وبين الفرد والمجتمع، بما يجعله مشروعاً فكرياً قابلاً للتجدد، لا ينتمي إلى الماضي وحده، بل يمتد أثره إلى الحاضر والمستقبل بوصفه محاولة لفهم الإنسان في أعمق أبعاده وأكثرها تعقيداً.

المراجع:

1 - كامل سلمان الجبوري، معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، ج6، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003، ص 393.

2 - نبيل عبد الأمير الربيعي، تجليات المادية الجدلية في فكر نوري جعفر، مخطوط غير منشور.

3 - صحيفة التآخي، «سيرة العالم الدكتور نوري جعفر عالم في التربية وعلم النفس ورائد في التنوير والإصلاح»، 1/9/2019.

4 - اتصال مع ابنته نجود نوري جعفر يوم 24/3/2026.

مقالات

الذاكرة والتاريخ في الحالة العراقية*

زهير الجزائري

بين الحاضر والتاريخ عشت موزعا بعد وصولي بغداد عام 2003. أعيش الحاضر وأنا عابر في السيارة. أرى الحدث وأنا في وسطه.. رجل يترنح ونافورة من الدم تتدفق من رأسه، يصرخ ولا من مجيب. أريد أن أغادر السيارة لأنجده فيصرخ بي السائق"ابق في مكانك " الهلع الذي يسود شارعا بلا سلطة يبقي كل واحد محبوسا في جلده وليذهب الآخرون إلى الجحيم! لا أعرف كيف أصيب ولا من أصابه ولا أعرف ما حدث له لاحقاً. في التاكسي وأنا في طريقي لجريدة (المدى) يشير السائق الى بناية: يشير دون أن ينظر "حتى البلاط نهبوه"! قبل أن أسأله "ماهي البناية، من الذين...؟ يتوقف السير فجأة وأرى جنوداً أمريكيين يصرخون " ارجعوا!" ورشاشاتهم مصوبة نحونا:

- انفجار!

لا ارى موقع الانفجار ولا ضحاياه. فقط سحابة سوداء خانقة واقفة فوق الحشد...

كثير من الأحداث في وقت قصير دون بداية ولا نهاية، أحداث تتداخل وتبتر بعضها ولا تترسب منها خبرة. متابعة قصة ما تعني التقدم وسط حقول من المفخخات والمخاطر الأمنية والتحولات المفاجئة. أتوقع كما تعلمت من الحياة السوية خاتمة أعرفها أو أفاجأ بها، مع ذلك تمنحني حكمة إدراك القصة ككل متكامل، أو فهم كيف ولماذا أدت الأحداث المتتالية إلى هذه الخاتمة. لن تمنحني الأحداث وهي تبتر بعضها هذه الحكمة. كلما ساءت الأمور أحذف الحاضر وألغي وجودي فيه وأسأل: كيف سيرانا التاريخ حين يلتفت إلى الوراء ويرانا بعين الماضي؟ أخاف من برود المؤرخ الأكاديمي الجالس في صومعته الدافئة بين أكداس الكتب. لن يعرف عمق آلامنا ومخاوفنا في لحظات الحدث، سيختصر كل هذه التفاصيل بجملتين (بعد سقوط الدكتاتور دخلت البلاد في الفوضى ثم...)، لذلك استدعي الروائي والسارد. الحاجة إلى الذاكرة وكتابة الذاكرة تزداد في البلاد التي حدثت فيها انقطاعات في الذاكرة الجماعية بسبب حروبٍ داخلية وهزات وكوارث. الكتابة وسيلةً لحفظ المعرفة والمعلومات والأفكار والتاريخ. أستدعيها وأنا على يقين، من أن التاريخ هو أقرب للسرد منه للعلم. ما هو مشترك بين

التاريخ والسرد هو الحاضر. كلاهما يكتب عن الماضي بحاجات الحاضر. الباحث الأكاديمي آلان روبنسون Alan Robi nson في كتابه Narrating The Past يشير إلى قضايا أساسية مشتركة بين التاريخ كعلم وبين الرواية التاريخية كأدب: التجربة المعرفية والتخيليةّ و التعامل السردي مع الزمن، لا سيما المفارقات التاريخية، ويقول "بأن الماضي موجود في الحاضر". المعرفة اللاحقة بالنتائج وما هو شامل وجزئي في الأحداث. الشامل هو الفراغ السياسي الذي تركه الدكتاتور بعد سقوطه والدخول في الحرب الأهليةّ والجزئي في الطبيعة التكوينية للشخصيات الفاعلة والفرق بين نواياها وأفعالها، انفعالات الناس العاديين، ومنها طبيعة وانفعال كاتب السرد وتوقعاته.

مفارقة التعامل مع الماضي بصفتها حاضرا تكمن في أننا نعيش في الزمن، ونحن في حالة انتقال مستمر، كما يقول روبنسون، "من الحاضر المراوغ إلى مستقبل سرعان ما سيصبح ماضيا متلاشيا. نحن نتعامل مع هذا الانفصال الزمني بالسعي إلى الحفاظ على تجارب الماضي أو استعادتها أو إعادة تفسيرها أو توظيفها". التوقع والاسترجاع جزء لا يتجزأ من ديناميكيات عملية القراءة؟ يرتبط بهذه التحديات فهم وتفسير الفعل ذي المعنى لدى البشر الآخرين: إلى أي مدى يعبر الفاعلون التاريخيون والشخصيات الأدبية، من خلال النية والدافع الواعي وغير الواعي عن قدرتهم على تحديد مصيرهم وإلى أي مدى تتأثر حياتهم بالبنية الاجتماعية، وكيف تتشكل بفعل الظروف الطارئة؛ كيف تتم نمذجة ذلك من خلال الحبكة والسرد في الأدب والتاريخ؟

يسري هذا التفسير على المذكرات والسيرة الذاتيةّ. فالعنصر المشترك بينهما هو الاعتقاد بصدق اعتقاد كاتب السيرة بالمعرفة والمصداقية بأن روايته السردية هي الماضي نفسه. تتفاوت المعقولية في هذا الادعاء كما يلاحظ ألان روبنسون لأن المتذكر "يتذكر ويروي ذاتا تاريخية كانت على قيد الحياة". يوفر الإدراك المتأخر فرصة لمواجهة قريبة من الماضي مدعومة بالوضوح المحتمل للبُعد الزمني عن الارتباك العاطفي والإدراكي الذي صاحب تجربة الأحداث في الأصل. من جهة أخرى، تُتيح هذه الميزة فرصة لحذف التناقضات، والإحراجات، والترددات، والإخفاقات، أو الأخطاء من السجل، كما هو الحال في الصور الفوتوغرافية المُعدّلة. ويرى روبنسون أن هذا اختلاق واع أو غير واع معقول بالنسبة للمتلقي. وفي كل الحالات يبقى الماضي نفسه بعيدا، "نقطة الوسط هي الشبه وليس الواقع". ينطبق هذا على شخصية المتذكر. ميزة الإدراك المتأخر توفر فرصة لمواجهة صادقة مع الماضي، لكنها توفر فرصة للتلاعب (الواعي) أو غير الواعي على الجمهور الذي تُوجّه إليه الرواية وشخصية الراوي.

من هنا سندخل مذكرات السياسيين الذين دأبوا على نشر مذكراتهم بكثرة في السنوات الأخيرة، وفي الغالب بعد قطعهم أو انقطاعهم عن ممارسة مهماتهم السياسية. هناك اعتقاد عام بأن الوضع العراقي بالتحديد، شديد الغموض وينطوي على الكثير من الأسرار. دورهم بعد التقاعد يتطلب كشف هذه الأسرار. المذكرات التي يكتبونها تتضمن عقدا مع قارئ مفترض انسدت أمامه كوى الحاضر والمستقبل فاتجه نحو كوى

الماضي. ينتظر هذا القارئ وعدا بكشف أسرار الماضي الغامض ووعداً بالمصداقية. يبدأ السياسي بحياته ما قبل دخول السياسة بوصف شامل للمدينة أو القرية، وصف رومانسي للطبيعة المحيطة بهما، المجتمع وعاداته، العائلة ووضعها الاقتصادي، جولة متمهلة في البيت كوعاء لهذه العائلة، حكمة الأب والأم وكيف أثرت في طباعه... كل ما راه وأثر فيه متسع ومترو في مرحلة ما قبل العمل السياسي. لكن العالم المتعدد الأوجه ينغلق أو يضمحل حال دخول دراما العمل السياسي وتبدأ الاختلافات والانشقاقات فيبدأ التبرير والدفاع عن النفس في مقابل تكبير نوايا المعارضين السيئة وارتباطاتهم المشبوهة. لا أنفي بعض الموثوقية والأصالة في هذه المذكرات حيث يسترجع الذات المتذِكرة، ويروي) ذاتًا متذكَرة يُفترض أنها تُطابق الذات التاريخية التي كانت على قيد الحياة في الوقت). كلاهما الكاتب والقارئ يدركان أن الخيال مستبعد وغير مرغوب. كثير من المعلقين على روايتي (آخر المدن) استنكروا الخيال فيها وأرادوا تسجيلا حرفيا للحدث (وبالأسماء). مع ذلك لا يطلب قارئ السيرة الذاتية الحقيقة مدركا ما يمليه الحاضر، ما يطلبه هو المصداقية، وبالأحرى المعقولية الذاتية. ينطبق هذا على التاريخ. وفي الحالتين، السيرة الذاتية والتاريخ يختار المؤرخ وكاتب السيرة مقاطع مختارة من الحياة يصفها روبنسون بـ"تسليط مصباح يدوي في مخزن، ستتضح بعض الأشياء وستغبش أشياء وتبقى ثالثة في العتمة". تختلف سير السياسيين في روايات الحدث الواحد تبعا لعقائدهم كما يختلف استقبال القارئ. الخوف، كما يحذر منه الباحث صادق الطائي من "أزمة سلطة على المعنى. من يملك أن يروي الماضي يملك أن يحدد موقعه في الحاضر، وأن يرسم أفق المستقبل. ولهذا لم يعد الجدل حول التاريخ شأنا أكاديميا معزولا، بل بات جزءا من صراع سياسي مفتوح: من يعرّف الثورة؟ من يصف ما جرى في سوريا أو العراق أو السودان؟ هل كان انتفاضة شعبية؟ أم مؤامرة كونية؟ أم حربا أهلية؟" هنا أعود ثانية إلى الحدث وامتداداته ومنهما إلى المؤرخ والسارد في اللحظة المعاشة.

الخبر والتاريخ

أراني الآن جالساً في وكالة (أصوات العراق) أتابع سيلاً من الأخبار يرسلها 80 مراسلاً من كل أنحاء بلادنا المنتجة للأخبار على امتداد ساعات اليوم الواحد.. انفجارات، اغتيالات، اختطافات ... أخبار كتبت باختصار برقي بارد الدم، لا تترك عاطفة ولا حكاية. أخبار لا تتقبل انحيازا ولا عاطفة شخصية. أردت أن أبحث عما وراء الأخبار الباردة من حكايات لا تذكرها الأخبار. لحظات السهو البريئة التي سبقت الانفجار، مشهد عمال المسطر، المياومين مقرفصين على الرصيف في (ساحة الطيران) بانتظار صاحب العمل الذي سيأخذهم لموقع العمل، باعة الحيوانات المدجنة في (سوق الغزل)، زحمة المتبضعين أمام دكاكين الخضراوات في (الصدرية).. الكل منشغل بالحياة العادية قبل أن يباغتهم الانفجار... ثم الانتحاري الذي يحمل قفصا وتحت الببغاء صندوق التفجير، سيندس في الحشد المتجمع ثم يضغط زر التفجير، التلفونات المحمولة التي ستبقى ترن ولا من جواب بعد المقتلة. أردت

من مراسلي أن يلتقطوا حكاية ذات أثر من صلب الحدث، أو في تبعاته، لكنهم يسمعون ولا يرون، لذلك تأتي الأخبار مكررة وعامة. متى حدث الانفجار، من هو الفاعل؟ عدد الضحايا المفعول بهم وتعليق الجهات الرسمية؟

كتابة السيرة أو اليوميات مثل الخبر الصحفي تتطلب تحديد الفاعل وما فعل والزمان والمكان والسبب. تسمى لوازم الخبر هذه بالإنكليزية (فايف دبليو 5 W,s .). لكن سرد السيرة يختلف عن سرد الخبر بطريقة الوصف المتأني والانطباع الشخصي الذي يلازم الوصف. الخبر عاجل ومساحته في الجريدة محدودة، اليوميات لا تقدم الخبر فقط، بل تروي حكاية بالتفصيل، الضوء المناخ، شكل الوجوه خلال مسار الحدث، نص الأحاديث، وطبعا شخصية الراوي. الزمن خاطف في الخبر (انتحاري فجّر نفسه في سوق الغزل. الانفجار أدى إلى مقتل وجرح سبعة أشخاص) ... في اليوميات يتحرك الزمن قريباً من زمن الحادثة: كما في كل جمعة تجمع الناس، واحد اثنان ثلاثة... والوصف يريد ان يعكس زمن الواقعة مستغرقا في الوصف كما حدثت. أقرب للسرد القصصي أو الروائي. ضمير المتحدث (كنت هناك وعشت الحدث بنفسي وها أنا أرويه كما حدث). تكتب وهناك عقد مضمر مع القارئ بأنك كنت هناك. وعشت الحدث بكل حواسك، وها أنت ترويه كما حدث بالضبط. مجموع هذه الأحداث التي عشتها تشكل السيرة.

حين أغادر غرفة والأخبار في آخر النهار اذهب للبيت، اشرب قهوتي وأسترخي على الصوفا وامسح أحداث اليوم بيدي كما الممحاة وأسحب من الرف القريب كتابا وأقرأ عن التاريخ. أقرأ التاريخ بلهفة وأنا غير عارف بأنني أقرأه بعين الحاضر فاستغرب: عجيب! كيف صنع المؤرخون من هذه الفوضى سياقاً؟ كيف جمعوا كل هذه الصدف المتناثرة ليقولوا لنا في النهاية ثلاث جمل" حكم البلد في هذه الفترة حاكم قوي ومستبد. بعده بدأت الفوضى".

يبدو التاريخ بطرا حين ترسم الأحداث الطارئة صورة الحاضر. وأنا أكتب يوميات وسط صخب الحاضر وتلاطم أحداثه. أجمع الأحداث بانتقاء دقيق وأصفها لأصل إلى البنية العميقة للحدث: الأخبار المتواترة عن نهب الآثار التي تجسد هويتنا المشتركة، استمرار نهب الآثار من مواقعها قبل أن تكتشف وتسجل، سرقة وثائق المكتبة الوطنيّة، سرقة تمثال محسن السعدون...أجمعها وأعيد تفسير الظاهرة: إهمال الحكومات المتتالية المتناقضة لما قبل، والتركيز على تاريخ يناسب عقائدها؟...أذهب إلى الجمهور الذي ينهب، وهو كما عرفت جمهور مهمّش ومستبعد لا تذكره الدولة إلا حين تحتاج لجنود في حرب وشيكة، كيف يمكن أن يرى البلاد بلاده، والحكومة حكومته والتاريخ تاريخه.

بين التاريخ المديد وبين فورة الحاضر كتبت " حرب العاجز"، ومن التاريخ وقد سحب نفسه على الحاضر كتبت روايتي "باب الفرج" في الأول رويت الحاضر وهو يسحب نفسه على الماضي. وفي الثاني سحبت الحاضر بعنفه المادي والمضمر على التاريخ. عليّ خلاله أن أبدأ من نقطة مشتركة، هي الحاضر، لكن بين السيرة والسيرة الذاتية، وبينهما وبين التاريخ فجوة هائلة لأننا سندخل في المأزق الملتبس بين فهم هيغل للتاريخ

كتاريخ إرادات، وفهم ماركس الذي قلب هيغل على رأسه ورأى من خلال (الجدلية التاريخية) سلسلة من الحتميات تتعلق بتطور الإنتاج وملكية وسائل الانتاج. يشكل الهيكل الاقتصادي، وفق ماركس، القاعدة، التي بدورها تُشكل البنية الفوقية (السياسة، القانون، الأيديولوجيا، الثقافة).

الذاكرة الإلكترونية

اشتريت حزمة كبيرة من الكتب من (سوق الحويش) في النجف. كتب لا تتعلق بقراءاتي الحالية، إنما بذاكرة ناس آخرين بالمدينة. هل فعلاً تدمّر الكلمات المكتوبة الذاكرة كما اعتقد سقراط؟ ها أنا أستعين بذاكرة آخرين لأغني ذاكرتي بما لم أعشه. أقرأ وأتذكر بأن استعادة الماضي هي معرفة، تمتزج بالإرادة مقدمة لفعل. يدري بائع الكتب الحزين في سوق الحويش بسليقته بهذه الحقيقة فيحرّضني وأنا أتصفح الكتاب واقفا في المساحة الضيقة بين أكداس الكتب:

- أنتم الذين تقرأون وتكتبون، لديكم القدرة على أن تفعلوا شيئا لإنقاذ المدينة من الخراب والجهل. يحرضني فتتهيأ عضلات ذهني لفعل لم تتضح صورته بعد...

الكتابة التي استنكرها سقراط باعتبارها تضعف الذاكرة، صارت وعاء وأداة ووسيلة لحفظ الذاكرة، كما تُتيح الكلمة المكتوبة إعادة النظر في المعلومات وتنظيم الأفكار. ما لم يتوقعه سقراط هو أن تُوفّر الكلمة المكتوبة لمزيد من الناس مصدرًا أكبر وأكثر تنوعًا من الحقائق والآراء والأفكار والقصص أكثر من أي وقت مضى. نحن الأحياء محظوظون لأننا عرفنا وسائل التواصل الاجتماعي التي نشكو كثيراً من أضرارها، لكن أبرز فوائدها هو انها كسرت عدداً من الحواجز:

أولها الحاجز بين التاريخ الرسمي والتاريخ المعاش، فالتاريخ، كما علمتنا الكتب المدرسية والحرم الجامعي، يصنعه الحاكمون. بقراراتهم، تحدث الحروب او السلام. تبنى المدن وتشيّد السدود. حين نتذكر أول خطوات العراق نحو الحداثة تأتي إلى الذهن مباشرة إنجازات (مدحت باشا) الذي حكم العراق عام 1868. فرغم قصر فترة حكمه (3 سنوات و21 يوما) أدخل الكثير من ادوات التطور الحديث مثل البواخر والمكائن والبريد، المطابع والصحف. في عهده تأسست أول جريدة رسمية (الزوراء). نعدد إنجازاته وننسى أن في فترة حكمه تحولت العديد من القرى بحكم علاقات الإنتاج إلى مدن منتجة لطبقة من المثقفين المدنيين الذين يقدمون الثقافة المكتوبة والمقروءة. ومن هذه المدن العمارة، الناصرية، الرمادي، الشطرة ... هذا إضافة للمدن الكبيرة مثل بغداد والبصرة والنجف التي زاد عدد سكانها الى ما يقارب الضعف خلال 10 سنوات. هذه المدن كانت حاضنة للمتعلمين الذين ارتفع عددهم في المدن عام 1850 من نصف بالمائة إلى 10-5 بالمائة عام 1900. لم تتحول القرى إلى مدن بقرارات من مدحت باشا. التاريخ لا يسير وفق الأوامر من فوق لأنه سينزل لجنود وعمال يحولون الأوامر إلى أفعال.

في كتب التاريخ لم نسمع أو نقرأ تجربة المهندس الذي أشرف على بناء الجسر وكيف تحمّل العمال المنفذون الشمس التي تطبخ التمور أو كيف تعايشت المعلمة الأولى في الأرياف مع الأطفال الذين يأتون للمدرسة شبه حفاة يمشون على أرض مثلجة، ولم تنقل لنا مستوى وعي قراء الجرائد الذي يجلسون

في المقاهي ويقرأون للعامة ما تقوله الجرائد؟ المنفذون يعطون للتاريخ طابعه الحسي. كيف جرت الأمور فعلياً وعلى الارض...الكتابة وعاء وأداة ووسيلة لحفظ الذاكرة. كما تُتيح الكلمة المكتوبة إعادة النظر في المعلومات وتنظيم الأفكار، سواءً كانت قوائم مهام أو مقالات أكاديمية. مع اختراع آلات الطباعة، وفّر ازدياد توفر وتوزيع الكتب والمجلات مكملات لما يُطلق عليه "المخزن البيولوجي للدماغ". ما لم يتوقعه سقراط خرجت المعرفة من قمقم النخبة المتعلمة إلى طيف واسع من الناس عبر وسائل تمتد من الكتاب إلى الذكاء الصناعي مرورا بالراديو والتلفزيون والحاسوب.

الحاجز الثاني الذي أسقطته وسائل التواصل هو الحاجز بين الكاتب المحترف الذي ينشر في الصحف والكتب، وبين المواطن العادي الذي عاش نفس التجربة ولم يكتب عنها. بدلاً من ان يرويها شفاهيا لشلة من المعارف صار عبر (السوشيال ميدياّ) يكتب عن تجربته خلال الحرب أو الحصار. ميزة كتابة السيرة سواء كتبت خلال أو بعد هي أنها ترينا الشكل الحسي والملموس للتجربة وفي نفس الوقت الانفعال الحي بالحدث. وقبل ذلك تعرفنا على طبيعة كاتب السيرة وتشركنا في تجربته المستعادة.

الحاجز الثالث الذي أزالته السوشيال ميديا بين الواقع والخيال، وبينه وبين الحلم. التذكر مقيّد بواقعية الزمان والمكان وما فيهما من معدات. حين أتذكر حديقة والدي سأتذكرها في زمان محدد في أواخر الخمسينات قبل أن يبيعها والدي. سأتذكر بابها والعتبة العالية ثم تواجهني هويتها المكونة من أكبر شجرة سدر في المدينة كلها. أتذكر والدي وبيده المسحاة يفتح سواقي الماء، على، وأنا أتذكر، أن أدقق في نقل صور الأشياء كما هي. يعاند الخيال هذه الصورة الواقعة حين أعود للصورة وأضعها في روايتي (باب الفرج) فيزيح جدران الحديقة العالية ويفتحها على موقع أكثر غرابة، لا هو في الصحراء بعيدا عن الجيران المتلصصين. الخيال يحررني من الولاء للواقع ويطلق مخيلتي وهي إرادة. لا أحد يحاسب كاتب السوشيال ميديا على شطحات غير أكاديمية. التجربة لا تكتفي بواقعها المحسوس، إنما تختلط بالخيال وتداهمنا خلال النوم في شكل كوابيس. في طفولتي كنت أسمع كثيرا عن الأسد الذي يأتي من الصحراء ليقف على تلة ويرفع يده ليحيي الإمام علي. الكل يتحدثون عنه وما من أحد رآه. إنه جزء من المخيال الجمعي الذي يهمله التاريخ ولا يدرج في الكتب لأن المؤرخين يعتبرونه من الترهات. التفاعل بين الواقع الموصوف والخيال يدخل في روايات السيرة. ماركيز مثالاً، المرأة التي كانت تنشر الشرشف على الحبال طارت من القرية واختفت نهائياً.

للتثبت هناك ذاكرة الناس الآخرين، التسجيلات المتوفرة يوميات مكتوبة قبلاً، محاضر محاكمات السوشيال ميديا وفرت لنا تسهيلات هائلة للتدقيق في الحدث عدا الذاكرة الشخصية.

الذاكرة فرديةّ وجماعية

التذكر شفاها أو كتابة هو استعادة ووعي ذاتي ولذلك تصير ذاكرتي أنا، وليست ذاكرة أي شخص آخر. أنا الذي كنت في الحدث، أنا شهدته أو عشته، أنا الذي سجلته وكتبته. كيف تصبح هذه ذكرياتي الخاصة وليست

ذكريات شخص آخر؟ حين يدخل انطباعي وفكرتي الخاصة عن الحدث الذي أكتب عنه في صلب الصورة. إن ما شهده وعاشه هو مصدر معرفته وما عاشه هو وما وعاه يشكل عند الاستمرارية تاريخه الشخصي. هذه الذاكرة هذا المخزن الذي وضعت فيه التجارب لكي تنتقد وتعدّل وتستخدم في المستقبل. تختلف هذه الذاكرة من شخص إلى آخر، تختلف من حيث طبيعةّ المتذكر وزمن ومكان التذكر. لكن هذه الذاكرة الفردية ليست معزولة لوحدها. إنما تتصل بذاكرة الآخرين الذين عاشوا في المحيط الاجتماعي نفسه وعاشوا الأحداث نفسها. بمجموعها تشكل الذاكرةً الاجتماعية للمجموعة التي انتمى اليها فتشكل هويتي. تنبثق ثقافات الذاكرة، سواء كانت سياسية أو فكرية أو فنية، من تجارب فردية، لكنها تفلت وهي تكتب أو ترسم بذاكرة ومخيال اجتماعي، ويمكن أن تستقبل في سياقها الاجتماعي، ويمكن للمراقبين تمييزها كأنماط وتعبيرات وسرديات اجتماعية. في شبابي، متأثرا برواية سارتر (الغثيان)، كنت أسعى جاهداً لعزل نفسي عن المحيط تحت شعار (الجحيم هم الآخرون). يبدو الآخرون كتلة صمّاء تعزلني أو تعاديني. لكن ذاتي في فرديّتها وبعزلتها، وحتى بتمردها، تحيلني إلى مجتمع أردت أو رفضت أن أكون فيه وأتمرد على تقاليده وعلى ذاتي المقيدة بتقاليده. حين أعود متأخراً من نقاشات البارات ممتلئاً بوحدتي يستيقظ أهلي من نومتهم وأسمع وشوشاتهم فيحسسونني بأنني فرد من عائلة، وهذه العائلة جزء من مجتمع. في هذه المذكرات الخاصة بي أحاول أن أصف نفسي، أقول، أصفها لنفسي وأخفي الدفتر لي ولقارئ قد يكون أنا اللاحق. أكتب وأفسّر له السبب والنتيجة. فيما بعد عرفت أن شقيقي وشقيقاتي يقرأون هذه المذكرات في غيابي. صرت أرى عيونهم تتبع مسار قلمي فتسللت رقابتهم وصارت رقابتي على يومياتي. صرت أكثر حذراً في اعترافاتي. وما أن يتم الكشف عن الطبيعة الشخصية لكاتب المذكرات حتى يتم إشراك الآخرين فيها وسيجد الآخرون أنهم مشاركون في حياة أخرى، فيهم بعض ما فيها وقد عاشوا التجربة نفسها.

للذاكرة دور أكبر هي تشكيل هويتنا وتعيننا في هذا العالم، ننتمي لقومية، نتكلم لغتها، أو دين نحفظ تعاليمه، نحفظ عادات وتقاليد المجتمع الذي ننتمي اليه، نحفظ كل هذا الإرث في ذاكرتنا. الذاكرة والهوية مرتبطتان بعرى لا تنفصم، إذ لا يعد اي من المفهومين سابقاً للآخر أو منفصلاً عنه. الإحساس بالهوية الذي يمتلكه كل واحد منا، هو إحساس بالاستمرارية الزمنية، ولا يمكن امتلاكه دون الذاكرة بالمعنى التام لكلمة التذكر.

كما (بول ريكور) أتحسّب من ربط الذاكرةّ بالهوية خاصة حين تتسم الهوية بالهشاشةّ فتستعين بالذاكرة. مشكلة العلاقة بين الهوية والذاكرة تكمن حسب ريكور في كتابه الباهر (الذاكرة والنسيان) في "علاقتهما بالزمان". تستند الهوية على الذاكرة باعتبارها "عنصر مكون زمني على صلة بتقدير الحاضر وإسقاطه على المستقبل". لكن ماذا يعني أن يبقى المرء هو نفسه على مر الأزمنة؟ أتساءل مثل ريكور: هل بقى خالي (سعيد الجزائري) هو نفسه حين انتقل من مدينته الأحادية الطائفة إلى حي المهندسين في بغداد الذي يسكنه أفراد تجمعهم المهنة والاختصاص وتفرّقهم الأديان والقوميات،

هل يبقى هو نفسه؟
هناك طبعا ما هو ثابت وما هو متغير "يولد الإنسان في منتصف الطريق" وأنا أستعير هذا المصطلح من نقاش مع (فلاح رحيم)، يولد في عالم من تقاليد وخبرات تأسست قبله. في طفولتي كنت أسير مع والدي العلماني فندخل صحن (الإمام علي) في طريقنا لنادي الموظفين. حين ندخل من (باب الفرج) يضع والدي كفّه اليمين على صدره وينحني سائلا (أمير المؤمنين):
- أأدخل يا مولاي...
لا ينتظر جواباً، إنما يدخل، وعند الخروج يعيد كفه إلى صدره ويلتفت إلى الخلف ويعيد الانحناء مودعا! لم أفهم سر خشوع والدي الذي اعتاد أن يساجل كل مسلمة وإيمان ثابت في المدينة. أسأله وأنا طفل لم يفعل ذلك والرجل في ضريحه؟ لم ولن يجاوبني. بالسليقة عرفت أن هذا جزء من التقاليد المتأسسة قبلي بمئات السنين. هذا المكان الذهبي كان رمزا موحِدا لنا نحن سكان هذه المدينة المقدسة... في شبابي وخلال ستينات التمرد حاولت أن أقدّم المدينة كما هي مخترقاً الطبقة الذهبية السميكة من القداسة وما تحتها من نفاق، لكنني لم أجرؤ.

أنا ابن النجف المدينة التي تقدم المجاملة على الأخلاق والمجاملة تقوم على حفظ ديباجات الكلام المنمق حتى لو أخفى المصالح الضيقة الكامنة. ذاكرتي حتى في عمقها انتقائية تحطّ رغماً عنّي فوق النقاط الوسطية بين الصراحة المطلقة المؤذية للمشاعر العامة وبين التقاليد في بعدها الاجتماعي. يتنحى عقلي الشكاك حين أدخل الصحن. جسدي يمارسها قبل عقلي. ألتفت إلى الخلف أضع يدي على صدري وأردد "السلام عليك يا مولاي..." ثم أغادر (باب الفرج).
أفعل ذلك تلقائيا كما يفعل والدي وجدي ومن حولي. تعلمت ذلك دون توجيه أو اجبار، من السطوة الضمنية للسلوك الأخلاقي السائد في المحيط الذي عشت فيه. لم أعرف وأنا أستعيد الطقس إن كان هذا استدعاء حرا لذاكرتي أو موجها بحكم تقاليد المحيط؟ هذه التقاليد هي في نهاية المطاف تقاليدنا نحن، وهي التي تجعل الماضي خليقاً باعتباره ماضينا وتجعلنا بالكيفية التي نحن عليها نحن، وحتى في الحالات التي ننكر هذه التقاليد فإننا نظلّ مأسورين بها، وبهذه الكيفية يمكن عدُّ التقاليد الشكل الأقوى تعبيراً عن "الذاكرة الجمعية".

*** مقاطع من كتاب معد للنشر.**

المجتمع المدني: مسارات المفهوم وتعقد الواقع، المغرب مثالاً

د. إدريس الصنهاجي
أستاذ باحث، تخصص السوسيولوجيا، المغرب

تقديم

إن ظهور مفهوم المجتمع المدني ليس حديثا، وإنما تمتد جذوره إلى اللحظة اليونانية المعاصرة لأرسطو وأفلاطون، وإن كان هناك من يرجع انطلاقته الأولى إلى تحول النظام الاجتماعي في أوروبا، على إثر تراجع وسقوط نظرية الحق الإلهي في مقابل ظهور نظرية العقد الاجتماعي[1]. ورغم هذا التاريخ البعيد للمفهوم، إلا أن استعماله وتداوله مغربيا لم يحدث إلا في النصف الثاني من القرن العشرين. وقد أصبح الآن من المفاهيم الأكثر حضورا في المجال التداولي العام للنخبة المغربية، من أكاديميين ومثقفين وسياسيين واقتصاديين وجمعويين.. بحيث أصبح حاضرا بكثافة في وسائل الإعلام المختلفة، ويتم توظيفه كبداهة، دون التدقيق اللازم. ما جعله يتسرب إلى الخطاب الأكاديمي بهذا المعنى الناتج عن تداولات الحس المشترك، وفرض علينا بالمقابل، بالنظر لاشتغالنا على المفهوم، القطع مع هذا النمط من المعرفة، بما هو قطع منهجي مع المفردات الشائعة والبديهيات المضللة والدلالات المألوفة العامية، والتي تصبح عبارة عن قيود أو حتميات اجتماعية وثقافية تعيق تطور العلم. فـ"مهمة المعرفة، يقول إدغار موران استنادا إلى فرانسيس بيكون، هي أن تتحرر من هذه الحتميات لتصبح علما"[2]. و"في علم الاجتماع، كما في غيره من العلوم، يقود البحث الجاد إلى وصل ما يفصله العامي وإلى تمييز ما لا يميزه"[3].

لقد قادني البحث في مفهوم المجتمع المدني، إلى أن هذا المفهوم نشأ وتطور ارتباطا بتطور النظريات السياسية. وكان النقاش والصراع الفكري حول مفهوم ووظائف المجتمع المدني، والرهانات المرتبطة به يطرح بشكل دائم في سياق الصراع السياسي حول السلطة. لذلك حينما يتم التعرض لهذا المفهوم في علم الاجتماع، نقوم بذلك في إطار تخصص جزئي، هو علم الاجتماع

السياسي.
أتعرض إذن في هذا المقال لمسار تطور مفهوم المجتمع المدني، ولطبيعة حضوره في المغرب. حيث أعتمد مقاربة مفاهيمية سوسيوتاريخية، أرصد من خلالها مسار المفهوم ورهاناته والإشكالات المرتبطة به، قبل أن أبحث كيفية اشتغاله في مغربنا الراهن.
ونظرا للحيز المسموح به لهذا المقال، لن نتمكن من التعرض بالتفصيل لمسار تطور مفهوم المجتمع المدني كما تبلور في أوروبا، كما لن نتمكن من مناقشة كل ما يطرحه من أسئلة في السياق المغربي.[4] لذلك أعمل على بسط الأفكار التي بدت لي أكثر أهمية عبر مبحثين؛ الأول يتعلق بتطور مفهوم المجتمع المدني، والثاني بواقع المجتمع المدني في المغرب.

المجتمع المدني: مسار تطور المفهوم

تمهيد

عرف مفهوم المجتمع المدني، منذ نشأته بالمرحلة اليونانية، تطورا متباينا إلى حدود العصر الحديث، حيث سيشهد تشكله الفعلي، من خلال انبثاق وتبلور أهم الأفكار الفلسفية والسياسية التي نظرت له، مع فلاسفة أمثال طوماس هوبس وجون لوك وجون جاك روسو وآدم فرغسون.. قبل أن يطرأ عليه تحول جوهري في معناه مع فريدريك هيغل. لكن هذا المفهوم سيتوارى بعد ذلك، ولم يعد مثيرا لاهتمام الباحثين أو الفاعلين السياسيين، تحت تأثير النقد الجذري الذي قام به كارل ماركس لأطروحة هيغل. ولم يبعث من جديد إلا مع مجيء المفكر السياسي الإيطالي أنطونيو غرامشي، الذي منحه موقعا قويا في ممارسة الصراع السياسي خلال القرن العشرين. وبهذا المعنى الغرامشي انتقل إلى مناطق أخرى من العالم (مثل المغرب)، فأصبح حاضرا في متون الباحثين وتداول النشطاء السياسيين والمدنيين. ما جعله من الكلمات والمفاهيم التي قال عنها دنيس كوش بأنها تصنع التاريخ[5]. لهذا أقترح التعرض لمسار تطور هذا المفهوم، قبل أن أقدم تعريفا له. وبعد ذلك أنتقل إلى المبحث الثاني، المتعلق بطبيعة المجتمع المدني بالمغرب، لأناقش حضوره في سياق الواقع المغربي.

ـ المجتمع المدني في المرحلة اليونانية

رغم أن مفهوم المجتمع المدني لم يتبلور ويتطور بشكل كبير وحاسم إلا في العصر الحديث،[6] إلا أن هناك بعض الباحثين والمفكرين الذين يرجعون نشأته إلى المرحلة اليونانية. فعلى مستوى العبارة يرى دومنيك كولاسDominique Colas، أن أول ظهور تاريخي لعبارة المجتمع المدني، كان في القرن الرابع قبل الميلاد مع أرسطو في كتابه السياسة. فهذه العبارة تجد أصلها في العبارة الإغريقية -La koinônia poli tikè التي وظفها أرسطو في كتابه المذكور، وترجمت إلى اللاتينية تحت عناوين متعددة، ومنها societas civilis حيث ستعطي فيما بعد، وبعد قرون، العبارة الفرنسية المتداولة الآن société civile، والتي لم تظهر إلا في منتصف القرن السادس عشر[7]. وهذا الإسهام الأرسطي في بلورة عبارة "مجتمع مدني"، نجد التأكيد عليه في العديد من البحوث الأخرى التي تناولت الموضوع[8].
يربط الباحثون الذين انشغلوا ببدايات مفهوم المجتمع المدني، بظهور ملامحه الأولى

في سياق تبلور الفلسفة السياسية الإغريقية بعد الحرب البيلوبونيزية Péloponnèse التي انهزمت فيها أثينا واحتُلت من طرف إسبرطة[9] حيث أدى ذلك إلى مطارحات فكرية حول طبيعة الهزيمة ومآلاتها. وكان من نتيجتها "أن الصالح العام يمكن اكتشافه من خلال المناظرة العامة والعمل الجماعي المنظم"[10]. أي تمجيد العمل الجماعي، والرفع من قيمته على حساب العمل الفردي والمصلحة الشخصية. فقد كانت فكرة إشراك المواطنين في القرارات التي تهمهم جميعا، عبر النقاش العمومي كمبدأ للنجاح، هي أساس المجتمع المدني عند فلاسفة اليونان.

هذه الفكرة شكلت أطروحة مركزية في محاورة سقراط (469 - 399 ق. م) لتراسيماخوس، في كتاب الجمهورية لأفلاطون (428 - 348 ق.م) حول العدالة؛ معتبرا أن "المصلحة الفردية لا يمكن أن توفر أبدا أساسا كافيا لحياة سعيدة وعادلة أو متمدنة"[11]. لذلك كان التفكير في مصلحة الدولة بوصفها جماعة الأثينيين هي الفكرة المهيمنة على الفيلسوف. ولم يكن بإمكان سقراط| أفلاطون، اللذين عايشا حالة الحرب والهزيمة والاضطراب، التفكير في المجتمع المدني خارج الدولة. فكان المجتمع المدني هنا يعني الجماعة الأثينية كلها؛ أي الدولة. بل "كان يتعذر التمييز بين المجتمع المدني والدولة، حيث إن كليهما يشير إلى نموذج من الترابط السياسي يحكم الصراع الاجتماعي.."[12]، حسب مايكل إدواردز. وهذا ما دفع جون بيار فرنان J. P. Vernant- للقول بأن "اليونانيين لم يميزوا أبدا بوضوح بين الدولة والمجتمع"[13].

وأهم فكرة يمكن استخلاصها من هذا المنظور السقراطي الأفلاطوني هي قيام مفهوم المجتمع المدني، بما هو مجتمع سياسي، على الجهد الجماعي المشترك المطبوع بالانسجام والوحدة. وسيعمل أرسطو (384 ق. م - 322 - 325 ق. م) على تطوير هذا المفهوم وإعطائه مضمونا سياسيا محضا، لا يقوم على الانسجام كما نظر لذلك أفلاطون بل على التعدد. ففي رد أرسطو على أفلاطون| سقراط يرى بأن وحدة الدولة المدينة كما يتصورها هذا الاخير غير ممكنة، بل إنها تشكل نهايتها بأن "تختفي المدينة كلها نهائيا"[14]. ومع ذلك لم يأخذ مفهوم المجتمع المدني معنىً آخر بعيدا عن المجتمع السياسي، وبقي مع أرسطو أيضا مطابقا للجماعة المنظمة سياسيا[15].

ما يمكن استخلاصه من البحث في مفهوم المجتمع المدني في المرحلة اليونانية، هو بقاء هذا المفهوم متداخلا مع الدولة وقائم على العقل. فلم يتشكل كفضاء أو إطار اجتماعي خارج ما هو سياسي، "لأن اليونانيين لم يميزوا أبدا بوضوح بين الدولة والمجتمع"[16].

ـ المجتمع المدني في العصر الوسيط

لقد عُرفت مرحلة القرون الوسطى (حوالي عشرة قرون) [17] بسيطرة الكنيسة وتحكم الملوك المطلقين والأسياد الإقطاعيين، ومحاكمة العقل وتطور العلم. ما جعلها توصف من طرف البعض بعصر الظلمات، قبل أن تتم "مراجعة هذه الصورة القاتمة من قبل المؤرخين الأوربيين منذ منتصف القرن العشرين.."[18].

منذ اعتراف قسطنطين الأول constan- tin 1er) - (337 272 بكافة الأديان

وعلى رأسها المسيحية، بعد إصداره مرسوم ميلانو 313 م، وجعله المسيحية الديانة الرسمية للدولة حوالي 330 م،[19]. سيفقد المجتمع المدني معناه السابق؛ بما أن المسيحية، ككل الأديان، كانت تعطي الأولوية للنص الديني على حساب العقل والعلم. وبناء على ذلك كانت تعتبر البشر عاجزين عن اكتشاف المبادئ الأخلاقية التي تمكنهم من حياة سليمة بتوجيه من العقل[20]. فتراجع العلم والعقل لفائدة الدين، ودخلت أوروبا في ما سمي عصر الظلمات (عصر القرون الوسطى)، بتأثير كبير من القديس أوغسطين Saint Augustin 354) - 430 م) في بداية القرن الخامس الميلادي خصوصا عبر مصنفه "مدينة الله"، الذي أنكر فيه المبادئ العلمية والقدرة البشرية العقلية في إنقاذ الناس من التخلف والأزمات، معتبرا أن المبادئ المسيحية "هي الوحيدة التي يمكنها برأيه أن تضع أساسا للسياسة وتنظيم المجتمع المدني"[21]. فهيمنت الكنيسة على مختلف مناحي الحياة، وكبتت على أنفاس البشر، وبدأت تحاكم الناس بمبرر البدع والزندقة. وأضحت حياة الشعب وحياة الدولة شيئا واحدا؛ وبالتالي كانت كل المجالات العامة والخاصة محكومة بالسياسة[22].

خلاصة القول، لم تعد، خلال القرون الوسطى، إمكانية الحديث إلا عن المجتمع المدني المسيحي. حيث كل شيء يخضع لتعاليم الكنيسة، في إبعاد تام للعقل والعلم والخيال إلا ما كان بعيدا عن الشأن العام، أو غير متعارض مع تلك التعاليم. لذلك لم يعرف المجتمع المدني نشأته الحقيقية، إلا في العصر الحديث، ابتداء من القرن السادس عشر.

المجتمع المدني في العصر الحديث

شهدت أوروبا أحداثا كبرى خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر، مهدت للانتقال إلى العصر الحديث[23]. وبالنظر للفوضى والاضطرابات التي أصبحت تعيشها البلدان الأوربية نتيجة هذه الأحداث، بدأ التفكير في ما يجب أن تكون عليه الدولة الأوربية الحديثة. فراح ما عرف بفلاسفة العقد الاجتماعي (أمثال طوماس هوبس، جون جاك روسو، جون لوك..)، يبحثون عن أساس نظري متين للدولة؛ فاقترحوا فكرة المجتمع المدني، بوصفه إطارا للتعاقد الحر بين الناس، في مقابل حالة الطبيعة، باعتبارها حالة الفوضى والاقتتال والحرب الدائمة التي كان عليها البشر[24]. وبذلك أصبح ما يسمى "حالة الطبيعة والعهد المؤسس للخضوع الإرادي الحر بمثابة الضمانات الميتا ـ اجتماعية لجعل الجسم الاجتماعي ممكنا: المجتمع المدني"[25].

بناء على ذلك، تطور مفهوم المجتمع المدني، في العصر الحديث، ارتباطاً بمفهوم حالة الطبيعة، وأصبح يحيل على الجماعة المنظمة بشكل إرادي حر، وفق قوانين وضعية. وهذا ما عكسه التعريف الموجود في موسوعة ديدرو Diderot) 1713-1784) ودالومبير d'Alembert) 1717-1783)؛ حين تم تحديد المجتمع المدني بأنه "الجسم السياسي لأناس ينتمون إلى نفس الأمة، أو نفس الدولة، أو نفس المدينة أو أي مكان آخر، ويشكلون جماعيا علاقات سياسية تشدهم لبعض، ... يخضعون لنفس القوانين ويتشاركون الحقوق والامتيازات المتوافقة مع كل الذين يكونون هذا المجتمع نفسه"[26].

لقد ساعد هذا التعريف على تجاوز دلالة

القرون الوسطى لمفهوم المجتمع المدني، بتخليصه من هيمنة البعد الديني، وجعله شأنا دنيويا خالصا. ولكنه أبقى على تداخله مع المجتمع السياسي، وتعلقه به في القرن 18. ولم يتغير هذا المنظور إلا مع فردريك هيغل. حيث سيجعل هذا الأخير المجتمع المدني متموقعا بين الأسرة والدولة ومستقلا عنهما. فالمجتمع المدني، حسب هيغل، ينتزع الفرد من صلاته العائلية ويحمله أدوارا ومسؤوليات جديدة، لكنه يمنحه حقوقا تقوم على مصلحته الخاصة، بوصفه شخصا غاية ذاته. وهذا "الشخص الواقعي بما هو في ذاته غاية خاصة.. هو المبدأ الأول للمجتمع المدني"[27]. فقد أصبح هذا الأخير حسب منظور هيغل، "ذلك الحيز المستقل الذي يستوعب المصالح [الفردية] الموجودة بعيدا عن الدولة"[28]. فشكل بذلك هذا المنظور لحظة فارقة في تحول مفهوم المجتمع المدني، بجعله فضاء مستقلا عن الدولة، وإن كان هابرماس Habermas J. أشار في كتابه حول الفضاء العمومي الى أن الفزيوقراطيين* Les physiocrates كانوا أول المدافعين عن الاستقلالية القانونية والتشريعية للمجتمع المدني تجاه تدخلات الدولة[29].

تعرض منظور هيغل هذا للمجتمع المدني إلى نقد جذري من طرف كارل ماركس، الذي اعتبره مجرد منتوج بورجوازي؛ أي منتوج السوق الذي يسيطر عليه الرأسمال. ذلك أن منطق السوق يجعل البورجوازي يُحوّل الأفراد إلى مجرد أدوات لتحقيق مصالحه الخاصة، بل "ويتحول نفسه إلى وسيلة ولعبة في يد قوى السوق الغريبة"، على حد تعبير ماركس[30].

لقد ذهب ماركس إلى أن العلاقات داخل المجتمع المدني بما هو مجتمع بورجوازي قائمة على المصلحة الذاتية والأنانية، وعلى "التمييز بين حقوق الإنسان وحقوق المواطن". لذلك فالحقوق التي يدافع عنها المجتمع المدني (الحرية والمساواة والملكية والأمان)، والتي تضمنها "إعلان حقوق الإنسان والمواطن" عقب الثورة الفرنسية، هي "حقوق أعضاء المجتمع البورجوازي"؛ وليس حقوق كل الناس[31]. وبعد هذا النقد للمفهوم الهيغلي للمجتمع المدني، سيدخل هذا المفهوم في دائرة النسيان، حتى مجيء المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي في القرن العشرين[32].

أنطونيو غرامشي وانبعاث المجتمع المدني

بعد النقد الذي وجهه ماركس للمجتمع المدني، "اختفى هذا المفهوم منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، ولم يظهر من جديد إلا مع غرامشي بعد الحرب العالمية الأولى"[33]. بل حسب ما أورده مايكل إدواردز "قد يكون [غرامشي] بمفرده هو المسؤول عن إحياء مصطلح المجتمع المدني في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية"[34].

كان غرامشي مفكرا ماركسيا اشتراكيا. ولم يكن يرى في الاشتراكية مجرد نظام سياسي واقتصادي بديل للرأسمالية فقط، بل كان يرى فيها المخلص للبشرية من العذاب والاستغلال والاستلاب، لدرجة ترتقي إلى مستوى دين يحل محل المسيحية، ويؤسس ثقافة وحضارة جديدتين[35]. فكان له "فضل كبير [على الفكر الماركسي] في كونه اعتمد على وحدة النظرية والممارسة كمحور، وكمركز ارتباط استراتيجي لتحليلاته"[36].

ولكن، رغم إسهاماته في تجديد الفكر الماركسي، بقي وفيا لمبادئه الكبرى؛ بحيث لم يذهب بتفكيره خارج مسلمات هذا الفكر، وإن قدم معنى جديدا لمفهوم المجتمع المدني مختلفا عن ماركس.

قام غرامشي بتغيير المعنى الماركسي لمفهوم المجتمع المدني، بأن جعله فضاء للصراع الإيديولوجي وليس مجالا للصراع الطبقي في جانبه الاقتصادي، كما كان يتصور ماركس. ففي الوقت الذي كان ماركس يجعل مجال المجتمع المدني هو البنية التحتية، نجد غرامشي قد نقله إلى مجال البنية الفوقية، وجعله متطابقا معها. لقد أعطى غرامشي لمفهوم المجتمع المدني "محتوى ثقافيا يبحث عن قنوات وأدوات ذيوعه خارج ما هو ملموس ومادي بشكل مباشر"[37].

بناء على هذا الفهم الجديد، اعتبر غرامشي أن المجتمع المدني هو الفضاء المناسب لممارسة الصراع السياسي، بأن منح الأولوية للثقافي في هذا الصراع. أي أنه نقل هذا المفهوم من المجال الاقتصادي إلى "الحيز الثقافي الإيديولوجي". وبذلك جعل من المجتمع المدني فضاء لمنافسة الدولة ومواجهتها بواسطة مؤسسات مدنية غير تابعة لها. وقد ابتدع، لتوضيح ذلك، مفهومين أصبحا مركزيين في نظريته حول المجتمع المدني هما الهيمنة الإيديولوجية والسيطرة السياسية، حيث المجتمع المدني هو مجال "الهيمنة السياسية والثقافية لجماعة اجتماعية على المجتمع كله"[38].

لقد ميز غرامشي بين هذين المفهومين المركبين؛ الهيمنة الإيديولوجية والسيطرة السياسية، معتبرا أن الأولى هي مجال المجتمع المدني، في حين أن الدولة هي مجال الثانية، مسندا أهمية أكبر للهيمنة الإيديولوجية؛ إذ ربط بها تطور الوعي والمعرفة؛ لأن من يهيمن يستطيع التأثير في توجهات الناس. لذلك كان غرامشي يراهن على مختلف هيئات المجتمع المدني (جمعيات، نقابات،..) لممارسة الصراع من أجل الهيمنة، والتوجيه الفكري الثقافي الإيديولوجي للمجتمع في كليته. ما جعله يقدّر أن المجتمع المدني في الدول الغربية سيلعب دورا حاسما في الصراع السياسي من أجل السلطة بالمقارنة مع المجتمع السياسي، وهو ما دفع جوسيبي فاكا للقول: "إن نظرية "الهيمنة" هي النظرية المعرفية الوحيدة في مجال علم السياسة، وفي التاريخ، التي تتوافق بشكل فعلي مع "نقد" الاقتصاد السياسي"[39].

كان على الطبقة العاملة في أوروبا، حسب هذا التقدير الغرامشي، أن تشتغل في مجال المجتمع المدني، وتعمل للهيمنة على هذا المجال، كمدخل للسيطرة على المجتمع السياسي. وكان يرى أن المثقف العضوي هو أحد آليات، بل وأعمدة المجتمع المدني كما تصوره. ذلك أن المثقف العضوي هو المثقف الذي ينخرط مع الجماهير بتبني قضاياها والدفاع عنها من موقعه، سواء بصياغة المواقف أو بالتأطير الفكري أو التنظير المعرفي أو التأسيس الفلسفي وغيره. فإذا ارتبط المثقفون بالجماهير كانوا مثقفين عضويين، وإلا كانوا مثقفين مزيفين[40]. وفي هذا السياق يقول "لم يعد بالإمكان أن يتمحور نسق حياة المثقف نحو الفصاحة والإثارة السطحية والآنية للمشاعر والأهواء. بل صار لزاما عليه أن يشارك في الحياة العملية، كبان ومنظم "مقنع دائما"، لأنه ليس

مجرد فارس منابر"[41]. فالمثقف العضوي حسب غرامشي هو الذي يلتحم مع الجماهير في معاركها المختلفة، ويساعدها، عبر الكشف عن آليات الاستغلال التي تمارسها الرأسمالية، على تشكيل وعيها الطبقي اللازم لجعلها ماسكة بزمام أمورها.

خلاصة القول إن تصور غرامشي للمجتمع المدني أعاد التفكير في هذا المفهوم، وجعله أكثر راهنية، ليس في البلدان الأوروبية فقط بل في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وسيعرف انبعاثا وحضورا قويا في ستينيات القرن الماضي في فرنسا مع أحداث أيار| ماي 1968، وفي أحداث براغ 1968 وبولونيا 1981،[42] وعموم بلدان أوروبا الشرقية، في الربع الأخير من القرن العشرين. وبعد انهيار الأنظمة الشمولية في أوربا الشرقية، أصبحت المؤسسات والتنظيمات المدنية التي ساهمت في ذلك، تحظى بشعبية بارزة[43] وأضحت فكرة المجتمع المدني بالنسبة للملايين من الناس "مصدر إلهام لهم في نضالهم من أجل عالم أفضل"[44] وهكذا شكل المجتمع المدني منذ سبعينيات القرن الماضي فضاء للنضال على واجهتين:

- واجهة التصدي لبيروقراطية الدولة وتسلطها
- واجهة التصدي لاقتصاد السوق الرأسمالي ذي النزوع المتوحش نحو الربح.

لقد حقق المجتمع المدني في أوروبا نتائج مثيرة، بدت مبهرة، في قدرته على التأثير في القرار السياسي، ومن ثم الاجتماعي والاقتصادي. وأضحت فكرة المجتمع المدني تمارس إغراءً لمختلف الفاعلين في معظم بلدان العالم، بوصفه إحدى الآليات لحل المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في بلدانهم. وهو ما جعل هذا المفهوم ينتقل إلينا بحمولته التاريخية تلك، وخصوصا النضالية، لحاجتنا للإصلاح والخروج من الأزمة. فما طبيعة استعمالات هذا المفهوم في المغرب؟

المجتمع المدني في المغرب

قبل بحث طبيعة المجتمع المدني بالمغرب نقترح، بناء على تتبعنا لمسار تطور المفهوم، تقديم تعريف له يكون مرجعا ومعيارا للقياس. إننا نعتبر المجتمع المدني هو مجمل التنظيمات المتموقعة بين الأسرة والدولة والأحزاب السياسية؛ وهي الهيئات المنتظمة وفق القانون بشكل إرادي طوعي. وهذه التنظيمات لا تهدف تحقيق أرباح مادية لتوزيعها بين الأعضاء، ولا لبلوغ السلطة السياسية وممارسة الحكم. إننا نعتبر كلا من الجمعيات بمختلف اهتماماتها، والأندية، والوداديات والتعاونيات غير الربحية، والنقابات، والصحافة، هيئات تشكل المجتمع المدني. تدافع عن مصالح المواطنين بمواجهة استبداد وبيروقراطية الدولة من جهة، وتواجه اقتصاد السوق المتوحش الذي يجعل الإنسان شيئا ووسيلة لمراكمة الثروات. كما تعمل هذه الهيئات، باختلاف اختصاصاتها واهتماماتها وقدراتها، على ترقية المواطنين في كل المجالات، المادية منها والرمزية؛ من المقاولة إلى الفن والأدب والرياضة وغيرها. قد يكون لهذه الهيئات أهداف جماعية تهم فئة عريضة من الناس، كما قد تكون لبعضها أهداف محدودة في فئة صغيرة من الأشخاص.

نظرا لمسار تطوره، وما أصبح عليه في المرحلة الراهنة، بوصفه أداة المجتمع الناجعة

للدفاع عن مختلف مصالحه وحمايتها، نرى أن المجتمع المدني لا يوجد بشكل فعلي وعادي إلا في إطار الدولة الديمقراطية الحديثة. إطار تنتظم فيه علاقات الأفراد والجماعات على أسس ديمقراطية وقانونية[45]. أي ذلك المجتمع الذي تحترم فيه حقوق المواطن السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية في حدها الأدنى، بناء على القانون. إنه ذلك المجتمع الذي تقوم فيه دولة المؤسسات بالمعنى الحديث للكلمة. لهذا أفضل الحديث عن الفاعل المدني، عوض المجتمع المدني في المغرب. وبالتالي فكل استعمال للمفهوم يبقى في نظرنا إسقاطا تعسفيا لمفهوم نظري على مجال واقعي يختلف كثيرا عن مجال نشأته. إنه بمثابة نقل ميكانيكي لمفهوم من السياق الأوربي الذي نشأ وتطور فيه، إلى سياق آخر يختلف ويبتعد عنه كثيرا. وهذا "النقل الميكانيكي الفج عمل غير مشروع من الناحية الابستمولوجية| المعرفية، لأن ذلك يؤدي إلى تطويع الموضوع لصالح المفهوم، وبالتالي تشويه الواقع والاعتداء على الحقيقة العلمية تماما"[46]. ولن يكون ذلك النقل المعرفي مشروعا إلا إذا تمت تبيئة المفهوم بنجاح. وهو ما لم يتحقق بعد في المغرب، وفق منظوري الخاص[47].

لكن بالمقابل يجب الإقرار بأن المجتمع المدني في المغرب لم يشهد تطورا كميا وكيفيا مهما، إلا مع المبادرة الوطنية للتنمية البشرية (2005)[48]. ذلك أنه قبل هذا التاريخ كان عدد هيئات المجتمع المدني قليلا بالنسبة لدينامية المجتمع المغربي، ولا يتطور إلا ببطء (4000 جمعية سنة 1990)،[49]رغم أن المغرب عرف ميلاد الجمعيات العصرية منذ 1918[50]. فإلى حدود سنة 2005 كان عدد الجمعيات في المغرب حوالي 30.000 فقط، قبل أن يرتفع إلى 116.836 سنة 2015، ليصل إلى 268 ألف سنة 2023[51]. إن هناك توظيفا مكثفا لهيئات المجتمع المدني من قبل الدولة المغربية؛ لأن العديد من الجمعيات تأسست للاستفادة من برامج المبادرة الوطنية للتنمية البشرية، فيما غيرت أخرى قديمة من أهدافها لتستفيد هي الأخرى. لكن مقابل ذلك هناك جمعيات ومنظمات تشتغل وفق منظور آخر، بل منها من يشتكي من التضييق أو الحرمان من المال العمومي[52]. وفي هذا السياق أرى أن وجود مجتمع مدني قوي، يبقى ضمانة وحصنا منيعا للديمقراطية في أي بلد، بل ودافعا لترسيخها باستمرار. فقد كشف لاري دايموند-L. Dia mond ، انطلاقا من اشتغاله نظريا وتطبيقيا على مسألة الديموقراطية، أن "المجتمع المدني يرسخ الديمقراطية وينعشها من خلال الكشف عن سوء استعمال الدولة للسلطة ..، وتطوير مفكرات جديدة من أجل الإصلاح، والرفع من مستوى وعي المواطنين بحقوقهم وواجباتهم"،[53] داعما فكرته برأي الفيلسوف وعالم السياسة روبرت بوتنام R. Putnam الذي اعتبر أن أليكسيس دي طوكفيل .A Tocqueville كان على صواب حينما كشف أن مجتمعا مدنيا قويا في بلد ما، لا يضعف الديموقراطية بل يسندها[54] كما أن المجتمع المدني كانت له على الدوام أدوار متعددة في الدفع بتحولات الدول والمجتمعات نحو الديموقراطية.

خلاصة

إنّ تتبعنا لمسار تطور مفهوم المجتمع المدني، جعلنا نقف عند غنى وتعقد

هذا المفهوم المركب، وتعدد النظريات والمقاربات التي تناولته، ونعترف بصعوبة الإحاطة به ومدارسة كل القضايا المتعلقة به. ولكن نستطيع القول، إن هذه الدراسة كشفت مدى أهمية المجتمع المدني في حركية وتقدم المجتمعات والدول، وكيف أصبح في تاريخنا المعاصر، في معظم البلدان باختلاف سياقاتها، آلية من آليات الدفاع الذاتي، التي يمتلكها المواطنون للمساهمة في ترقية المجتمع والدولة في شتى المجالات؛ الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والفكرية. لذلك فالكثير مما تم تحقيقه في عدد من البلدان، في مجالات مختلفة، هو نتيجة لعملهم وحشد لجهودهم ومراكمة لتجاربهم على مدى عشرات السنين.

إن فهم الإمكانات التي يتيحها المجتمع المدني في مغربنا، والأدوار المنوطة به للمساهمة في ترقية الإنسان على كل المستويات، من شأنه دفع المواطنات والمواطنين إلى الانخراط في هيئاته، كل وفق شروطه الخاصة، لممارسة جزء من واجبات وحقوق المواطنة، وتجاوز العديد من جوانب القصور في مجتمعنا. بل إن الممارسة المدنية المتجهة لخدمة الآخر دون مقابل مادي أو ربح سياسي أو إيديولوجي..، تشعرنا بقيمة إنسانيتنا وتعلي من شأننا تجاه ذواتنا قبل الآخرين.

الهوامش والمراجع:

1 - أماني قنديل، الموسوعة العربية للمجتمع المدني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008، ص. 46.

2 - إدغار موران، المنهج، الأفكار: مقامها، حياتها، عاداتها، وتنظيمها، ج. 4، ترجمة جمال شحيّد، مراجعة موريس أبو ناضر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط. 1، 2012، ص. 19.

3 - P. Bourdieu., J.-C. Chamboredon., J.-C. Passeron, 1983, Le métier de sociologue : Préalables épistémologiques, 4ème édition, Paris, Mouton Éditeur, p. 29.

4 ـ تجدر الإشارة أن هذا المقال، في الأصل، محاضرة قدمت في منبر حوار التنوير في 18 فبراير 2026. لتعميق النظر في الموضوع، انظر:
ـ ادريس الصنهاجي، المجتمع المدني.. من المفهوم إلى الواقع، مؤسسة مقاربات، فاس، ط. 2، 2025.

5 - Denys Cuche, 2004, La notion de culture dans les sciences sociales, 3ème éd, Paris, LA Découverte, p. 7

6 - Joseph Yvon Thériault, 1985, La société civile ou la chimère insaisissable : Essai de sociologie politique, Montréal, Les Éditions Québec/Amérique, pp. 109-110. (édition électronique. Joseph-Yvon Thériault, sociologue, Département de sociologie, Université d'Ottawa, La société civile ou la chimère insaisissable. Essai de sociologie politique (uqac.ca)

7 - Dominique Colas, 1994, Sociologie politique, 1ère édition, Paris, Presses Universitaires de France, p. 385.

8 - Bruno Bernardi, 2008, Société civile : recherche sur la genèse et l'actualité d'un concept, Séminaire, Séance 5, Paris. En ligne https://rousseau2.files.wordpress.com/2010/08/societe-civile-un-probleme-dhistoire-conceptuellle. Voir aussi
- Daniel Mouchard, Société civile, Encyclopædia Universalis, version 10.

9 ـ ستيفن ديلو، التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني، ترجمة ربيع وهبة وعُلا أبو زيد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط. 1، 2003. ص. 51.

10 ـ جون إهرنبرغ، المجتمع المدني: التاريخ النقدي للفكرة، ترجمة علي حاكم صالح وحسن ناظم، مراجعة فالح عبد الجبار، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط. 1، 2008، ص. 30.

11- راجع محاورة سقراط لثراسيماخوس حول العدل والظلم والحكم والحاكم في المرجع الآتي:

- جمهورية أفلاطون، ترجمة ودراسة فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2004، ص. 189-212.

12- مايكل إدواردز، المجتمع المدني: النظرية والممارسة، ترجمة عبد الرحمان عبد القادر شاهين، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط. 1، 2015، ص. 24

13 - جون بيار فرنان، أصول الفكر اليوناني، ترجمة سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط. 1، 1987، ص. 37.

14 - Aristote, Politique d'Aristote, Traduit en français par J. Barthélemy Saint- Hilaire, 3ème édition revue et corrigée, Paris, Librairie Philosophique de Ladrange, p. 51. (sans date).

15 - مايكل إدواردز، المجتمع المدني: النظرية والممارسة، م. س، ص. 40.

16- جون بيار فرنان، أصول الفكر اليوناني، م. س، ص. 37.

17- نورالدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوربة، دار الفكر، دمشق، ج. 1، 1982، ص. 3 و5. هناك اختلاف بين الباحثين حول المعنى الدقيق لاصطلاح "العصر الوسيط أو العصور الوسطى أو القرون الوسطى". لذلك أستعمل إحدى هذه الاصطلاحات بتحفظ منهجي، وأقصد بها المرحلة الزمنية المشار إليها أعلاه من قبل الباحث حاطوم.

18 - مجموعة مؤلفين، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، إشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، ط. 1، 2011، ص. 143.

19 - جفري براون، تاريخ أوربا الحديث، ترجمة علي المرزوقي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ط. 1، 2006، ص. 21.

20 - جون إهرنبرغ، المجتمع المدني: التاريخ النقدي للفكرة، م. س، ص. 76.

21 - نفسه، ص. 78.

22 - J.Y. Thériault, La société civile ou la chimère insaisissable, op. cit., p. 134.

23 - أهم الأحداث حسب المؤرخين: الحرب الطويلة بين فرنسا وإنجلترا (100 عام)، سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين (1453)، الإصلاح الديني المسيحي بزعامة مارتن لوثر (1483-1546)، اكتشاف القارة الأمريكية (1492) بالتزامن مع سقوط غرناطة من المسلمين (1492) بيد الإسبان المسيحيين، اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (1497). - جفري برون، تاريخ أوروبا الحديث، م. س، ص. 23.

24- تدل حالة الطبيعة، كحالة افتراضية، على الحالة التي كان الإنسان يوجد عليها في بداياته الأولى، حيث كان أقرب إلى الحيوان، لأن "الحساسية الحيوانية كانت مستحوذة عليها"، حسب توصيف فرغسون، بناء على آراء باحثين آخرين. لكنه يؤكد على أن "حالة طبيعتنا الأولى لا تشبه ما عرضه البشر في أي حقبة زمنية لاحقة." آدم فرغسون، مقالة في تاريخ المجتمع المدني، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، مراجعة هيثم غالب الناهي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط. 1، 2014، ص. 16.

25 - J.Y. Thériault, La société civile ou la chimère insaisissable, op. cit., p. 25.

26 - Ibid., p. 23.

27- F. Hegel, 1963, Principes de la philosophie du droit, Traduit de l'allemand par André Kaan et Préfacé par Jean Hyppolite, Nrf/Gallimard, pp. 217-218.

28- ستيفن ديلو، التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني، م. س، ص. 384.

29 - Jürgen Habermas, 2011, l'espace public: Archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise, Traduit de l'allemand par Marc B. de Launay, Éditions Payot et Rivages, p. 105.

30 - كارل ماركس، حول المسألة اليهودية، ترجمة نائلة الصالحي، منشورات الجمل، كولونيا، ط. 1، 2003، ص 21-22.

31- نفسه، ص. 37.

32 - لمزيد من الاطلاع، انظر: ادريس الصنهاجي، المجتمع المدني من المفهوم إلى الواقع، م. س، المبحث الثالث / الفصل الثالث.

33 - عبد القادر الزغل، "مفهوم المجتمع المدني والتحول نحو التعددية الحزبية"، ضمن غرامشي وقضايا المجتمع المدني، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ط. 1، 1991، ص. 136.

34 - مايكل إدواردز، المجتمع المدني: النظرية والممارسة، م. س، ص. 26-27.

35- Hugues Portelli, Gramsci (Antonio) 1891-1937, Encyclopaedia Universalis, version 10.

36 - ريجيس دوبريه، تصميم لدراسة عن غرامشي، ضمن أنطونيو غرامشي، قضايا المادية التاريخية، ترجمة فواز طرابلسي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط. 2، 2018، ص. 6.

37 - دلال البزري، " مقترحات أولية لاستخدام مفهوم المجتمع المدني في العالم العربي"، ضمن غرامشي وقضايا المجتمع المدني، م. س، ص. 182.

38 - أنطونيو غرامشي، كراسات السجن، م. س، ص. 227.

39- جوسيبي فاكا، تحليل الهيمنة: حرب الموقع والثورة السلبية، ترجمة عادل السيوى، ضمن غرامشي وقضايا المجتمع المدني، م. س، ص.

126.

40- أنطونيو غرامشي، قضايا المادية التاريخية، م. س، ص. 7.

41- نفسه، ص. 147.

42- J.Y. Thériault, La société civile ou la chimère insaisissable, Op. cit., pp. 163-164.

43- عبد الله حمودي، "المجتمع المدني في المغرب العربي: تجارب، نظريات وأوهام"، ضمن: وعي المجتمع بذاته: عن المجتمع المدني في المغرب العربي، إشراف عبد الله حمودي، دار توبقال للنشر، البيضاء، ط. 1، 1998، ص. 221.

44 - مايكل إدواردز، المجتمع المدني: النظرية والممارسة، م. س، ص. 18.

45- J.Y. Thériault, La société civile ou la chimère insaisissable, Op. cit., p. 166.

46- محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية: محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط. 2، 2000، ص. 12

47 - لمعرفة كل ما يتعلق بهذه النقطة، يرجى مراجعة كتابي المشار إليه أعلاه (المجتمع المدني من المفهوم إلى الواقع).

48 - "المبادرة الوطنية للتنمية البشرية" هي مبادرة ملكية، تهدف كما هو ظاهر من عنوانها إلى تحقيق التنمية في المغرب. أطلقها الملك رسميا في خطاب له يوم 18 ماي 2005. جاء في الخطاب أن المبادرة تهم الجميع، وتفترض مشاركة الجميع، ومنهم "..هيئات المجتمع المدني،..".

49 - المغرب الممكن: إسهام في النقاش العام من أجل طموح مشترك، تقرير الخمسينية، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 2006، ص. 48.

50 - العمل الجمعوي بالمغرب: التاريخ والهوية، مؤلف جماعي/ أشغال ندوة فكرية، أعدها للنشر حسن أميلي، منشورات الجمعية المغربية لتربية الشبيبة، مطبعة كوثر، الرباط، ط. 1، 2004، ص. 21.

51 - جاء ذلك في كلمة لوزير العدل أمام لجنة القضاء على التمييز العنصري، بجنيف، بمناسبة فحصها للتقرير الجامع للتقارير الدورية 19 و20 و21، بشأن إعمال الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري، وفي إطار تفاعله مع اللجنة نفسها يوم انعقادها بتاريخ 22 تشرين الثاني| نونبر 2023 بجنيف.

52 - حسب بحث ميداني، أجريته حول تحولات العمل الجمعوي في المغرب، أكد أحد أعضاء جماعة العدل والإحسان أن الدولة تمنعهم من تأسيس جمعيات، وتضايق الجمعيات التي يرغبون التواجد بها، فيما يشتكي عضو فدرالية اليسار من عدم الاستفادة من المال العمومي، معتبرا أن ذلك يخضع للانتماءات السياسية والقرب من السلطة...

53- لاري دايموند، روح الديمقراطية: الكفاح من أجل بناء مجتمعات حرة، ترجمة عبد النور الخراقي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط. 1، 2014، ص. 469.

54 - نفسه، ص. 469.

الليبرالية الجديدة
بين تناقضاتها الفكرية واشتراطات الواقع

د. هاشم نعمة

مقدمة

مثّل تبني "نموذج الليبرالية الجديدة" محاولة للخروج من الأزمات الاقتصادية والمالية الدورية التي تمر بها الأنظمة الرأسمالية، خصوصا في الدول المتقدمة، والتي سبق لكارل ماركس أن حللها بعمق وتوقع حدوثها وفسر أسبابها. وقد رسم المنظرون والقادة السياسيون الذين تبنوا هذا النموذج صورة زاهية للتنمية الاقتصادية وازدهار المجتمعات اللذين ينتجان من تطبيقه بداية في الولايات المتحدة وبريطانيا. ولم يقتصر الأمر على هذه الدول، بل فُرض هذا النموذج على العديد من البلدان النامية تحت ضغط شروط صندوق النقد الدولي والبنك الدولي لتزويدها بالقروض، شريطة إعادة هيكلة اقتصاداتها والتنازل عن سيادة الدولة على ترابها الوطني. وقد رافق تطبيق الليبرالية الجديدة تبني العولمة - على الرغم من أنها لم تكن جديدة وتُعد جوانب منها مفيدة -، التي تضمنت فتح الحدود لحركة السلع ورؤوس الأموال. وقد جاءت الأزمة المالية والاقتصادية لعام 2008 وما مثّلته من تداعيات واسعة النطاق على الاقتصادات العالمية، منها فقدان ملايين فرص العمل؛ لتمثّل الفشل المدوي لليبرالية الجديدة. وهذا ما دفع الحكومات التي طبقتها ودافعت عنها خصوصا في الولايات المتحدة والبلدان الأوروبية للتدخل لإنقاذ البنوك والشركات المتضررة، وليتحمل المواطن عبء هذه التكاليف. ولكن هذا التدخل لا يعني التخلي على نحو كامل عن الليبرالية الجديدة؛ لأن هذا يتعارض مع مصالح الشركات الاحتكارية الكبرى، بل محاولة للتخفيف من آثارها.

كانت النتائج الاقتصادية والاجتماعية في البلدان النامية التي طبقت الليبرالية الجديدة كارثية؛ فقد تزايد الفقر والتفاوت الطبقي والاجتماعي وتراجع النمو الاقتصادي وكثرت المشكلات الاجتماعية، وانعكس ذلك على الواقع السياسي، حيث انخرطت فئات واسعة من الجماهير تناضل ضد

الأنظمة التي طبقت هذا النموذج. وفي البلدان العربية كانت هذه السياسات أحد الأسباب الرئيسة في اندلاع انتفاضات عام 2011 التي اسقطت عدة أنظمة، ومثّلت تمرينا ثوريا لما هو قادم من انتفاضات وثورات والتي ستكون أنضج إعدادا، تنظيميا وسياسيا بحكم الخبرات النضالية المتراكمة.

وإذا عدنا إلى الوراء، وارتباطا بهذه النتائج، نجد أن صندوق النقد الدولي ما كان بحاجة إلى مساندة الحكومات فحسب، بل ومؤازرة الأجهزة القمعية لهذه الدول، وذلك لأن كل تصعيد في شروط الصندوق يدفع الجماهير إلى تصعيد مقاومتها ضد الإجراءات الحكومية الرامية إلى تطبيق تقشف مالي صارم. فعلى سبيل المثال، بعدما نفذ الجنرال بينوشيه عام 1973 انقلابا عسكريا جعل شيلي تسبح في "حمام دم" باعتراف بينوشيه نفسه، اندلعت في الأرجنتين عام 1976 احتجاجات جماهيرية ضد مطالبة صندوق النقد الدولي الأرجنتين تجميد الأجور لفترة 180 يوما، لمواجهة التضخم وتخفيض الدين الخارجي. وكما حدث في شيلي، استولى الجيش هنا أيضا، على السلطة وشرع في فرض نظام إرهابي، كان قد عرض البلاد، لمذابح رهيبة، راح ضحيتها ثلاثون ألف مواطن، كان غالبيتهم من النقابيين وطلبة الجامعات[1]. وهذان الانقلابان وغيرهما من الانقلابات العسكرية، جرت كما هو معروف بدعم وتحريض مكشوفين من الولايات المتحدة.

وفي إفريقيا وباقي أنحاء العالم كان بركان الثورة يتصاعد من يوم لآخر، ففي كانون الثاني| يناير 1977 اندلعت في كبرى المدن المصرية احتجاجات انصب جام غضبها على مطالبة صندوق النقد الدولي والبنك الدولي الحكومة بضرورة شطب الأموال التي تخصصها كل عام لدعم أسعار المواد الغذائية الأساسية. وفي سياق هذه الاحتجاجات قتل 79 متظاهرا وجرح أكثر من 550 مواطنا. وفي المغرب، كانت النقابات العمالية قد أعلنت في عام 1981 إضرابا عاما، لأن الصندوق كان هنا أيضا، قد ربط منح قرض قيمته 1,2 مليار دولار بالتزام الحكومة بإلغاء الإنفاق الحكومي المخصص لدعم أسعار المواد الغذائية الأساسية. وفي سياق هذا الإضراب احتج آلاف الشباب من سكان الأحياء الفقيرة، المحيطة بمدينة الدار البيضاء، وقتلت الشرطة أكثر من 600 منهم[2].

يأتي المقال هذا لإلقاء الضوء بشكل مكثف على تناقضات الليبرالية الجديدة في التطبيق العملي لأفكارها ونتائج ذلك؛ لذا سيتضمن خلفية نظرية لليبرالية الجديدة تساعدنا في تفسير مآلات تطبيقاتها، وتوجهات الليبرالية الجديدة، كذلك يتطرق لتزايد التفاوت الذي نتج عن سياساتها، ويفحص انعكاساتها على الجانب الاجتماعي وأخيرا يعالج تناقضاتها.

خلفية نظرية

في معظم النواحي، يُعد القليل جدا من أفكار ما يسمى بـ "نموذج الليبرالية الجديدة" جديدا. لقد روّج مؤيدوها لأفكارها الأساسية على نطاق واسع لأكثر من قرنين. وهذه الأفكار تدعي بأن التقدم الاقتصادي سيكون أعظم؛ فكلما زادت الأسواق الحرة (بدل آليات أخرى) زادت قدرة المجتمع على توزيع موارده وانتاجه. شريطة أن تكون الموارد الأكثر إنتاجية والإنتاج ذات

ملكية خاصة للأفراد أو الشركات بدلا من الدولة[3]. وهذا يعني عمليا التخلي عن السياسات الكنزية التي تسمح بتدخل الدولة في الاقتصاد والتي طبقت لفترة غير قليلة في العديد من البلدان الرأسمالية المتطورة.

كانت أفكار الليبرالية الجديدة منتشرة، وانتعشت خلال فترة التاريخ الإنكليزي، حيث كانت الأيديولوجيا مهمة على نحو غير عادي. يبدو أن الليبراليين الجدد هم الناشطون والمجددون الأيديولوجيون لليبرالية أمر لا جدال فيه. وفي الواقع، نجحوا في جعل العديد من أفكارهم المركزية وأنماط تفكيرهم معتمدة في النقاش السياسي، أن لم تكن قد أصبحت بالفعل أفكارا عامة[4]، خصوصا على صعيد بريطانيا.

في نظر الليبرالية الجديدة، فإن الحرية الفردية في السوق مضمونة، إلا أن كل فرد يُعد مسؤولا، وعرضه للمساءلة، عن أفعاله وعن سعادته. وهذا المبدأ يمتد ليشمل مجالات الرفاه والتعليم والرعاية الصحية وحتى الراتب التقاعدي (تمت خصخصة الضمان الاجتماعي في شيلي وسلوفاكيا). أما نجاح الفرد أو فشله فيفسر عادة بعبارات مثل فضائل المبادرات الخاصة أو العجز الشخصي، مثل عدم الاستثمار الكافي في رأس المال البشري للشخص عينه من خلال التعليم، ولا يُفسر قط بإرجاع الفشل لأي خاصية أخرى مثل الإقصاء الطبقي الذي يُنسب عادة إلى الرأسمالية[5]، ويقر بوجوده العديد من مفكريها.

سبق لعدد من المفكرين السياسيين نقد فكرة السوق الذاتي التسيير ومن أهمهم جون جراي، الذي يذهب إلى أن إنشاء السوق الحرة في إنكلترا في القرن التاسع عشر تطلب سن عدد من القوانين أهمها قانون الفقراء عام 1834، الذي حدد مستوى الراتب التقاعدي بأقل من أدنى أجر يحدده السوق، وأضعف الأسرة وأقر نظام "دعه يعمل" الذي كان الأفراد فيه يتحملون وحدهم المسؤولية عن أمانهم المعيشي. وترجع أهمية نقد جراي للسوق الحرة في إنكلترا إلى أن هذا السوق كان النموذج لجميع السياسات الليبرالية الجديدة التي ظهرت منذ سبعينيات القرن العشرين. والملاحظ أن ماركس هو الآخر قد نقد عملية تكوين السوق الحرة هذه، إذ كان معاصرا لها ومتابعا لوقائعها يوميا[6]. وانعكس ذلك بتفصيل دقيق في مؤلفه الضخم رأس المال.

يذكر الباحث الاقتصادي صالح ياسر، "إن النقد الماركسي الجديد لدولة الرفاه قد تبلور أساسا وبقوة خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، بعد الأزمة التي واجهتها دولة الرفاه ذاتها.

يرى بعض الباحثين أن المسار الفكري الذي كان شائعا في وقت سابق في أوساط الماركسيين هو رؤية دولة الرفاه باعتبارها (رشوة) من الدولة لتهدئة تطلعات العمال الاشتراكية والثورية.

في السابق كان يُنظر إلى دولة الرفاه على أنها (أفيون) مهدئ للناس"، ما قلل من نشاطهم الثوري في التغيير.

تعتمد هذه الفكرة على نحو كبير على تطور الحركة العمالية خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية[7]، حيث شهدت بلدان أوروبا الغربية ازدهارا اقتصاديا ساهم في تبني نموذج دولة الرفاه الاجتماعي، إضافة إلى محاولة محاكاة نموذج الضمان الاقتصادي والاجتماعي في البلدان الاشتراكية السابقة.

بعض توجهات الليبرالية الجديدة

استنادا للفكر الليبرالي الجديدة، يُعد الحراك الحر لرأس المال بين القطاعات والأقاليم والبلدان بالغ الأهمية وحاسما، لذلك ينبغي إزالة جميع الحواجز المعوقة لهذا الحراك، مثل التعرفة الجمركية أو الترتيبات الضريبية العقابية أو التخطيط والرقابة البيئية، باستثناء تلك الموجدة في مناطق تُعد شديدة الأهمية "للمصلحة الوطنية" مهما كان تعرفيها. ويجري التنازل عن سيادة الدولة على حركة السلع ورأس المال طوعا وعن طيب خاطر للسوق العالمية. فالتنافس الدولي أمر صحي ذلك أنه يحسّن الفاعلية الإنتاجية ويخفّض الأسعار، وبالتالي يسيطر على النزعات التضخمية. لكن السؤال عما إذا كان ذلك ينطبق على العمالة أم لا فهذا لا يزال موضع جدل[8]. والإجابة على هذا السؤال شكلت أحد تناقضات الليبرالية الجديدة والتي سنتطرق إليها فيما بعد.

في الثمانينيات، في عهد الرئيس رونالد ريغان، أصبحت أفكار الليبرالية الجديدة بالفعل مهيمنة في واشنطن. لقد قلّص ريغان سلطة الحكومة وخفّض الضرائب بوتيرة قياسية، ما أفاد الشركات والأثرياء على وجه الخصوص. وكان ريغان قد استوحى توجهاته هذه على نحو مباشر من المنظرين الأيديولوجيين فريدريش هايك وميلتون فريدمان ومراكز الفكر التي تبنت أفكارهم منذ أواخر الستينيات. كما نجح في دمج هذه الأفكار مع أفكار الحركة المسيحية المحافظة[9] والتي استند إليها أيضا رونالد ترامب لكسب قطاعات من السكان البيض المسيحيين - الذين لديهم شعور بتراجع نسبتهم، نتيجة التعدد الثقافي-، لدعم فوزه في الانتخابات الرئاسية.

ويتساءل نعوم تشومسكي، كيف تصدر الولايات المتحدة قيم السوق الحرة من خلال منظمة التجارة العالمية، حيث احتفلت بتوقيع اتفاقية الاتصالات لهذه المنظمة. ومن آثارها توفير أداة جديدة للسياسة الخارجية لواشنطن. فالاتفاقية تُمكن منظمة التجارة العالمية من الدخول إلى داخل حدود الدول الموقعة على الاتفاقية، وليس سراً أن المؤسسات الدولية لا تستطيع العمل إلا بقدر ما تلتزم بمطالب الأقوياء، خصوصا الولايات المتحدة. وفي الواقع، تسمح "الأداة الجديدة" هذه للولايات المتحدة بالتدخل بعمق في الشؤون الداخلية للأخرين، وإجبارهم على تغيير قوانينهم وممارساتهم. وستحرص منظمة التجارة العالمية على أن تلتزم الدول الأخرى بتعهداتها بالسماح للأجانب بالاستثمار دون قيود في القطاعات المركزية من اقتصاداتها. ومن الواضح، سيكون المستفيدون من هذا العهد الجديد الشركات الأمريكية، التي تتمتع بأفضل وضعية للسيطرة في هذا الميدان(10)، لهذا نرى أن لهذه الشركات مواقع قوية حتى في البلدان الأوروبية المتطورة، وتخشى هذه البلدان من أن يؤدي توتر علاقاتها السياسية والتجارية مع الولايات المتحدة خصوصا في عهد ترامب الى مغادرة هذه الشركات التي تهيمن على قطاعات مهمة خصوصا قطاع التكنولوجيا.

تحولت أسواق المال إلى خطر يتهدد الاقتصاد الحقيقي، الاقتصاد الإنتاجي. فهي تحولت إلى كازينو للقمار جذاب فعلا بأضوائه المتوهجة. إن اللاعبين في هذا الكازينو يمكن أن يقوضوا أركان شركات

عملاقة ومتوسطة، إذا ما خسروا الرهان، لا بل قد يتسببون في زعزعة الاستقرار في دول بأكملها. وكان آرثر برونز محافظ البنك المركزي في إدارة الرئيس ريتشارد نيكسون قد تنبأ في السبعينيات باندلاع هذه المخاطر. فوفق تنبؤاته "يؤدي تحرير أسواق المال إلى شقاء الإنسانية بكل تأكيد". وبعد ثلاثين عاما من التاريخ المذكور، ما كان بوسع خليفته باول فولكر غير التأكيد على صدقية هذا التنبؤ، علماً أن فولكر أمسى واحدا من أهم المستشارين الاقتصاديين في إدارة الرئيس باراك أوباما. وكان قد هاجم النظام المالي في نيسان| أبريل عام 2008، أمام النادي الاقتصادي في نيويورك، قائلا "إنه لمن الصعب جدا الزعم بأن النظام الجديد قد حقق منافع ذات بال"[11]. وقد أكدت الأزمة المالية الأخيرة أن هذا النظام تسبب بحدوث كوارث مالية، منها الانهيارات الضخمة التي حدثت في البنوك الكبيرة وأزمة العقارات.

تزايد التفاوت

يقرّ مفكرو الليبرالية باستمرار التفاوت في ظل الرأسمالية، ولكنهم يعتقدون أنه في حال تطبيق الليبرالية الجديدة سيتراجع التفاوت، نتيجة استمرار النمو الاقتصادي والازدهار الذي سيعم المجتمع، لكن الحصيلة كانت عكس ذلك. فقد قالت فوكودا بار التي صاغت تقرير التنمية البشرية لعام 1999 الذي يصدر عن الأمم المتحدة في حديث لها حول النتائج التي توصلت إليها: "للعولمة منافع كثيرة بالنسبة إلى البعض ولكن بالنسبة إلى أغلبية سكان العالم تعني فقط مزيداً من الفقر"[12]، خصوصا في البلدان النامية، ونحن نعرف أن العولمة تعززت أكثر في ظل الليبرالية الجديدة.

قدر التقرير العالمي لمنظمة التنمية الصناعية التابعة للأمم المتحدة لعام 1996، بأن التباين بين أغنى وأفقر 20 في المئة من سكان العالم ارتفع أكثر من 50 في المئة خلال الفترة 1960 - 1989، وتوقع تزايد التفاوت العالمي الناتج من عملية العولمة. وحصل أيضا تزايد في التفاوت في المجتمعات الغنية، والولايات المتحدة لها الريادة في ذلك، وبريطانيا ليست بعيدة عنها في هذا الجانب، وتُشيد الصحافة الاقتصادية بالنمو "المذهل" و"الرائع" للأرباح، وتُثني على التركيز غير العادي للثروة بين أعلى نسبة قليلة من السكان، بينما تستمر ظروف غالبية السكان في الركود أو التراجع[13].

ولاحظ الاقتصادي برنك ليندسي "بأنه بين 1973 - 2001، كان متوسط النمو السنوي للدخول الفعلية فقط 0,3 بالمائة بالنسبة إلى الأشخاص في خمس الجزء السفلي من توزيع الدخل في الولايات المتحدة، مقارنة مع 0,8 بالمائة بالنسبة إلى الأشخاص في الخمس المتوسط، و1,8 بالمائة بالنسبة إلى أولئك الأشخاص في الخمس الأعلى من توزيع الدخل. وتسود أيضا، أنماط مشابهة إلى حد ما في الكثير من الاقتصادات المتقدمة الأخرى"[14]، خصوصا في البلدان الأوروبية وأستراليا.

يشير باتريك دينين الى أن المجتمع الأمريكي يُحَّدد بنحو متزايد من خلال الرابحين والخاسرين اقتصاديا، حيث يحتشد الرابحون في المدن الغنية والمقاطعات المحيطة بها، بينما يظل الخاسرون إلى حد كبير في أماكنهم ويغمرهم اقتصاد

عالمي يكافئ النخبة المعرفية راقية التعليم، بينما يقدم فتات الخبز لأولئك المنسيين في "الولايات المنسية" التي تقع بين الشرق والساحل الغربي للولايات المتحدة. هذه الاتجاهات التي لاحظها روبرت رايش وكريستوفر لاش منذ عقود مضت، واللذان انتقدا بقسوة "انشقاق الناجحين" و"ثورة النخبة"، أصبحت في الوقت الحالي ذات طابع مؤسسي من خلال الأسرة، والحي السكني، والمدارس، وتُستنسخ من خلال التعاقب الجيلي؛ إذ يتلقى أطفال أولئك الناجحين إعدادا للدخول إلى الطبقة الحاكمة، بينما يكون أولئك الذين يفتقرون إلى تلك المؤهلات أقل قدرة على توفير الشروط الأساسية اللازمة لدفع أطفالهم إلى المستويات العُليا وأقل معرفة بها[15]. وهذه الحالة تنطبق بدرجات متفاوتة على البلدان المتطورة خصوصا الأوروبية منها.

بالإضافة إلى مواجهة تناقص احتمالات أن تخلق رأسمالية السوق رخاء متزايدا لكل المجتمع. أثبتت السنوات الأخيرة، منطقا مدعاة للمفارقة داخل رأسمالية السوق – بالتحديد الجهود الدائمة لكبح الأجور إما من خلال إيجاد أسواق جديدة منخفضة الأجور وإما استبدال البشر بالآلات - سوف يختزل بنحو متزايد كل أنماط العمل ما عدا القليل منها إلى الأعمال الشاقة والمهينة. وقد أدى هذا الاعتراف إلى العودة إلى الرهان الأساسي لجون لوك القائل بأن النظام الذي يوفر الراحة المادية، بغض النظر عن اتساع حجم عدم المساواة، وغياب احتمالات النمو والحراك والتنقل بين الطبقات، من شأنه مع كل ذلك أن يرضي معظم أفراد المجتمع. وأحدث التأملات عن المذهب الليبرالي عند لوك هو للاقتصادي تايلر كوين، الذي يعكس كتابه "الوسط قد انتهى" الخطوط الأساسية لحجة لوك. إذ يشير إلى أن الليبرالية والرأسمالية تديمان أشكالا ضخمة ودائمة من عدم المساواة، والتي يمكن أن تجعل أدوقة العصور الماضية يشعرون بالخجل أمامها، فإن كوين يحاج بأننا في نهاية حقبة فريدة من نوعها في التاريخ الأمريكي، زمن يسود فيه إيمان على نطاق واسع بالمساواة النسبية ومصير مدني مشترك، ودخول عصر نرى فيه بشكل فاعل كيف تُخلق أمتان منفصلتان[16]. وهذا القول هو من أدق التعبيرات لحالة تنامي التفاوت الطبقي والاجتماعي في المجتمع الأمريكي، الذي عمقته الليبرالية الجديدة.

الجانب الاجتماعي

ركزت الليبرالية الجديدة على الجدارة والكفاءة لضمان توزيع فاعل لعناصر الإنتاج ومكافأتها على دورها في العملية الإنتاجية، إلا إنها أغفلت إلى حدّ بعيد التفاوت في فرص الحصول على التعليم النوعي والخدمات الصحية والظروف المعيشية، وحتى المشاركة السياسية التي لها دور كبير في تحديد ماهية الجدارة. وهناك تباين كبير في هذه المسألة في مجتمعات الدول النامية والمتقدمة، وإن كانت في الثانية أقل حدة. وهذا ما تؤكده دراسة منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية؛ إذ بيّنت أن الوضع الاجتماعي - الاقتصادي هو عامل محوري في تشكيل الفروق في مهارات القرن الحادي والعشرين؛ ذلك لأن الأطفال والبالغين المنحدرين من أسر أكثر امتيازا يميلون باستمرار إلى امتلاك

مستويات أعلى في مهارات القراءة والكتابة والحساب وحل المشكلات، وهي مهارات لها دور حاسم في تحديد آفاق الدخل مستقبلا. وعليه، فالوصول إلى تعليم عالي الجودة والتعلّم المستمر يظل متباينا اجتماعيا؛ ما يعني أن نظم التعليم وأسواق العمل تميل، في ظل غياب سياسات موجّهة، إلى إعادة إنتاج عدم المساواة في المهارات القائمة على الوضع الاجتماعي - الاقتصادي عبر الأجيال بدلا من تقليصها[17]. وهنا يكون دور الدولة أساسيا لتصحيح هذا الاختلال من خلال توفير التعليم لكل شرائح المجتمع، وعدم جعله وسيلة للتربح.

ووفقا لدراسة أعدّها صندوق النقد الدولي، لمجموعة من الدول النامية والناشئة، فإن تحسن المخرجات الصحية وتوسع فرص الوصول إلى التعليم، إضافة إلى السياسات الاجتماعية، تسهم بصفة ملحوظة في تعزيز عدالة توزيع الدخل وضمان فرص دخل أفضل للفئات الفقيرة والطبقة المتوسطة في هذه المجتمعات. وفي المقابل، أظهرت الدراسة أن مرونة سوق العمل والعولمة المالية والتطورات التكنولوجية كان لها أثر سلبي في عدالة توزيع الدخل، وهي اعتبارات تُعدّ من السمات الملازمة للنموذج الليبرالي الاقتصادي[18] الذي قاد تطبيقه إلى كوارث اقتصادية واجتماعية في البلدان النامية خصوصا.

قد تشكّل سياسات الحماية الاجتماعية أدوات مهمة للتخفيف من اختلالات العدالة في التوزيع، فإنها تبقى بفردها، عاجزة عن تحقيق الكفاية والاستدامة المنشودتين. ومن ثم، فإن الخروج من مفارقة العدالة والجدارة يقتضي بالضرورة أن تعمل الدول على الارتقاء بالتعليم، وضمان الوصول العادل إلى الخدمات الصحية وغيرها من الممكنات الأساسية، بما يرسّخ تكافؤ الفرص ويرفع مستواها على نحو مستدام[19]، ومن ثم يقلل من التفاوت الاجتماعي.

قادت إعادة الهيكلة استنادا إلى الليبرالية الجديدة إلى وضيعة دعمت فيها النخب السياسية والاقتصادية التكامل الاقتصادي والنقدي في الاتحاد الأوروبي، في حين شككت أقسام كبيرة من السكان في التأثيرات الإيجابية للاتحاد الاقتصادي والنقدي. ومنذ نهاية الثمانينيات، ليس من المبالغة الحديث عن انتهاء "الإجماع المتسامح" السابق. وقد استبدلت على نحو كبير المواقف المؤيدة لتكامل الاتحاد الأوروبي إلى شعور بالتشاؤم، حيث ارتفاع البطالة ومشكلات الميزانية العامة وتراجع المنافع الاجتماعية، باختصار انعدام الأمن الاجتماعي. يشير هذا التحول في الوعي العام إلى أن هيمنة الليبرالية الجديدة فقدت قدرتها في تنظيم الإجماع. وعلى عكس السنوات السابقة، بات الليبراليون الجدد من النادر أن يركزوا على المميزات المتوقعة لمبادراتهم. وبدلا من ذلك، ركزوا على عبارة مارغريت تاتشر الأصلية "لا يوجد بديل" عن تعليمات السياسة النقدية المتشددة وسياسات إلغاء القيود[20].

لا يرغب الناس والنقابات العمالية والأجنحة اليسارية في الأحزاب، على الأقل في عدد من البلدان، بتقبل وجهة النظر الدوغمائية هذه والتسامح معها. ويؤكد توسع المقاومة الاجتماعية - على سبيل المثال، الإضرابات في فرنسا، وبشكل رئيس المقاومة النسائية ضد تراجع دولة الرفاه الاجتماعي في

البدان الإسكندنافية، وإضرابات الفلاحين في اليونان، والتظاهرات الكبيرة للاتحادات العمالية الألمانية - بأن التأثيرات الاجتماعية السلبية للاستراتيجيات الاقتصادية المسيطرة باتت ممكنة التحقق على نحو متزايد. من دون ريب، تتسم هذه الحملات والتظاهرات بالتشظي بدرجة كبيرة وذات طبيعة دفاعية. ومع ذلك، تبدو الأشكال الحديثة للمقامة الاجتماعية كتعبير منطقي عميق بشأن التطور الرأسمالي[21]، وما يفرزه من تبعات اقتصادية واجتماعية ونفسية لشرائح واسعة من السكان.

تؤكد كثير من الأمثلة تفاقم إرهاق المجتمعات. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: أولا، هناك خصخصة وإعادة هيكلة القطاع العام. وفي البحث عن كفاءة اقتصادية أكثر، يجري تفويض الكثير من المهام الاجتماعية والخدمات إلى الأسر أو قطاعات أعمال الخدمات. هذا التوجه يؤثر في البنية التحتية، خصوصا في الحقول التي ليست لها صلة مباشرة بالمنافسة الاقتصادية (بعض المدارس، نوادي الترفيه العامة، أقسام من النظام التعليمي، مراكز الاستشارات، الوقاية الطبية... إلخ). المثال الثاني يعود إلى العلاقات الصناعية التي تتسم بمرونة أكثر؛ إذ يحد هذا الجانب عموما من قوة النقابات العمالية، الأمر الذي بدوره يعزز انتشار الأجور المنخفضة، والعمل غير النظامي مع معايير اجتماعية وأمنية متدنية. المثال الثالث، يتعلق بتفكيك أنظمة الضمان الاجتماعي، أي خفض أو إلغاء الحقوق الاجتماعية، مع معايير اجتماعية منخفضة (الحد من الوصول إلى المنافع الاجتماعية وتقليل عددها).

بالإضافة إلى ذلك، توفر هذه التوجهات وسيلة لاستراتيجيات العمل الاجتماعي الجديدة، حيث يُجبر العاطلون عن العمل بالقبول بأي عمل[22]، وهذا ما يؤثر على مستوى الأجور التي يقاضونها ومن ثم على مستواهم المعيشي والاجتماعي.

على الرغم من أن مبدأ "الحق في العمل" لم يكن منشؤه الفكر الليبرالي، لكن الليبراليين الجدد لديهم الكثير ليقولوه بشأن هذا المبدأ، ويوضح النقاش الذي دار بشأنه اتجاها جديدا في الفكر الليبرالي. وقد تحدد الموقف الليبرالي التقليدي من حق العمل باعتباره حق العاطلين عن العمل في الحصول على عمل في مهنهم الخاصة بأجور جيدة أو بالمعدلات السائدة للأجور[23]. وهذا يعني إن لم يستطيعوا الحصول على عمل في هذه المهن فتنتظرهم البطالة.

وفي العراق وبحسب صالح ياسر، يسمح التأمل العميق في الأصول الفكرية التي ترتكز عليها أيديولوجية ليبرالية التكييف وقراءة ما طرحه بول بريمر الحاكم المدني للعراق بعد الاحتلال الأمريكي عام 2003، أن من بين الأهداف الفعلية للمشروع الاقتصادي الذي طرحه التأثير في العلاقات الاجتماعية المحلية من خلال العمل على خلق فئات اجتماعية تستفيد من السياسات التي تتضمنها برامج التكييف الهيكلي؛ إذ يستحث على تفكيك التحالفات الاجتماعية التقليدية والعمل على خلق الشروط لنشوء وتطور تحالفات اجتماعية جديدة، تتضمن تلك القوى التي تدافع عن السياسات الجديدة وتكون أساسا أو قاعدة متينة لسلطة الدولة ولها مصلحة فعلية في استمرار تنفيذ برامج التكييف الهيكلي[24]. وهذا ما ساهم في توسع

صفوف البرجوازية الطفيلية التي تشابكت مصالحها مع القوى الحاكمة المتنفذة، نتيجة ضعف الاقتصادي الوطني من الناحية الإنتاجية واعتماده على النفط، وتوجهها نحو القطاعات التي تحقق الربح السريع.

تناقضات الليبرالية الجديدة

استنادا إلى الفكر الليبرالي، يُفترض بأن الأفراد أحرار في خياراتهم إلا أنهم لا يفترض بهم أن يكون لديهم الخيار في تفسير أن المؤسسات الجمعية، مثل النقابات تتعارض مع الجمعيات الطوعية الضعيفة. وبالتأكيد لا ينبغي أن يختاروا التجمع بغية تأسيس أحزاب سياسية تهدف إلى إجبار الدولة على التدخل في السوق. وبغية حماية أنفسهم من أعظم مخاوفهم - ألا وهي الشيوعية والاشتراكية والشعبوية الشمولية، وحتى حكم الأكثرية - يتعين على الليبراليين الجدد أن يضعوا حدودا قوية للحكم الديمقراطي، معتمدين عوضا منه على مؤسسات لا ديمقراطية ولا تخضع للمساءلة مثل بنك الاحتياط الفدرالي أو صندوق النقد الدولي، لصنع القرارات الهامة. وهذا الوضع يؤسس لمفارقة تتمثّل بتدخلات للحكومة بالغة الشدة من قبل النخب و"الخبراء" في عالم يفترض أن الدولة لا تتدخل فيه. لذلك تجد الدولة النيوليبرالية نفسها عندما تواجه حركات اجتماعية تطالب بالتدخل تكون في هذه الحالة مجبرة على التدخل، واحيانا بأسلوب قمعي، وعلى هذا النحو ترفض الحريات التي يفترض أنها تؤمن بها. وهذا هو الخوف الذي تحدث عنه بولانيي القائل بأن المشروع الطوباوي الليبرالي (واستطرادا النيوليبرالي) قد لا يطول بقاؤه في نهاية المطاف إلا باللجوء إلى السلطة الشمولية. وهذا يعني تقييد حرية الجماهير الشعبية لصالح حريات القلة القليلة[25]. وهذه النزعة تكون أكثر وضوحا في البلدان النامية التي تبنت الليبرالية الجديدة وذات أنظمة مستبدة. كان الهدف المعلن من الخصخصة وسياسات التثبيت الاقتصادي والتكيف الهيكلي، التحول إلى اقتصاد يقوم على حرية السوق والاحتكام إلى آلياته، إلا أن النتائج المحققة في الدول التي اضطرت إلى انتهاج هذه السياسة (البلدان النامية والدول الاشتراكية السابقة)، أدت باعتراف صندوق النقد الدولي والبنك الدولي إلى "انكماش الناتج الوطني بصورة حادة" وإلى مجموعة من الاختلالات الاقتصادية والاضطرابات الاجتماعية والتوترات السياسية، كما أدت الإصلاحات الاقتصادية في البلدان الصناعية المتطورة إلى تراجع ما كان يُدعى بنموذج دولة الرفاه الاجتماعي[26] والذي كانت تتفاخر به هذه الدول على اعتبار أنه يحقق العدالة الاجتماعية.

تفشل المجتمعات المتقدمة في حماية نفسها من الأثر المدمر للأسواق غير المنظمة. يؤكد ذلك مثال أستراليا في الثمانينيات؛ إذ نجحت تجارة السوق الحرة التي طبقتها حكومة حزب العمال بخفض الدخل القومي بأكثر من 5 في المائة سنويا بحلول نهاية العقد، وانخفضت الأجور الحقيقية، وسقطت المشاريع الأسترالية تحت التحكم الأجنبي. وتقدمت البلاد نحو قاعدة للموارد في خدمة منطقة رأسمالية الدولة المتمركزة حول اليابان. وهي المنطقة التي حافظت على نمو ديناميكي بفضل ابتعادها الجذري عن

العقيدة الليبرالية الجديدة، هذا الابتعاد الذي حفز التطور في المقام الأول[27]. وهو خلاف ما يدعيه منظرو الليبرالية الجديدة بأن تدخل الدولة يمثّل عائقا أمام النمو الاقتصادي المستدام.

يلاحظ آثر ماك إيوان، في مراجعته للسجل الموحّد للتنمية الصناعية والزراعية في الولايات المتحدة المحققة من خلال السياسات الحمائية وغيرها من إجراءات تدخل الدولة، إن "بإمكان الأمم عالية التطور استخدام التجارة الحرة لبسط سلطانها وسيطرتها على ثروات العالم. وبإمكان التجارة الحرة أن تحد من الجهود الهادفة لإعادة توزيع الدخل بشكل أكثر مساواة، وأن تقوض البرامج الاجتماعية التقدمية، وأن تمنع الناس من التحكم ديمقراطيا بحياتهم الخاصة"[28]. وهذا ما جرى طيلة عقود؛ إذ دعمت الولايات المتحدة الأنظمة المستبدة، ونفذت انقلابات عسكرية دموية أو قامت بغزو عسكري مباشر لعدد من البلدان، كما حدث للعراق من أجل تأمين مصالحها الاقتصادية والجيوسياسية.

تتخذ المجتمعات الصناعية الغنية شيئا من هيئة العالم الثالث، بوجود جزر من الغنى الفاحش يحيطها بحر متلاطم من الفقر. يصح هذا خصوصا في الولايات المتحدة وبريطانيا اللتين خضعتا لتعاليم ريغان وتاتشر. ولا تختلف أوروبا عنهما كثيرا، على الرغم مما بقي فيها من قوة الطبقة العاملة والعقد الاجتماعي الذي دافعت عنه. رغم قدرتها على صنع أحياء الفقر عبر "العمال الضيوف"[29]. وهذا ما نجده على سبيل المثال أكثر وضوحا في حالة سكن عدد غير قليل من العمالة المهاجرة في فرنسا.

وفي جانب الهجرة أيضا، تتميز الرأسمالية النيوليبرالية بنزعتين متناقضتين تجاه الهجرة الوافدة – هما زيادة الهجرة وفي الوقت نفسه تقييدها. ومن الأمثلة التي تُبرز هذا التناقض هي أعمال إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي في تقييد الهجرة الوافدة، مستهدفة على نحو محدد، بلدانا فقيرة في إفريقيا وأمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي وأماكن أخرى. والدعوة في الوقت نفسه إلى زيادة الهجرة المنظمة، وهناك مجموعة معقدة من المؤسسات الدولية والأكاديميين والبرامج البحثية والتقارير والوصفات السياسية وصانعي السياسات. هذه المجموعة مكرسة أيضا لتسهيل تدفقات رأس المال دون عوائق على الصعيد العالمي في خدمة الرأسمالية النيوليبرالية. وهناك بُعد آخر للتناقض وهو أن الرأسمالية النيوليبرالية تعزز الهجرة المنظمة، بحيث يجري تفضيل فقط المهاجرين الذين يتوفرون على المال والمهارات العالية للقبول في البلدان الغنية [30].

ومن ناحية أخرى، يعكس هذا التناقض انفصالا بين السياسة والاقتصاد في ظل العولمة النيوليبرالية. إذ يبدو أن هناك فارقا زمنيا بين القاعدة الاقتصادية والنظام السياسي بشأن مسألة الهجرة الوافدة. بينما تتطلب المنفعة الاقتصادية النيوليبرالية توظيف العمالة المهاجرة الرخيصة لتخفيض تكاليف الإنتاج وتحفيز الربح، نجد النظام السياسي الذي أقيم لتسهيل سير عمل القاعدة الاقتصادية بسلاسة، يقوم بإقامة الحواجز أمام دخول المهاجرين[31].

وهذا التوجه يكون مدفوعا من الأحزاب اليمينية المتطرفة التي تحمّل المهاجرين سبب الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي تمر فيها البلدان الرأسمالية المتطورة، لكن واقع هذه البلدان يشير إلى حاجتها الماسة للمهاجرين في ضوء تزايد شيخوخة السكان.

وبحسب نعوم تشومسكي لا تقبل أي من مجتمعات رأسمالية الدولة الحركة الحرة لقوة العمل التي هي شرط ضروري لنظرية السوق الحرة؛ وبالتالي على أوروبا الشرقية، أو معظم أجزائها على الأقل، أن تعود إلى الدور الخدمي الخاص بالعالم الثالث[32]. وهذا الموقف ينطبق أكثر على العمالة المهاجرة الوافدة من البلدان النامية.

وهناك واقع آخر لم تستطع الليبرالية الجديدة تجاوزه، فعلى الرغم من الأزمة المالية العالمية الأخيرة لعام 2008، لا تزال شركات النفط الوطنية تسيطر على ثلاثة أرباع الموارد الأولية الإستراتيجية في العالم، ولا تزال الشركات العائدة للدولة والشركات الوطنية المملوكة للقطاع الخاص والنصيرة للدولة تتمتع بميزات تنافسية أساسية على منافسيها من القطاع الخاص، ولا تزال صناديق الثروة السيادية تفيض بالسيولة النقدية. هذه الشركات والمؤسسات، حقاً، أكبر من أن تتعرض للفشل. هذا يعني أن "هذه الاتجاهات تعيد تشكيل السياسة الدولية والاقتصاد العالمي بواسطة تحويل وعلى نحو متزايد مفاصل القوة الاقتصادية الكبيرة والتأثير أو النفوذ إلى السلطة المركزية للدولة. وبهذا فهي تغذي ظاهرة كبيرة ومعقدة لرأسمالية الدولة"[33]. وهذا المنحى ازداد أكثر بعد تداعيات الأزمة الأخيرة وما رافقها من تدخل الدولة في الجانب المالي والاقتصادي، وفي المعاقل التي انطلقت منها الليبرالية الجديدة مثل الولايات المتحدة والبلدان الأوروبية.

الهوامش:

1 - أرنست فولف، صندوق النقد الدولي قوة عظمى في الساحة العالمية، ترجمة عدنان عباس علي، الكويت: عالم المعرفة، 435، أبريل 2016، ص 61 - 62.

2 - المصدر نفسه، ص 62.

3 - Andrian Vlachou, (ed.), Contemporary Economic Theory: Radical Critiques of Neoliberalism, London: Macmillan Press, 1999, p. 72.

4 - Michael Freeden, The New Liberalism: An ideology of social reform, Oxford: Clarendon Press, 1978, pp. 195-196.

5 - ديفيد هارفي، الوجيز في تاريخ النيوليبرالية، ترجمة وليد شحادة، دمشق: وزارة الثقافة، 2013، ص 95.

6 - اشرف منصور، الليبرالية الجديدة: جذورها الفكرية وأبعادها الاقتصادية، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2008، ص 323.

7 - صالح ياسر، "الرفاهية الاجتماعية .. "تعاون طبقي" أم "صراع طبقي"! جدل الثنائيات"، الثقافة الجديدة، العدد 435، كانون الثاني 2023، ص 12.

8- هارفي، ص 95.

9 - NRC Handelsblad, 25 November 2022.

10 - Noam Chomsky, Profit over People: New liberalism and Global Order, New York: Seven Storis Press, 1999, p. 69.

11 - أولريش شيفر، انهيار الرأسمالية، ترجمة: عدنان عباس علي، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 371، يناير 2010، ص 64-63.

12 - NRC Handlesblad, 12 Juli 1999.

13 - Chomsky, p. 112.

14 - جيري مولر، "الرأسمالية وعدم المساواة"، ترجمة: هاشم نعمة، "الثقافة الجديدة"، العدد 373، أيار 2015، ص 85.

15 - باتريك دينين، لماذا فشلت الليبرالية، ترجمة يعقوب عبد الرحمن، الكويت: عالم المعرفة، 483، أبريل 2020، ص 158.

16 - المصدر نفسه، ص 151-149.

17 - عمر الرزاز وحازم رحاحلة، "تقهقر النيوليبرالية: الدروس والسياسات المستخلصة"، الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، شباط 2026، ص 8-7.

18 - المصدر نفسه، ص 8.

19 - المصدر نفسه، ص 12.

20 - Hans-Jurgen Bieling, New – Liberalism and Communitarianism: towards a new type of employment policy in Western Europe, Amsterdam: University of Amsterdam, 1998, p. 12.

21 - Ibid., pp. 12-13 .

22 - Ibid., pp. 13-14.

23 - Michael Freeden, p. 212.

24 - صالح ياسر حسن، الخصخصة و"الإصلاحات الاقتصادية" بين خيبات العقيدة ورهانات الواقع - محاولة في نقد الخطاب والممارسة -، بغداد: دار الرواد المزدهرة، 2016، ص 437.

25 - هارفي، ص 100-99.

26 - صالح ياسر حسن، الخصخصة، ص 133-132.

27 - نعوم تشومسكي، سنة 501 الغزو مستمر، ترجمة مي النبهان، دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 1996، ص 99.

28 -المصدر نفسه، ص 187.

29 - المصدر نفسه، ص 100-99.

30 - Dennis C. Canterbury, Capital Accumulation and Migration (Leiden/ Boston: Brill, 2012), p. 173.

31 - Ibid., p. 173.

32 - تشومسكي، ص 145.

33 - إيان بريمر، "رأسمالية الدولة عصر يتشكل، هل هو نهاية السوق الحرة؟"، ترجمة: هاشم نعمة، الثقافة الجديدة، العدد 339، السنة 2010، ص 74.

الاقتصاد الريعي وتحدي التنمية: حالة جنوب السودان

أديسون جوزيف قرنق
كاتب من دولة جنوب السودان

في المفهوم

يسود جدلٌ في الأوساط الأكاديمية حول تعريف الاقتصاد الريعي ومدى انطباق هذا المفهوم على الواقع العياني في الدول المنتجة للنفط، التي تصدّر المواد الطبيعية وتستورد السلع المصنّعة. ويتمحور هذا الجدل حول ما إذا كان الريع يقتصر على إنتاج الثروة النفطية فقط، أم يشمل أيضًا طريقة توزيع هذه الثروة.

ويشير الطابع الوصفي للوقائع إلى أن الثروة النفطية التي تنتجها الأرض تُعد ملكًا للأمة، وتمارس الحكومة المركزية حق إدارتها. وفي هذا السياق، تدفع الدولة أجورًا أو تعويضات للشركات العاملة في قطاع النفط مقابل استخراج الموارد الطبيعية.

ووفقًا للقاموس الاقتصادي الفلسفي، الريع كمفهوم يعني إيرادًا دون سعي أو عمل. أما في المفهوم الاقتصادي الكلاسيكي، فإن الريع هو التصريف الاقتصادي لحق أو لاحتكار الملكية أو لاستثمار مورد اقتصادي معين. والريع بمفهومه الواسع ينصرف إلى كافة أشكال الدخول الراجعة إلى هبات الطبيعة كالمناجم والمعادن والنفط. إنه الدخل المتأتي بانتظام عن الرأسمال والأرض والأملاك، وغير المرتبط بعمل صاحبه. وفضلاً عن الريع الأرضي، تُطلق كلمة الريع أيضًا على الدخل الناجم عن الفوائد التي ينالها أصحاب الرساميل النقدية أو حاملو الأوراق المالية ذات السعر الثابت[1].

بناءً على ذلك، يُستخدم مفهوم الاقتصاد الريعي بوصفه مرادفًا للاقتصاد غير المنتج، القائم على استيراد وتداول السلع بدلًا من إنتاجها، حيث تشكّل الإيرادات المتأتية من بيع النفط - بوصفه أحد أبرز أشكال الريع - الجزء الأكبر من دخل الدولة، وذلك على خلاف الدول التي تعتمد على الزراعة والصناعة والضرائب.

جذر المشكلة

يُعدّ مسرح الاقتصاد العالمي والعوامل المتحكمة فيه - وبخاصة الاحتياجات

الاقتصادية للقوى الإمبريالية - من أبرز المحددات التي أسهمت في انتشار النمط الريعي للنمو الاقتصادي في عدد من بلدان العالم، وذلك من خلال عدة مؤشرات.

فقد برز ما يُعرف برأسمالية الريع، التي تعتمد في تراكم الثروة على النشاط المالي، من خلال تصدير رؤوس الأموال وتقديم القروض الدولية، ثم المضاربة في الأسهم والسندات كمصدر لتحقيق الأرباح، بصرف النظر عن زيادة الإنتاج الحقيقي في الاقتصاد المتقدم. كما يشمل ذلك التوسع في تملك الأصول الثابتة، مثل العقارات، عبر المضاربة في أسعارها. وقد أدى ذلك إلى تغليب منطق الربح السريع، مقارنة بالطريقة التقليدية لتراكم الثروة في الرأسمالية الكلاسيكية، التي كانت تقوم على اكتمال دورة الإنتاج لتحقيق الأرباح.

إلى جانب ذلك، شهد العالم توسع نمط الإمبريالية الاستخراجية، التي تُعرَّف بأنها سيطرة الأنشطة الاستخراجية المعتمدة على استخراج الموارد الطبيعية - مثل الذهب والبترول - من باطن الأرض[2]. وقد أسهم هذا النمط في إخضاع اقتصاديات دول الجنوب لاحتياجات الدول الرأسمالية المتقدمة، التي تعتمد على التكنولوجيا المتطورة، ما أدى إلى تحول طلبها من المواد الخام التقليدية إلى موارد استراتيجية مثل النفط والذهب واليورانيوم والنحاس.

وشكّل هذا التحول الأساس المادي لانتشار الاقتصاد الريعي في دول الجنوب، حيث أصبحت هذه الدول موجّهة لتلبية احتياجات السوق الخارجية من الموارد الطبيعية، وهو ما كرّس واقع التبعية عبر تقسيم دولي غير متكافئ للعمل والتجارة الخارجية.

جنوب السودان في فخ الريع

تُظهر اتجاهات الرأسمالية العالمية نحو الربح السريع - خاصة عبر الطابع الاستخراجي والرأسمالية المالية - الظروف الموضوعية التي وُلدت فيها دولة جنوب السودان عام 2011، عقب الاستفتاء الذي أسفر عن استقلالها عن السودان. فقد تراجع الاهتمام بالطابع الإنتاجي لصالح أنماط تراكم الثروة القائمة على استخراج الموارد والمضاربة المالية.

كان نفط جنوب السودان يشكّل الجزء الأكبر من إنتاج النفط في السودان قبل الانفصال، حيث بدأ الإنتاج التجاري عام 1999 بنحو 150 ألف برميل يوميًا. وقد أسهمت عائدات النفط في زيادة إيرادات الحكومة السودانية، ما أدى إلى تحول طبيعة الاقتصاد من الاعتماد على تصدير المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية إلى الاعتماد شبه الكامل على النفط، وانعكس ذلك في أولويات الإنفاق العام.

ورثت النخبة الحاكمة في جنوب السودان، ممثلة في الحركة الشعبية لتحرير السودان، هذا النموذج الريعي، وراهنت على عائدات النفط لإحداث تحول تنموي سريع، مستندة إلى الأرقام الكبيرة لتأثير النفط على الاقتصاد. غير أن هذا الرهان جاء في سياق تاريخي معقد، حيث كانت عملية الانفصال نتيجة صراع طويل حول معالجة ما عرف في الادبيات السياسية السودانية بمشكلة الجنوب ذات الطبيعة المترابطة مع عوامل عدة تتعلق بالاضطهاد القومي للمجتمعات من جنوب السودان على أساس مادي، تتمثل في حرمان الجنوب من نظام سياسي يدير شؤونه ونظام اقتصادي يجعل الجنوب خارج

دائرة التنمية وحصوله على ادنى مستوى من خدمات التعليم والصحة واستخدام موارده لتنمية الإقليم، ما ينعكس على الإطار الثقافي عبر روح التعالي القومي والقهر تجاه ثقافاته المختلفة من باقي السودان.

وبموجب اتفاقية نيفاشا لعام 2005، التي أنهت الحرب الأهلية ووضعت ترتيبات الحكم الانتقالي، تم تقاسم عائدات النفط بنسبة 50% بين الحكومة المركزية في الخرطوم وحكومة جنوب السودان. وخلال الفترة الانتقالية، قُدّرت إيرادات حكومة الجنوب من النفط بين 4 و5 مليارات دولار سنويًا[3]، ما رفع سقف التوقعات بإمكانية تحقيق نقلة تنموية سريعة في إقليم عانى طويلًا من ضعف التنمية.

إلا أن الاعتماد المفرط على النفط أثّر سلبًا على بنية الاقتصاد. فقد افترضت القيادة السياسية أن عائدات النفط كافية لتسيير شؤون الدولة، دون إيلاء اهتمام كافٍ لتطوير الزراعة أو الصناعة، رغم توافر موارد طبيعية وأراضٍ خصبة. كما لم تُبذل جهود كافية للاستثمار في رأس المال البشري أو بناء طبقة وسطى قادرة على دعم قاعدة ضريبية مستدامة.

وأدى هذا المسار إلى الوقوع في «فخ الريع»، حيث تراجعت أنماط الإنتاج التقليدية القائمة على الزراعة والرعي، لصالح اقتصاد حضري يعتمد على قطاع الخدمات والوظائف الحكومية. كما شجّعت السياسات العامة على أنشطة الربح السريع، مثل المضاربة في السلع والخدمات، لتلبية الاحتياجات الأساسية عبر الاستيراد.

وفي هذا السياق، أُطلق برنامج العطاءات بهدف خلق «رأسمالية وطنية» تقود عملية البناء الاقتصادي، من خلال تمويل رجال الأعمال لاستيراد السلع وتقديم الخدمات. غير أن هذا التوجه عزّز الطابع الريعي بدلًا من بناء قاعدة إنتاجية حقيقية.

تشير البيانات إلى هيمنة قطاع النفط على الاقتصاد بعد الاستقلال؛ والتي شكّلت حوالي 98 % من إيرادات الحكومة الجديدة. وفي عام 2011، بلغ الإنتاج نحو 360 ألف برميل يوميًا، وحققت البلاد ما يقارب 7.3 مليار دولار من عائدات النفط بين الاستقلال ونهاية عام 2014[4]. لكن هذا الاعتماد المفرط كشف هشاشة الاقتصاد، خاصة مع اندلاع الصراع في 2014، الذي خفّض الإنتاج إلى نحو 50 % من مستوياته السابقة، بالتزامن مع انخفاض أسعار النفط عالميًا.

وتشير تقارير وزارة البترول والتعدين إلى انخفاض إنتاج النفط إلى 50 % من مستوياته قبل الصراع في عام 2014، قبل أن يرتفع إلى 169 ألف برميل يوميًا، أي 70 % من مستويات ما قبل الصراع، بنهاية العام. وفي الوقت نفسه، انخفضت أسعار النفط في الأسواق الدولية بنسبة 60 % منذ يونيو/ حزيران 2014. ولا يمتلك جنوب السودان آلية استقرار تحميه من تقلبات الأسواق الدولية، وقد كان لانخفاض أسعار النفط أثر مدمر على الاقتصاد[5].

وفي ظل غياب آليات للاستقرار الاقتصادي، كان لهذه الصدمات أثر بالغ على الاقتصاد، ما يؤكد أن اقتصاد جنوب السودان يُجسّد نموذج الدولة الريعية، حيث تهيمن عائدات الموارد الطبيعية على الإيرادات العامة، ويعتمد النشاط الاقتصادي بدرجة كبيرة على الخارج، بينما تتحكم آليات الإنفاق العام في توجيه الاقتصاد، بدلًا من قيامه على علاقات إنتاجية متماسكة.

الريع وقضايا التنمية في جنوب السودان

بعد تأسيس دولة جنوب السودان، وجدت قيادات الحركة الشعبية لتحرير السودان نفسها أمام تحديات كبيرة تمثّلت في عملية بناء الدولة، عبر اختيار نموذج تنموي يترجم على أرض الواقع الشعارات التي رفعتها خلال سنوات الكفاح المسلح، مثل العدالة والتحرير. وكان المطلوب نموذجًا ينجز مهام البناء الوطني الديمقراطي، ويحقق استقلالاً اقتصاديًا قائمًا على الاكتفاء الذاتي، ويطوّر القوى المنتجة، ويوظّف عائدات النفط في تنشيط القطاعات الإنتاجية، خاصة الزراعة والصناعة، بما يحقق تنمية اجتماعية واقتصادية ويوفّر الخدمات الأساسية من تعليم وصحة وكهرباء ومياه نظيفة، إضافة إلى بنية تحتية تربط مناطق البلاد.

غير أن قراءة الواقع من منظور الاقتصاد السياسي تُظهر أن خيارات السلطة سارت في اتجاه مختلف، يمكن فهمه في إطارين مترابطين: الأول هو الاعتماد شبه الكامل على ريع البترول كمصدر وحيد للدخل بدلًا من تنويع الاقتصاد، والثاني هو تبنّي نموذج اقتصاد السوق الحر، الذي قاد عمليًا إلى نتائج اجتماعية واقتصادية غير متوازنة. فقد أفضى هذا الخيار إلى صعود نزعة فردانية داخل النخبة الحاكمة، ركّزت على الثراء الشخصي بدلًا من بناء اقتصاد يلبي احتياجات المجتمع، كما عمّق التبعية للرأسمالية العالمية ووكلائها الإقليميين.

يقوم الاقتصاد الريعي في جنوب السودان على تصدير النفط بوصفه مادة خام، دون تطوير الصناعات التحويلية المرتبطة به، مثل التكرير وإنتاج المشتقات النفطية. وقد جرى تكييف الاقتصاد لخدمة احتياجات الخارج بدلًا من تلبية الطلب الداخلي، حيث تُعاد تدوير عائدات النفط بما يخدم مصالح النخبة الحاكمة، في مقابل تزويد الدول الصناعية باحتياجاتها من الطاقة والمواد الخام في الاستخدام الصناعي لمشتقات النفط إلى جانب كونه وقودًا في إنتاج الكهرباء، وخصوصًا في المنتجات الوسيطة القائمة على النفط، التي تُستخدم لاحقًا كمواد خام لإنتاج مجموعة واسعة من المنتجات البتروكيماوية من البوليمرات إلى الأسمدة[6].

وفي ضوء خيارات الطبقة المسيطرة سياسيًا واقتصاديًا منذ عام 2005، برزت عدة مظاهر لفشل النموذج التنموي القائم على الريع:

التوزيع غير العادل للثروة

تتركز الثروة في يد طبقة مهيمنة تضم كبار المسؤولين في الدولة، من بيروقراطيين وعسكريين، إضافة إلى شبكات من السماسرة وكبار التجار المرتبطين برأسمالية تجارية طفيلية. وتعتمد هذه الفئة على السيطرة على مؤسسات الدولة للوصول إلى عائدات النفط، دون امتلاك حقيقي لوسائل الإنتاج. كما تعمل على تهريب الفائض الاقتصادي إلى الخارج، عبر ارتباطها بشبكات إقليمية في دول مثل كينيا وأوغندا. وتُعيد هذه الطبقة إنتاج هيمنتها من خلال الإنفاق الريعي على شبكات الولاء ذات الطابع القبلي والسياسي، عبر التوظيف والمنح الدراسية والمساعدات المالية.

في المقابل، تعاني غالبية السكان من أوضاع معيشية صعبة؛ إذ تشير تقارير الأمم المتحدة إلى أن "7.7 مليون شخص يعانون من انعدام الأمن الغذائي الحاد، و2.3 مليون طفل من سوء التغذية، بينما يعيش 92 % من السكان

تحت خط الفقر"[7]، ما يعكس فجوة كبيرة بين الطبقات، خاصة بين الريف والحضر.

تغذية الصراع السياسي

فشل الاقتصاد الريعي في توفير التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وتحقيق التوزيع العادل للثروة، كان سببًا في اشتعال حدة الصراع الاجتماعي بين الطبقات المختلفة، من أجل الوصول إلى مصدر الثروة المتمثل في الريع النفطي وامتلاكه. وقد أخذ هذا الصراع منحىً سياسيًا عبر التنافس على السلطة بالطرق المدنية والعسكرية.

تمثّل الجانب العسكري من هذا الصراع في اندلاع الحرب بين مراكز القوى داخل الحزب الحاكم (الحركة الشعبية) عام 2013، وتجددها مرة أخرى عام 2016، للسيطرة على مركز السلطة السياسية في جوبا، باعتبار أن التحكم في السلطة يتيح الوصول إلى الثروة النفطية. ويشبه ذلك ما حدث في بعض البلدان النفطية التي أسهم النفط في تفجر الصراعات فيها، مثل انغولا وليبيا ونيجيريا

وفي جنوب السودان، شكّل النفط أيضًا حافزًا للصراع السياسي على المستوى المحلي، خاصة في الولايات المنتجة له، حيث ينص القانون على تخصيص نسبة قدرها 2 % من الإنتاج لتلك المناطق. وقد أدى ذلك إلى تنافس النخب السياسية المنتمية لهذه المناطق على المناصب المحلية، بهدف السيطرة على نصيب الإقليم من عائدات النفط.

الاستهلاكية والتبعية

من أسوأ نتائج الاعتماد على ريع النفط إهمالُ القطاعات المنتجة في الزراعة والصناعة، لذا لجأت دولة جنوب السودان إلى الخارج لتلبية احتياجات المواطنين من السلع والخدمات. وبذلك أصبح جنوب السودان دولةً مستهلكة وغير منتجة، حيث تأتي أغلب السلع الأساسية من الخارج، ويُسيطر الاستيراد من دول شرق أفريقيا، مثل أوغندا وكينيا، على النصيب الأكبر من السلع، إلى جانب دولٍ مجاورة أخرى.

أما على صعيد الخدمات، فيعتمد جنوب السودان على نظام المساعدات الدولية لتقديم الخدمات الأساسية، وهو ما يُعد أداةً تكرّس بها الرأسمالية واقع التبعية في بلدان الجنوب، حيث تموّل المنظمات الدولية المشاريع الأساسية في مجالي الصحة والتعليم في مختلف مناطق البلاد.

ومن مفرزات ذلك فقدان مؤسسات الدولة لاستقلالها، إذ أصبحت رهينةً لشروط القوى الخارجية، نتيجة الضعف البنيوي للدولة الناجم عن عدم استكمال الاستقلال السياسي الشكلي بالاستقلال الاقتصادي القائم على السيادة على الموارد الاقتصادية والطبيعية، وإلغاء نفوذ الدول الخارجية على القرار السياسي، تحقيقًا للسيادة الوطنية.

سوء الخدمات الأساسية

تشير التقارير الرسمية والدولية إلى تدهور كبير في الخدمات. فوفقًا لوزارة المالية: "هناك نقص في إمكانية الحصول على مياه شرب آمنة... مما يؤدي إلى انتشار الأمراض وارتفاع معدلات الوفيات"[8]. كما تفيد اليونيسف بأن "أكثر من 2.8 مليون طفل، أي ما يزيد على 70 %، خارج المدارس"[9].. وفي جانب الإنفاق العام: "القطاع الصحي، الذي يُفترض أن يحصل

على 2.5 % من الميزانية، لم يحصل إلا على 0.7 %، والتعليم حصل على 1.5 % بدلًا من 10 %".

كما أن "برنامج النفط مقابل الطرق... لم يُنجز سوى أقل من 5% من الأعمال، مع وجود 1.7 مليار دولار غير مبررة"[10].

أزمة العمالة

الاعتماد على النفط كمصدر أساسي للإيرادات لا يعيق تنمية القطاعات الأخرى في الاقتصاد فحسب، بل يعيق أيضًا تهيئة الظروف اللازمة للتنمية، مثل تنمية العمالة، باعتبارها الحجر الأساس للعملية التنموية في جنوب السودان. فرغم هيمنة النفط على إيرادات الحكومة، فإنه لا يُوظّف سوى نسبة بسيطة ومحدودة من القوى العاملة، إذ يساهم بنسبة ضئيلة نسبيًا في التشغيل. وتشير التقديرات إلى أن 4.8 % فقط من العاملين في الشركات الوطنية العاملة في قطاع النفط هم من الموظفين الإداريين والفنيين والعمال[11]. وتحصل الفئة المحدودة العاملة في قطاع النفط على أجور مرتفعة، ما خلق نوعًا من) أرستقراطية العمل).

ونتيجة لاعتماد الاقتصاد على النفط، يتعرض الناتج المحلي لتقلبات حادة بسبب تذبذب أسعار النفط ونوبات الصراع المتكررة، مما يؤدي إلى اختلالات كبيرة في العجز المالي وميزان الحساب الجاري في جنوب السودان، نظرًا لاعتماد غالبية موارد الحكومة على عائدات النفط.

كما يعاني موظفو الخدمة المدنية من عدم انتظام صرف الرواتب، حيث لم يتقاضَ بعضهم أجورهم لأكثر من عام، في حين ينتظر الجنود رواتبهم داخل الثكنات.

تدمير البيئة

النشاط الاستخراجي بشكل عام، والنفط بشكل خاص، يقوم على التعدي على البيئة ويُنتج نمطًا إنتاجيا يضرّ بالبيئة ويؤثر سلبا على المجتمعات المحلية ومعاشها.

تسبّب إنتاج النفط في جنوب السودان بأضرار بيئية جسيمة وواسعة النطاق، لا سيما في ولايتي الوحدة وأعالي النيل، مما أدى إلى تلوث شديد للمياه والتربة. وقد أدت النفايات المُدارة بشكل سيئ، وتسربات النفط، ومياه الصرف الصحي (المياه المُنتَجة) إلى تلوث مياه الشرب بالمعادن الثقيلة والهيدروكربونات، ما تسبب في تشوهات خلقية ومشاكل جلدية ونفوق الماشية.

كما يؤدي تلوث الهواء الناتج عن حرق الغازات المصاحبة لاستخراج النفط إلى إطلاق كميات كبيرة من الغازات السامة في الغلاف الجوي. وأسهم ذلك في تدمير النظم البيئية، حيث تسبب التلوث في أضرار جسيمة للحياة المائية، وأجبر الحيوانات البرية على مغادرة المنطقة [12].

خلاصة

تؤكد الوقائع المذكورة أعلاه فشل الاعتماد على نموذج الاقتصاد الريعي في إحداث تنمية اجتماعية واقتصادية في دولة جنوب السودان. وتحاول بعض الدراسات الأكاديمية إرجاع أسباب هذا الفشل إلى غياب الشفافية وانتشار الفساد، إلا أن التعمق في التحليل يُظهر أن مظاهر غياب الشفافية هي في الواقع نتائج مباشرة للفشل، وليست أسبابًا له. أي إن هذه الرؤية الأكاديمية تتعامل مع الظواهر بشكل معزول عن سياقها الكلي، على عكس مقاربة الاقتصاد السياسي التي

تنظر إلى الوقائع بصورة شمولية، حيث تكون الأجزاء مترابطة ومتفاعلة فيما بينها. وبالعودة إلى الدراسات التي تتناول إشكاليات اقتصادات الدول الريعية، نجد أنها تتشابه إلى حد كبير مع الوقائع المذكورة في حالة جنوب السودان، غير أن الوضع في جنوب السودان أكثر حدة مقارنة بغيره، لأن العديد من الدول الريعية الأخرى قد مرّت بمرحلة التأسيس ما بعد الاستعمار، حيث لعب القطاع العام دورًا في وضع الأسس الاقتصادية عبر مشاريع تنموية وبنية تحتية. أما في حالة جنوب السودان، فإنه لم يمر بمرحلة تأسيس اقتصادي حقيقي لبناء الدولة، بل اختارت النخبة الحاكمة التوجه نحو النموذج الأسهل قائمًا على الريع النفطي.

ونتيجة لذلك، جاءت النتائج كارثية، حيث يواجه جنوب السودان أزمة اقتصادية حادة، مع تعثر كبير في مشروع بناء الدولة وفشل في تحقيق التنمية.

الهوامش:

1) صالح ياسر، قاموس اقتصادي فلسفي.. الريع، طريق الشعب، 14 اذار/ مارس 2026:
https://www.tareeqashaab.com/index.php/articles/31862-qamws-aqtsady-flsfy-alry

2) بندر نوري، الاقتصاد السياسي للتبعية من الاستعمار القديم الى الإمبريالية الاستخراجية، أروقة للدراسات والترجمة والنشر، القاهرة، 2021، ص: 23

3) بيتر أدوك نيابا، جنوب السودان والحروب الدائمة النخبة الإثنية والدولة المعطوبة، ترجمة: يدجوك اقويت، منشورات ويلوز هاوس، جنوب السودان، ٢٠٢١، ص: ٣٧٢

4) Astrid Haas, The perils of relying on oil as the only resource for development, 4 Apr 2016:
https://www.theigc.org/blogs/perils-relying-oil-only-resource-development

5) Paul Gal Atem, Oil Revenue Management in South Sudan, International Journal of Economic Policy, Vol. 4, Issue No. 4, 2024, pp 73 - 92.

6) أندي هيغينبوتوم، رأسمالية النفط، ترجمة: سري، موقع صفر، 18 تشرين الأول 2024:
https://alsifr.org/crude-capitalism

7) South Sudan: Inside the Oil Ministry's Shadow Economy, African Security Analysis, 17 okt. 2025 23:19:
https://www.africansecurityanalysis.org/updates/south-sudan-inside-the-oil-ministry-s-shadow-economy

8) Ministry of Finance and Planning – South Sudan, Sustainable Development Goals (SDGs) Rescue Plan 2024–2030.

9) https://www.unicef.org/southsudan/what-we-do/education

10) South Sudan: Inside the Oil Ministry's Shadow Economy, African Security Analysis.

11) Labour Market Assessment with Focus on Migrant Workers from the IGAD Region: South Sudan Country Report, 2021, International Labour Organization (ILO)
https://researchrepository.ilo.org/esploro/outputs/report/Labour-market-assessment-with-focus-on/995219133002676

12) XCEPT Research, Why South Sudan's Unity State is Drowning in Pollution:
https://www.xcept-research.org/why-south-sudans-unity-state-is-drowning-in-pollution/

المرأة والزعامة في الخطابين العالم والشعبي

د. ريتا فرج

عرف الإسلام في مراحله التاريخية "الزعماتيّة النسائية"، وقد أرخت المصادر والمدونات التاريخية والفقهية لزعامة المرأة عبر آليات الطمس أو التهميش، خلافاً للخطاب التاريخي الشعبي الذي استحضر هذه التجارب وضخمها - أحياناً كثيرة - كاسراً المعيار الجنسويّ المتحكم في ذهنية النص العالِم.

تدرس الأكاديمية والباحثة التونسية ناجية الوريّمي بوعجيلة في كتابها "زعامة المرأة في الإسلام المبكّر بين الخطاب العالِم والخطاب الشعبي" (دار الجنوب، تونس، الطبعة الأولى، 2016) حضور الزعامة النسائية في الثقافة الرسمية والتدوين الشعبي، حيث تناولت أدوار الزعيمات في الحرب والقيادة السياسية، استناداً إلى منهجين: تفكيك الآليات التأسيسية والمقارنة بينها وبين التصور الشعبي؛ ومساءلة النصوص العالِمة والشعبية، الساعية إما لاختزال هذا الدور وتقليص حضوره أو لإضفاء المبالغات عليه.

نهضت بمفهوم الزعامة في الخطابات القديمة مصطلحات عديدة أهمها: "زعيم"، "رئيس"، "إمام"، "قائد"، "مقدّم"، و"أمير". هذه المصطلحات، كما تلاحظ أستاذة الحضارة العربية الإسلامية في المعهد العالي للعلوم الإنسانية (جامعة تونس المنار)، تؤدي دوراً نوعياً في الإعراب عن تصور منتج الخطاب لهذه المسألة، فالنظر

في الجهاز المفاهيمي الذي ينبني عليه الخطاب يمثل مدخلاً هاماً من مداخل قراءته وفهم المنظومة الفكرية التي يؤسسها.

الذاكرة الرسمية: التوظيف التاريخي والعزل

تؤسس صاحبة "الاختلاف وسياسة التسامح" عملها حول زعامة المرأة في الإسلام المبكّر على قياس مؤشرات الاختلاف بين الخطابين، أي بين "سلطة النص الرسمي" و"سلطة النص الشعبي". تناولت في الباب الأول صورة المرأة الزعيمة كما رسمها الخطاب التاريخي الرسمي. وذلك من خلال تجارب شهدتها الفترة الإسلامية الأولى، بدءاً بحركات الردّة وصولاً إلى الفتوحات في العهد الأموي، فركزت على شخصيات ثلاث: سجاح بنت الحارث التميمية، وعائشة

بنت أبي بكر، والكاهنة دهيا، باعتبارهن تزعمن حركات ناهضت السلطة الشرعية، وأدخلت أخبارهن اضطراباً على الصورة النمطية لامرأة "الخدور" كما تراها الثقافة العالِمة. ظهرت زعامة سجاح في بني تميم وبني تغلب في سياق حركات الارتداد عن الدين الجديد، وهي حركات ظهرت رداً مباشراً على تفرد قريش بقيادة العرب بعد الرسول. وعلى الرغم من "المرحلة الحرجة" للردّة في تاريخ الدعوة والدولة، التي تعاملت معها "الذاكرة الرسمية" بحذر شديد، يبقى أنها تختزن دلالات تاريخية هامة لجهة التمرد والمناوأة، وسجاح التي تزعمت قومها بما يؤشر على مكانتها فيهم، نظر إليها الخطاب التاريخي الإسلامي كـ "نشاز" نتيجة فاعليتها الاجتماعية من خلال الزعامة، فتم استحضار "الأبعاد الأنثوية الجنسية باعتبارها وصماً للمرأة العورة في تصور منتج الخطاب. فأصبحت سجاح وفق هذا الإخراج: فاشلة عسكرياً، غانمة جنسياً"، وذلك على خلفية التفاوض العسكري بينها وبين مسيلمة بن حبيب. تعتمد الوريمي في مساءلتها للخطابات التاريخية على دراسة ثلاث آليات خطابية: آلية الإضافة، ممثلة في إضافة معطيات مختلفة إلى المعطيات الأصلية المكونة للحدث؛ وآلية التعديل، أي الحفاظ على المعطيات الأصلية للحدث مع تعديلها وفق المطلوب؛ ثم آلية التغييب، وهي السكوت التام أو شبه التام عن الحدث والقائمين به، وفي صدارتهم سجاح (ص 31).

يأتي خطاب الطبري في "تاريخ الأمم والملوك" والذي يمثل مرجعاً أساسياً بالنسبة للمصادر اللاحقة، في قائمة النصوص المستندة إلى "آلية الإضافة" التي تجافي الوقائع التاريخية، إذ عمل في القصة التي يوردها عن سجاح على إبراز ثلاث مراحل: أطوار الحملة العسكرية التي قادتها سجاح في طريقها إلى المدينة، مع التركيز على تفاوضها العسكري مع مسيلمة؛ قصة إغواء مسيلمة لسجاح وإيقاعه بها؛ النتائج التي أسفر عنها التفاوض من التزام مسيلمة بدفع مغارم لسجاح وقومها. تنقد الوريمي رواية الطبري عبر قراءة متأنية للوقائع التاريخية، وترى أن قصة الإغواء أُقحِمت في النص وهي من "اختلاق المؤرخ الفقيه"، وتتباين مع المتعارف عليه من عمليات التفاوض العسكري في الحروب القديمة. اتجهت آلية التعديل التي ظهرت في "البدء والتاريخ" للمقدسي و"الفخري في الآداب السلطانية" لابن الطقطقا، و"كشف الغمّة الجامع لأخبار الأمة" لسرحان بن سعيد الأزكوي الإباضي، إلى "تشذيب" الخبر و"تثقيفه" حتى ينسجم وسلم القيم الذي يريد العقل الفقهي فرضه. لقد أهمل المقدسي – كما تلفت الكاتبة - الحديث عن تحركات سجاح العسكرية، ولم يركز إلاّ في جانب واحد مداره صورة الأنثى وانصياعها للذكر. وصور لقائها بمسيلمة في صورة لقاء سلمي جرى في مستقر الأحوال، وليس في حالة حرب أعلنتها هذه الزعيمة. وحوارها معه لم يتجاوز المسائل الجنسية (ص 42). همشت نصوص البلاذري واليعقوبي وخليفة بن خيّاط وابن الجوزي هذا الحدث بأطواره وفواعله، إما عن طريق الإيجاز المخلّ، أو عن طريق السكوت التام؛ ففي "تاريخ خليفة بن خياط" أسقط الخبر تماماً في تاريخه، فقد تعرض للردّة وحروبها وأهمل تماماً ذكر حركة سجاح" "المرأة

المرتدة" الباحثة عن زعامة لقبيلتها بين القبائل المتناحرة في هذه الحقبة المفصلية من تاريخ الإسلام المبكر.

تعامل الخطاب التاريخي الرسمي مع حركة عائشة بسبب دخولها في الصراع السياسي الدائر بين عثمان بن عفان وأنصاره وعلي بن أبي طالب وأنصاره ضمن ثلاث استراتيجيات: الأول، التبرئة من "إثم" الخروج؛ الثانية، ممارسة النقد غير المباشر عن طريق التوظيف الرمزي "للجمل"؛ والثالثة، ممارسة النقد المباشر لزعامة المرأة وإن كانت زوج الرسول (ص 52). تحاجج الوريمي المدونات التاريخية والفقهية الرسمية التي سجلت قراءات مختلفة حول موقع "أم المؤمنين" و"حبيبة الرسول" في "حرب الجمل". لقد "جاءت تفاصيل الدور المنسوب إليها خالية من أفعال الزعامة، فهي لا تمضي الاتفاقات باسمها، بل كانت تمضَى باسم الرجلين معها طلحة والزبير، كما يثبته نص الاتفاق التالي الذي أمضى عندما قدموا إلى البصرة ووقع خلاف بين البصريين أنفسهم: "هذا ما اصطلح عليه طلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين، وعثمان بن حنيف ومن معه من المؤمنين والمسلمين". إذن، إن عائشة وفق هذا التصور لم تتزعم حركة التمرد، ولم تساهم في إشعال فتيل الفتنة، بل هي إما مكتفية بالقول دون الفعل في الحرب، أو هي ساعية إلى الصلح. فلا أثر "لتهمة الزعامة" التي نسبت إليها" (ص 55). أعادتنا آلية التهميش في الخطاب التاريخي الرسمي لحركة عائشة "المرأة الزعيمة"، "امرأة الظهور" إلى التحليل الذي قدمه المؤرخ التونسي هشام جعيط في "الفتنة"؛ لم يستمد الانشقاق السياسي/ السلطوي في الإسلام، نفوذه من مطلب عائشة فحسب، لكن أهمية هذه الواقعة التاريخية تتمثل في تحويل "تحرك عائشة" إلى معركة تُقاد حول هودج زوج النبي، فيغدو الرمز أكثر إثارة: رمز المرأة، السلبية، المحجَّبة عن الأنظار، التي لا تحارب بل تجري الحرب والموت لأجلها. فهي زوج النبي، عرضه الذي يجب الذود عنه وصونه، رمزياً في الحقيقة، نظراً لأنه لم يكن في الوارد إذلالها ولا تلويث شرفها". أثارت زعامة الكاهنة دهيا "ملكة البربر" المرأة غير المسلمة وغير العربية الآليات الخطابية غير الخاضعة لأية رقابة. هذه المرأة الزعيمة التي حاربت وقومها الجيوش العربية، عدّها الخطاب التاريخي كشخصية نسائية شاذة، ناظراً إليها من زاوية أقل سلبية حين يعتبرها "أماً" مفيدة للمسلمين بفضل أولادها الذكور "الأبطال الذين أسلموا بنصيحة منها، فكانوا عوناً للإسلام والمسلمين حسب تصور المؤرخ المسلم". (ص 85). وبعيداً من تفاصيل الأحداث التاريخية المتمركزة حول العمل العسكري، تعاطى "المؤرخ الرسمي" مع فرادة هذه المرأة ومآثرها بنمط سلبي/ إقصائي لاسيما حين يؤرخ لنشاطها السياسي، متهماً إياها بالتعسف واتخاذ القرارات الهوجاء.

الزعامة النسائية: الإقصاء الاصطلاحي والخطاب العمراني

تعمد صاحبة "الإسلام الخارجي" إلى تحليل العوامل التي دفعت الخطاب التاريخي العالِم لعدم استعمال المصطلحات الخاصة بفعل التزعم في تجارب الزعامة التاريخية التي درستها. وتلفت إلى أن النصوص

التي استندت إليها لم تورد ولو لمرة واحدة مصطلحات مثل "الزعيمة" أو "الرئيسة" أو "القائدة" أو غيرها. فهي تتحدث عن سجاح أو عائشة أو الكاهنة دهيا دون الإشارة إلى التعيين الوظيفي، أي دون تسمية أو وصف يحيل عليها. (ص 95). تستعين الوريمي بنماذج نصية عديدة حددت فيها أسباب الإقصاء الاصطلاحي الذي قام به المؤرخ العالِم، ومن بين هؤلاء العلماء الطبري وابن الأثير وسيف بن عمر. لم يرتبط هذا التغييب بالحقبة المبكّرة: "والجدير بالملاحظة أن ثبات المؤرخ على عدم استعمال الزعامة في حديثه عن قيادات نسائية، لم يقتصر على هذه الحالات المبكّرة من التاريخ الإسلامي، بل انسحب أيضاً – وبشكل غريب - على تجارب الملكات اللاتي اشتهر أمرهن بعد ذلك، ومارسن السلطة من أعلى هرمها وهو الملك. في مقدمة هؤلاء السيدة أروى الصليحيّة (444 - 532 هـ) ملكة اليمن لمدة طويلة. فالمصادر القليلة التي تحدثت عنها ثبتت على عدم استعمال أي اسم وظيفي في الحديث عنها" (ص 88).

ما هو موقع المرأة في الخطاب العمراني الذي أسس له ابن خلدون؟ تشير الوريمي إلى أن المعجم الخلدوني استخدم عبارات "الرجولية" و"الرجولة" و"الرجالات" في سياق حديثه عن قيمتي البأس والشجاعة. فهو يربط بين استفحال الترف في المدينة، وحصول الجبن والكسل لدى سكان الحاضرة "بما يعانونه من خنث الحضارة المؤدي إلى الانسلاخ من شعار البأس والرجولة". لقد استعمل في هذا الربط سجلاً جنسياً طرفاه "الرجولية" من ناحية، و"الخنث" من ناحية ثانية. و"الخنث صفة من ينحرف عن الذكورة ويكتسب من الأنوثة خصائص" (ص 112). بعد تعقبها الدلالي لمصطلحات الرجولة في مدونة ابن خلدون تتناول الكاتبة الطريقة التي شكل بها ابن خلدون أخباره السياسية ذات العلاقة بالمرأة، ومن بين الملاحظات التي تسجلها، حضور معاني الإدانة والاتهام بالتسبب في الضعف و"ضياع الأمر" في تجارب في الحكم كان للمرأة فيها أدوار متفاوتة الأهمية. ورد في "تاريخ ابن خلدون": لمّا ضعف أمر الخليفة العباسي المقتدر وخُلع، جُعل أحد أتباعه يعاتبه قائلاً: "كنت أخشى عليك مثل هذا ونصحتك، فلم تقبل وآثرت قول الخدم والنساء على قولي".

المرأة في الخطاب التاريخي الشعبي: فتوح الواقدي

اغتنت فتوح الواقدي أو التاريخ الكبير (فتوح الشام، فتوح مصر والإسكندرية، فتوح الجزيرة والخابور وديار بكر والعراق، فتوح إفريقية) بالكتابة عن التجارب النسائية (العسكرية والسياسية). وقد تميز هذا النوع من التأريخ الشعبي بخصائص المنهج التجريبي في الحصول على المعلومة. تسجل الوريمي على هذا المنهج "مزيتين": الأولى، الانتباه إلى قنوات تُتناقل عبرها المعلومة التاريخية، هي غير القنوات الرسمية "المقننة" بإخضاع سلسلة الرواة لمعايير محددة في التعديل والتجريح. أي بحث الواقدي عن الاتصال المباشر برواة لهم بالحادثة علاقة ما عملية أو تجريبية، وليس مجرد علاقة احترافية. والثانية، في المنهج الذي تفرد به الواقدي، ويتمثل في فتح جسور التواصل مع الثقافة الشعبية وغير المحترفة ويرفعها إلى درجة الاعتراف بها علمياً.

ترتكز صاحبة "في الائتلاف والاختلاف: ثنائية السائد والمهمش في الفكر الإسلامي القديم" بشكل أساسي على "فتوح الشام" في استجلائها لعلاقة المرأة بالزعامة في مجتمع عصر الفتوحات، مع مراعاة تهذيب الإفراط في تضخيم هذه الزعامة في الذاكرة الشعبية، التي تفضل تعظيم دور المرأة على نقيض من الثقافة الرسمية العالِمة المقيدة والضابطة للحضور الأنثوي في المجالين السياسي والعسكري. تبحث الوريمي في كيفية تقديم خطاب الفتوح لبطولة المرأة، وفي مقدمة هؤلاء "النسوة البطلات" المرأة العربية المسلمة "خولة بنت الأزور"، التي خصص لها الواقدي مساحات نصية هامة في حديثه عن دورها في الحملة العسكرية التي أرسلها أبو بكر إلى الشام.

أضفيت على المشاركة الفاعلة للنساء في الفتوح هالة من التبجيل اتضحت من خلال الخطاب الفروسي الذي عكس صورة "المرأة البطلة النموذجية" المحتفية بدورها الحربي وانتصاراتها واندفاعاتها. لقد "حفل كتاب فتوح الشام بذكر مساهمات عديدة لنساء بطلات في حرب اليرموك مثل: أسماء بنت أبي بكر زوجة الزبير بن العوّام، وخولة بنت الأزور، ونسيبة بنت كعبة، وأم أبان زوجة عكرمة بن أبي جهل وعزة بنت عامر بن عاصم الضمري ورملة بنت طليحة الزبيري ورعلة وأمامة وزينب وهند ويعمر ولبنى وأمثالهن رضي الله عنهن، فلقد كنّ يقاتلن قتالاً يرضي به الله ورسوله" (ص 140). في المقابل تأرجح رد الخطاب العالِم عند الطبري وابن كثير وابن الجوزي على دور المرأة في الفتوح بين منهجين: السكوت، وقصره على ما هو مسموح به من مشاركتها وهو تقديم الخدمات للمقاتلين، ليس أكثر.

تخرج الوريمي بخلاصتين: الأولى، حرص الخطاب التاريخي الرسمي على مصادرة التجارب الزعامتيّة النسائية، حجباً وتشويهاً؛ والثانية، رؤية الخطاب الشعبي لزعامة المرأة من زاوية الإعجاب والاحتفاظ به في الذاكرة الجمعية، وإعادة إنتاجه ما أمكن.

اجتهد الخطاب العالِم في تهميش الدور الريادي والقيادي للمرأة المسلمة والعربية. يستمد هذا التهميش مقوماته وإنتاجه النصي من الخلفية الذكورية/ البطريركية التي تنظر إلى الأنثوي كفاعل سلبي، يرمز إلى الفتنة وثقافة العورة، ولذا عمل على حصر السلطة السياسية بالرجال ومنعها عن النساء تحت ذرائع اجتماعية وجنسوية طاول تأثيرها النصوص الفقهية السنية والشيعية والإباضية، خصوصاً ما يتعلق بالإمامة ورئاسة الدولة. على الجانب الآخر حافظ الخطاب الشعبي على الصور القيادية للمرأة المستمدة من الواقع، وإن أفرط في تقديسه أو تبجيله، ما يؤشر على الأهمية المعطاة للزعامة النسائية في المتخيل الشعبي، الأكثر التصاقاً بالأنثوي القيادي الغائر في التاريخ.

نصوص قديمة

وثائق من وزارة الخارجية البريطانية
عن الرفيق فهد تنشر للمرة الاولى*

في الذكرى الثمانين لميلاد الرفيق فهد، تنشر "الثقافة الجديدة" للمرة الأولى هذه الوثائق من وزارة الخارجية البريطانية، والتي تبين مدى تغلغل النفوذ البريطاني في العراق، بحيث لم يتحرج المحامي البريطاني الشهير، عضو البرلمان د.ن. بريت من أن يثبت في رسالة موجهة الى شخصية رسمية.

"ما من أحد يصدق اننا لا ندير العراق".

كما تبين هذه الوثائق، وهي غيض من فيض، أصداء الاستنكار العميق الذي أثاره الحكم على الرفيق فهد، ثم تنفيذ حكم الاعدام.

من بغداد الى وزارة الخارجية
السر هـ. ستونهيور بيرد
رقم 18، حفظ.
27 حزيران 1947
11,45 صباحاً، 10 حزيران 1947
مكررة الى:
ب.م.ي.و. القاهرة رقم 28
بيروت رقم 30
دمشق رقم 33
موسكو رقم 3
طهران رقم 34
محدود
برقيتي المرقمة 27، فقرة 3

1 - صدر الحكم على يوسف سلمان ورفاقه، في 24 حزيران.

2 - حكم على يوسف نفسه واثنين آخرين بالاعدام، وحكم على اربعة متهمين بالسجن 15 عاماً وعلى تسعة بالحبس الشديد أربعة أعوام، وحكم على متهمتين بالسجن 11 شهراً مع وقف التنفيذ، وصدر الحكم ببراءة المتهمين السبعة عشر المتبقين. صدرت جميع الاحكام بموجب المادة 89 أ – من قانون العقوبات البغدادي. وهذه المادة قانون الحاقي أضيف الى قانون العقوبات البغدادي في عام 1938 وهو موجه ضد نشر الشيوعية.

3 - بعلمي ان قاضياً قد نقل خصيصاً الى بغداد من الحلة للاستماع الى هذه القضية، ولا شك في انه قد تم اطلاعه بالشكل المناسب.

4 - ثمة تقرير كامل قيد الإعداد عن هذه المحاكمة ومحاكمات الشيوعيين الاخرى الجارية الان.

(أرسلت نسخة الى سكرتارية الشرق الأوسط)

3 تموز 1947
السكرتير
وزارة الخارجية
وايت هول – لندن
سيدي العزيز،
أرفق طياً نسخة من الاحتجاج الذي ارسل اليوم الى البعثة العراقية في لندن.
اذكر كل الضجة التي أثيرت حول هذا البلد الذي يبدو متخلفاً بعض الشيء اذا ما أدرك المرء انهم للتخلص حكم عليهم بالموت فإن الكاثوليكية لا تبسط سيادتها الآن بل ان اناساً يحملون معتقدات اخرى، اعتنقوا اديانا من فكرة ما يفعلون ما كان يفعله الاوربيون للحفاظ على الدين الكاثوليكي وتفادي ''الاصلاح'' ومع ذلك وعلى الرغم من كل الذين اخرى.
انني شديدة الحزن لأن أقرأ مثل هذه الانباء المروعة عن اسبانيا والعراق واليونان وأشعر ان على حكومة الشعب البريطاني ان ترسل احتجاجاً رسمياً. وغرض هذه الرسالة هو التوسل اليكم ان تفعلوا ذلك.
مع جزيل الشكر
الانسة أ.بروكفيلد

رسالة من النائب د.ن.بريت الى ماكنيل
18 تموز 1947
عزيزي ماكنيل،
بالاشارة الى محاكمة الشيوعيين العراقيين الثلاثة الذين حكم عليهم بالاعدام وأوقف تنفيذ الحكم فيهم مؤخراً، اتيحت لي الآن فرصة قراءة الملاحظات الكاملة لمحاكمتهم (واني استعمل كلمة ''محاكمة'' من باب اللياقة). من الواضح تماماً انهم أدينوا وحكم عليهم بالاعدام لسبب واحد لا غير هو انهم كانوا في الحزب الشيوعي. واذا استمر هذا النوع من الاشياء فإن الامر التالي سيكون، بالطبع، معاملة الناس على هذا النحو بسبب عضويتهم في حزب اشتراكي ديمقراطي مكان ما.
واحسب في الحقيقة ـ وان توجب على المرء ان لا يقول ذلك وعليك ان تنفيه ان قاله أحد ـ ان تخفيف احكامهم مؤخراً من الاعدام الى أحكام طويلة من السجن، كان يعود جزئياً الى استفسار طرحته في مجلس العموم وجزئياً الى تلميح من السفير الى الوصي.
ولا يزال هناك، بالطبع، الكثير من الغضب والتوجس حول الأمر كله، وسيزيده الى حد كبير نشر الادلة.
هل تعتقد ان بوسعك عمل شيء ما بهدوء، إما لإلغاء احكامهم او تخفيضها الى فترة اسمية. فالامر كله يرتد على هذا البلد في اوساط الرأي العام العالمي لأنه ما من أحد يصدق اننا لا ندير العراق.
بريت

رسالة من القسم الخاص بشؤون الشرق
في وزارة الخارجية البريطانية
الى السفارة البريطانية في بغداد
وزارة الخارجية
8 شباط 1949
محدود
السفير العزيز
تتذكرون ان محاكمة يوسف سلمان يوسف ورفاقه الشيوعيين والحكم عليهم بالاعدام كان قد أثار اهتماماً واسعاً في هذا البلد عام 1947. وبخاصة، حسبما أشارت برقيتنا المرقمة 361 والمؤرخة في 15 تموز1947، كان السيد د.بريت، نائب البرلمان، شديد القلق وكانت لنا معه مراسلة طويلة حول موضوع هذه الاعتقالات واعتقال كامل قزانجي.
كتب السيد بريت الآن يقول انه علم ان من المقرر اعادة محاكمة يوسف سلمان يوسف وزكي بسيم وحسين محمد الشبيبي على ادعاءات بأنهم دعوا الى انتفاضة مسلحة من سجنهم في الكوت ويسأل ما إذا كان بوسعنا ان نتدخل ثانية لطرفهم وتزويده بأية معلومات لاحقة.
وبالرغم من اطلاعنا على تقرير مفاده بأن السجن، كما يبدو، لم يمنع فهد من مواصلة نشاطاته الشيوعية فإننا لا نستطيع ان نجد ما يجعلنا نقول ان من المقرر اعادة محاكمته، وسيكون من دواعي سرورنا ان نعرف ما اذا كان هذا صحيحاً وفي هذه الحالة ما اذا كان من المرجح ان تكون النتيجة أخطر من المرة السابقة.
قسم شؤون الشرق

وزارة الخارجية
14شباط 1949
عزيزتي السكرتيرة الخاصة
تلقى وزير الدولة رسالة السيد بريت المؤرخة في 31 كانون الثاني. لا تتوفر معلومات دقيقة في وزارة الخارجية عن موضوع اعادة محاكمة الشيوعيين المعتقلين في العراق. لذلك طلبنا من سفارتنا في بغداد ابلاغنا وسيجيب السيد مكميل عن رسالة السيد بريت في حال ان نحصل في الاجابة.
السكرتيرة الخاصة

رسالة من وزير الدولة الى النائب هـ .ل. أوستن
18/2/1949
نشكركم على رسالتكم المرقمة... والمؤرخة في 21 شباط عن اعدام الشيوعيين العراقيين، يبدو ان مراسليكم الآنسة كونروي واصدقاءها أحسن مني اطلاعاً على الموضوع، لأنني رغم ما أبلغني به سفير صاحب الجلالة في بغداد من انه قد تم اعدام أربعة رجال، ليست لدي معلومات تشير الى وجود 160 آخرين رهن الاعتقال ممن يلاقون نفس المصير. يضاف الى ذلك انه بسبب السرية التي جرت فيها محاكمة الرجال الاربعة والرقابة الشديدة في العراق، فإنه ليس من السهل الحصول على تأكيد لما يحدث، وسفيرنا لم يبلغ بالمحاكمة أو الأحكام وانما لدي من معلومات ليست معلومات رسمية.
يبدو ان الرجال الأربعة ادينوا بموجب المادة 89 أ من قانون العقوبات البغدادي، التي تحكم بالاعدام على نشر الشيوعية بين افراد القوات المسلحة. وفي هذه الظروف فإن من المرجح ان السلطات ما كانت ستعير اهتماماً يذكر لأي شيء نقوله لهم. وسأفعل ما بوسعي للحث على ان لا تكون هناك اعدامات اخرى لكني، بالطبع، لست مؤهلاً للتدخل، ولا استطيع القول ما اذا سيكون لوساطتي أي أثر.

برقية
من السير هنري ماك سفير صاحب الجلالة بغداد
الى وزارة الخارجية، لندن
22 شباط 1949
خاص
برقيتي المرقمة 150: اعتقالات بين الشيوعيين
اعتقل البوليس مزيداً من الشيوعيين في 18 الى 20 شباط.
ويزعم ان من بينهم ثلاثة أعضاء في اللجنة الجديدة للحزب وضبطت مطبعة وعدد من الوثائق.

برقية الى وزارة الخارجية – لندن
1949 /24/2
الجمعية الاشتراكية في مانشستر تدين بشدة المعاملة التي يلقاها الطلبة التقدميون والقادة السياسيون في الاسابيع الأخيرة، نطلب من حكومة صاحب الجلالة ان تحث الحكومة العراقية على احترام الحقوق الانسانية لهؤلاء المعنيين.

(تتصف هذه البرقية بسرية خاصة وعلى المتلقي
المخول أن يحتفظ بها ولا يتناقلها)
توزيع دبلوماسي من بغداد الى وزارة الخارجية
السير هـ.ماك
213
8آذار 1949
سري
موجهة الى وزارة الخارجية، برقية رقم 213 مؤرخة في 8 آذار، مكررة للاطلاع..
برقيتكم المرقمة 214: إعدامات
1) تحدثت بناءً على ذلك الى رئيس الوزراء، وأوضحت بأني لم أكن أحتج على ما جرى وذكرته بأن عملي الوحيد فيما يتعلق بالاعدامات الأربعة في بغداد كان الحث على أن تتوقف الممارسة البربرية بتعليق الجثث في الساحات العامة، وحول هذه النقطة قال رئيس الوزراء انه عمل بموجب قانون 1921 والذي وافق عليه السير هـ.دوبس.
2) فيما يتعلق بالمستقبل قال نوري باشا انه بانتظار نتيجة التحقيقات اللاحقة التي تجري الآن. فهؤلاء الاشخاص الذين يجري التحقيق في نشاطاتهم هو فوضويون هدفهم تقويض نظام الحكم في البلاد. وسيكون من الخطأ اعتبارهم مجرد شيوعيين. وأعاد الى الأذهان ما حدث في الأعوام 1941،1938،1936 وقال انه مع احتمال اندلاع حرب عالمية ثالثة فإن من الضروري التوثق من أن هؤلاء الفوضويين لن يكون بوسعهم تكرار ما فعلوه في الماضي.
3) سأواصل مراقبة الوضع عن كثب وأعود الى القضية اذا ما سمعت عن التخطيط لمزيد من الاعدامات.
يرجى من وزارة الخارجية نقلها للحفظ في موسكو بشأن برقيتي رقم 4. (مكررة للحفظ في موسكو).
(المقصود بذلك السفارة البريطانية في موسكو - المترجم)

رسالة احتجاج الى بيفن
14 شباط 1950
السيد بيفن
بهلع واستياء أقرأ عن قيام السلطة العراقية بقتل أربعة رجال واعتقال أكثر من 160 آخرين، واطالبكم بالاحتجاج والاصرار على اطلاق سراح السجناء. اننا لا نستطيع اعادة من قتل، ولكنكم تستطيعون العمل من أجل أن لا يسمح باستمرار سفك الدماء هذا الذي لا مبرر له.ان عائلتي وصديقاتي من ربات البيوت يضمّنَّ اصواتهن الى صوتي في هذا الاحتجاج.
الرسالة تحمل تواقيع ثمان مواطنات بريطانيات

من جلسات البرلمان
العراق (أحكام بالاعدام)
74. استفسر السيد بريت من وزير الدولة للشؤون الخارجية ما اذا كان يدرك ان يوسف سلمان وابراهيم ناجي شميل وزكي بسيم قد حكم عليهم بالاعدام في العراق لكونهم أعضاء في الحزب الشيوعي وبسبب نشرهم كراسات تعارض سياسة الحكومة. وما اذا سيقوم بالتدخل لدى الحكومة العراقية من أجل الابقاء على حياتهم واعادة حرية النشاط السياسي.
السيد ميهو: لقد رأيت تقارير صحفية بهذا المعنى، ويبدو الأمر من شأن المحاكم العراقية وليس لدى حكومة صاحب الجلالة مسوغ للتدخل.
السيد بريت: هل يدرك السيد الموقر ان المعلومات التي توفرت منذ طرح هذا الاستفسار تشير الى ان هؤلاء السادة في الحقيقة حكم عليهم بالاعدام لكتابتهم كراسات تؤيد العمل النقابي؟ ولذلك هل سيوعز الى ممثلينا في العراق باجراء حديث غير رسمي مع هذا البلد؟ انه واقع تحت سيطرة جيشنا.
السيد ميهو: ليس لدينا مسوغ للتدخل.
السيد س. سلفرمان: هل يستطيع السيد الموقر ان يفسر كيف يوفق بين هذه الاجابة والاجابة التي اعطاها للتو؟
السيد ميهو: ان المجر عدو سابق، لدينا معها حقوق مثبتة بمعاهدة.
السيد سلفرمان: اذن، هل تقتصر هذه الحقوق المثبتة بمعاهدة على البلدان العدوة سابقاً؟
السيد بيراتين: ان هذه مسألة بالغة الاهمية تتعلق بحياة أو موت أشخاص معينين. فهل يدرك السيد الموقر ان هؤلاء السادة سيعدمون بتهم ما كان هتلر نفسه سيعدم اعضاء الحزب الشيوعي بسببها؟ ألن يتدخل كما استطاع ان يتدخل في عدد من المناسبات، مثلما هو الحال في اسبانيا؟
السيد ميهو: يبدو ان هذه مسألة من شأن العراق. ولا أستطيع الاقرار بمقارنة العراق مع اسبانيا.
السيد كيلنغ: هل يؤكد السيد الموقر أم ينفي قول السيد الموقر والمطلع عضو المجلس عن منطقة نورث همرسمث (السيد بريت) من ان العراق واقع تحت سيطرة جيشنا؟
السيد ميهو: انفيه.

نـــداءات
نحن الموقعين أدناه نطالب بتدخل وزارة الخارجية ضد خرق الحكومة العراقية للديمقراطية باعدامها اربعة رجال واعتقال أكثر من 160 آخرين بسبب المعتقدات السياسية لهؤلاء الرجال.
عدد من التواقيع
(جميع الرسائل المرفقة هي احتجاجات ضد الإعدامات)

الرفيق فهد
والكفاح ضد الصهيونية
"موقف الحكومة (العراقية) تجاه الصهيونية: تدعي الحكومة القائمة انها تناصر عرب فلسطين ضد الصهيونية، لكن الشعب العراقي لا يلمس هذه المناصرة، واختباراته اليومية تبرهن له على ان الحكومة العراقية تمنع الشعب العراقي من مناصرة عرب فلسطين، تمنعه من مكافحة الصهيونية، وبهذا تسهل على الصهاينة وعلى القوى الرجعية – الاستعمارية وغيره – السير بخططهم.. ان الحكومة منعت وتمنع الشعب العراقي من اقامة اجتماع في سبيل فلسطين، انها منعت عصبة مكافحة الصهيونية من اقامة اجتماع في يوم بلفور الاسود، انها احتلت نقابات العمال في ذلك اليوم لكي لا يجتمع العمال فيها، انها منعت التظاهرات في سبيل فلسطين.
.. ان الحكومة العراقية تحاول ان تخفي المسؤولين الحقيقيين عن نكبة شعبنا العربي في فلسطين، تريد ان تستر الاستعمار البريطاني المسؤول الاول، ان تخفي الصهيونية باعتبارها تمثل مصالح الشركات اليهودية الكبرى في بريطانيا وأمريكا، فتظهر اليهود العرب الذين لا صلة تربطهم بالصهيونية الاستعمارية، كأنهم المسؤولون، ان الشعب العراقي يريد من الحكومة القائمة ان تقلل من ادعاءاتها حول مساعدة فلسطين، وان تسمح له بأن يكافح الصهيونية في البلاد العربية نفسها، وان يمنعها من تثبيت أقدامها فيها".
من مذكرة وجهها الرفيق فهد، سكرتير عام الحزب الشيوعي العراقي
بتاريخ 21/11/1945 الى رئيس الدولة العراقية ورؤساء الدول الكبرى الثلاث ورؤساء عدد من الدول العربية.

*** (الثقافة الجديدة)، العدد 132 تموز 1981، ص 58 – 65.**

نصوص مترجمة

ماركس والديمقراطية المباشرة

بقلم: الفريد مولر*
ترجمة: رشيد غويلب

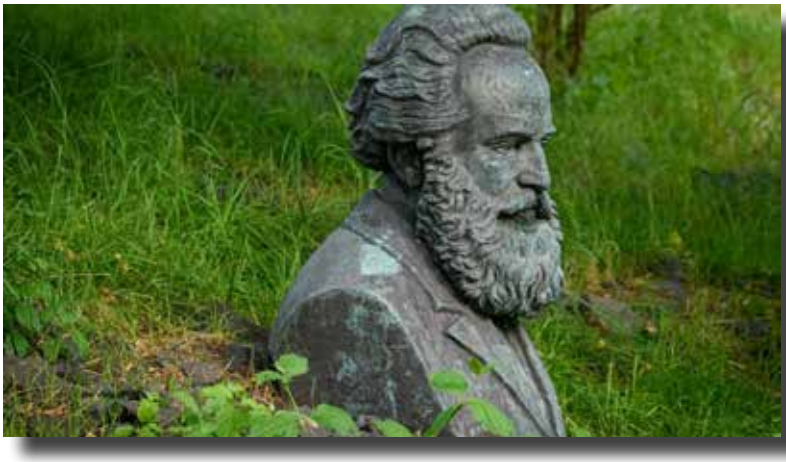

كُتب الكثير عن كارل ماركس، لكن القليل تناول علاقته بالديمقراطية المباشرة والاستراتيجية الناتجة عنها لتجاوز الرأسمالية. وهذا أمرٌ يصعب فهمه، إذ رأى ماركس في كومونة باريس نموذجًا لديكتاتورية البروليتاريا. وطالب الكثير من العمال في عام 1918 وما بعدها بتغيير جذري للنظام: كل السلطة للمجالس (إشارة لمطالبة الانتفاضات العمالية التي حدثت في بلدان اوربية بالشعار أعلاه – المترجم). في هذه المقالة، أحاول عرض بعض أفكار ماركس، وبالتالي توضيح أهمية الديمقراطية المباشرة في فكره وتعامله، ودورها السياسي التوجيهي لليسار.

أسس الديمقراطية عند ماركس

لم يضع كارل ماركس نظرية شاملة للديمقراطية، لكن الديمقراطية المباشرة احتلت مكانة مركزية في كتاباته وسياساته العملية. وكان الأساس التاريخي لمفهومه للديمقراطية، ديمقراطية أثينا القديمة، حيث شارك الشعب الحر مباشرةً في القرارات السياسية الرئيسية. وقد تعرّف على هذا الشكل من الديمقراطية وقيمه من خلال دراساته للفلسفة القديمة، ونقده لنظرية هيغل عن الدولة والديمقراطية، وأطروحته للدكتوراه بعنوان: ”الفرق بين فلسفة ديموقريطس وإبيقور في الطبيعة“، وتقاريره عن الظلم الاجتماعي القائم. حتى في شبابه، كان قلب ماركس ينبض حبًا للفقراء والمعدمين، وللديمقراطية الشعبية، ولتفكيك أنظمة الهيمنة والإقصاء والقمع. وقد شكّل هذا الموقف السياسي الإنساني ”آراءه

الديمقراطية" المبكرة والمتأخرة. (الأعمال الكاملة، المجلد الرابع ص 537).

في نقده لنظرية هيغل عن الدولة والديمقراطية، وتمجيد الملكية، دعا ماركس، وهو في الرابعة والعشرين من عمره، إلى حق الشعب في تقرير مصيره وحكمه الذاتي، وإلى السيادة الشعبية غير القابلة للتجزئة كضامن لحقوق الإنسان. جادل ماركس بأن حق الإنسان هو "وجود الحرية" (الأعمال الكاملة، المجلد الأول ص 115)، وأن الشعور الذاتي للإنسان، أي الحرية، قادرٌ على "جعل المجتمع مرة أخرى جماعة إنسانية تسعى لتحقيق أسمى غاياتها، دولة ديمقراطية" (الأعمال الكاملة، المجلد الأول ص 339). وأكد ماركس الشاب أن الشعب ينبغي أن يكون "الدولة الحقيقية" (الأعمال الكاملة، المجلد الأول ص 229)، وأنه "في الديمقراطية فقط يُظهر الدستور نفسه حق الشعب في تقرير مصيره، كإبداعه الخاص" (الأعمال الكاملة، المجلد الأول ص 231). ودعا ماركس إلى الفكرة المتطورة "للديمقراطية"، والتي اعتبرها "اللغز الذي تم حله لجميع الدساتير" لأنها تعود إلى "الإنسان الحقيقي، الشعب الحقيقي" (المصدر السابق).

ينبغي لأغلبية السكان، أي القاعدة المجتمعية، وليس لأقلية الطبقة الحاكمة، أن توجه وتراقب الدستور والتشريع وسلطة الدولة. وتوضح إنغيبورغ ماوس (أستاذة علوم سياسية ألمانية – المترجم) قائلة: "لن يقرر الشعب استمرار القانون القائم وتعديله بالنسق نفسه، إلا عندما يُعترف بسيادته، أي باعتباره مصدرًا للتشريع"[1].

على أساس مبادئه الديمقراطية، انتقد ماركس مفهوم هيغل الاستبدادي للدولة. كان موقف هيغل مبنيًا على رؤية أن الشكل الوحيد المعقول للحكم هو الملكية، وأن الشعب لا يفهم شيئًا، وأنه غير عقلاني ومتوحش، ولا يقدم إلا على السيئ[2]. لهذا رفض هيغل بشكل قاطع فكرة السيادة الشعبية، وبالتالي الدستور الجمهوري الديمقراطي. أما بالنسبة لماركس الشاب، فقد كان الشعب هو صاحب السيادة. فالأنظمة التعسفية، كالحكم الاستبدادي والملكي، تحتقر الإنسانية وتُعدّ أشكالًا غير إنسانية للحكم. (قارن الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ص 340). وجد ماركس أن نزعة هيغل الاستبدادية "مقززة" (الأعمال الكاملة، المجلد الأول ص 330). والديمقراطية عند ماركس تنطلق من الشعب من خلال "المشاركة المباشرة للجميع في المداولات واتخاذ القرارات بشأن شؤون الدولة العامة" (الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ص 321)، حيث تكون الدولة "شكلًا خاصًا لوجود الشعب"، "حق الشعب في تقرير مصيره" (الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ص 232)، وهو ما ينشئ "وعي الإنسان بذاته، وحريته، ومجتمعًا من الناس، ودولة ديمقراطية" (الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ص 339).

ينص البيان الشيوعي لعام 1848 على: "إن خطوة ثورة العمال الأولى هي الارتقاء بالبروليتاريا إلى طبقة حاكمة، وتحقيق الديمقراطية. ستستخدم البروليتاريا سيطرتها السياسية لانتزاع رأس المال من البرجوازية، على مراحل، لتركيز جميع أدوات الإنتاج في يد الدولة، أي في يد البروليتاريا المنظمة كطبقة حاكمة، ومضاعفة جموع القوى الإنتاجية بأسرع ما يمكن". (الأعمال

الكاملة، المجلد الرابع، ص 481).
وحتى وفاته، كان ماركس ممثلًا ثابتًا للإنسانية والديمقراطية الشعبية، وناضل وفقًا لذلك:

• من أجل إلغاء "جميع الظروف التي يكون فيها الإنسان كائنًا مُهانًا، مُستعبدًا، مهجورًا، ومُحتقرًا" (الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ص 385)،

• من أجل القضاء على الاستغلال، والاستعباد، والقمع (قارن الأعمال الكاملة، المجلد 16، ص 11، 56، جي آر، ص 545، الأعمال الكاملة، المجلد الرابع، ص 181)،

• من أجل التطور الحر لكل فرد كشرط للتطور الحر للجميع (قارن، الأعمال الكاملة، المجلد الرابع، ص 482)،

• من أجل تحرر البشرية، والتنمية الكونية، وتقرير المصير للأفراد، وتحقيق ذواتهم، والتطور الحر للشخصية (قارن، جي آر، ص 58، 231، 387، 505، 599، والصفحات التالية؛ الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ص 356، 361، 390، والصفحات التالية؛ الأعمال الكاملة، المجلد الأربعون، ص 539، والصفحات التالية؛ الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، ص 37)،

• للتغلب على الاغتراب عن الذات، وعن المحيط البشري، وعن المجتمع، وعن الطبيعة، وعن المنتج، وعن عملية الإنتاج (قارن الأعمال الكاملة، المجلد الأربعون، ص 505 وما بعدها، 515، 536، وما بعدها؛ الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ص 233)،

• لتحقيق الحقوق المدنية وحقوق الإنسان (الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ص 311، 362 وما بعدها)،

• من أجل حرية الرأي، وحرية الصحافة، وحرية التجمع، وحرية تكوين الجمعيات، وحرية العمل، وحرية المعتقد والدين (قارن الأعمال الكاملة، المجلد الرابع والثلاثون، ص 316، الأعمال الكاملة، المجلد السادس عشر، ص 75 وما بعدها)،

• من أجل نظام لتجميع المنتجين الأحرار والمتساوين (قارن الأعمال الكاملة، المجلد السادس عشر، ص 195، الأعمال الكاملة، المجلد الرابع، ص 48، 181، 482)،

• من أجل مشاركة الجميع في صنع القرار الديمقراطي (قارن الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ص 321)،

• من أجل إلغاء الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج باعتبارها سببًا للسيطرة الأجنبية والاستغلال والاغتراب وعدم المساواة الاجتماعية (قارن الأعمال الكاملة، المجلد الأربعون، ص 534، 565، وما بعدها 553؛ الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، ص 76؛ الأعمال الكاملة، المجلد الرابع، ص 475)،

• من أجل تحويل ملكية الشركات إلى ملكية جماعية (قارن الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ص 391؛ الأعمال الكاملة، المجلد الثالث والعشرون، ص 789، 791؛ الأعمال الكاملة، المجلد الأربعون، ص 540؛ الأعمال الكاملة، المجلد الرابع، ص 476 وما بعدها)،

• من أجل "التغلب على خداع الذات والاستسلام" (الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ص 381)،

• من أجل إلغاء جميع الطبقات (قارن، الأعمال الكاملة، المجلد الثامن والعشرون، ص 508).

أدرك ماركس أنه، بسبب قسرية النظام وعلاقات الملكية والهيمنة القائمة، لا يمكن تحقيق الحقوق والحريات المطلوبة في ظل الرأسمالية. لذا، كان التغلب على الرأسمالية لا غنى عنه.

كانت الحقوق الدستورية في هذا النظام شكلية فقط، لا تُحترم في الواقع، ولم تُستخدم إلا للتغطية على ظروف الاستغلال. أما حقوق الإنسان المُصاغة في ظل الرأسمالية فكانت حقوقًا فردية أنانية منفصلة عن المجتمع، ولم تُسهم في تعزيزه، بل أدت إلى العزلة عن الآخرين (الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ص 364 وما بعدها، 369).

فبدلًا من تعزيز المشاركة السياسية، يدفع النظام الرأسمالي نحو التهميش السياسي. يولد غالبية السكان أحرارًا، لكنهم يقيّدون في كل مكان بسلاسل نمط الإنتاج الرأسمالي. إن أهم سمات الإنسان المتحرر هي حريته وحقه في تقرير مصيره، وهما تحديدًا ما يُسلب منه في المجتمع الرأسمالي بسبب ظروف العمل والمعيشة اللاإنسانية. ورغم أن القانون الأساسي (الدستور – المترجم) الألماني ينص على وجوب احترام سلطة الدولة لكرامة الإنسان وحمايتها، إلا أن هذه مجرد كليشيهات وخداع.

الممارسة الديمقراطية عند ماركس

لقد مثّل ماركس الديمقراطية ودافع عنها ليس بالكلمات فقط، بل بالممارسة أيضًا. فخلال فترة إقامته في بروكسل (1845 -1848)، شغل منصب نائب رئيس الجمعية الديمقراطية. وفور عودته إلى ألمانيا، أسس صحيفة "نويه راينشه تسايتونغ" (الراينية الجديدة)، باعتبارها "منبر الديمقراطية"، التي اكتسبت أهمية وطنية ونشرت أفكار الديمقراطية.

في الوقت نفسه، كان عضوًا في الجمعية الديمقراطية في كولونيا (من نيسان 1848 حتى إبعاده في أيار 1849). وفي لندن، كان ماركس من أبرز مؤسسي "رابطة العمال العالمية" و"عصبة الشيوعيين" (1864 - 1872)، التي ناضلت من أجل الإصلاح الانتخابي، وتحرير العبيد، والتحرر الوطني، وتحرير الطبقة العاملة، التي كانت تمثل غالبية السكان.

ماركس حول الديمقراطية البرلمانية

على الرغم من أن ماركس كان من دعاة الديمقراطية المباشرة، إلا أنه دافع عن الديمقراطية البرلمانية في بعض الحالات أيضًا، منطلقًا من أن الديمقراطية البرلمانية تؤدي إلى فصل بين "كتل الطبقة الحاكمة" على الأقل (الأعمال الكاملة، المجلد السابع عشر، ص 733)، وأنها، وفق ماركس، وسيلة أساسية للتغلب على الإقطاع، وباعتبارها شكلًا رأسماليًا للدولة، يمكنها أن تمثل مصالح العمال المأجورين كمكمل للنضال خارج البرلمان. وطالما بقي النظام البرلماني قائمًا، ينبغي، كما أكد إنجلز، استخدامه "لكسب تأييد جماهير العمال للاشتراكية الثورية" (إنجلز، الأعمال الكاملة، المجلد السادس والثلاثون، ص 55). وفق رؤية ماركس وإنجلز، فإن الديمقراطية البرلمانية ليست شكلًا ديمقراطيًا للدولة، بل هي مؤسسة برجوازية للحكم، وليست سوى "ماكينة للحكم الطبقي" (الأعمال الكاملة، المجلد السابع عشر، ص 336)، و"شكل رأسمالي للحكم يُستبعد فيه أغلبية السكان من

الحكم" (الأعمال الكاملة، المجلد السابع عشر، ص 336، 545). وتُستخدم لتمثيل "المصالح المشتركة" (الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، ص 347) للبرجوازية، ولحماية ممتلكاتها، ولإخفاء الحقائق الاجتماعية. وبينما يُمكن للسكان الإدلاء بأصواتهم في الانتخابات، إلا أنهم مُلزمون عمومًا بالخضوع لقرارات الطبقة الحاكمة. وأن الديمقراطية الليبرالية لا تمت بصلة للديمقراطية، ففيها لا يحكم الشعب، بل تحكمه أقلية صغيرة. والاقتراع العام ليس إلا "لعبة في أيدي الطبقات الحاكمة، لا يمارسها الشعب إلا مرة كل عدة سنوات لإضفاء الشرعية على الحكم الطبقي البرلماني" (الأعمال الكاملة، المجلد السابع عشر، ص 544).

"بدلًا من أن نقرر مرة كل ثلاث أو ست سنوات أي عضو من الطبقة الحاكمة يجب أن يمثل الشعب في البرلمان ويسحقه، يجب أن يخدم الاقتراع العام الشعب، المشكَّل في الكومونات" (الأعمال الكاملة، المجلد السابع عشر، ص 340).

وفي الوقت نفسه، في حال اندلاع انتفاضة بروليتارية، كما حدث في كومونة باريس عام 1871 وفي ديمقراطية المجالس الألمانية في عامي 1918 و1919، ستستخدم الطبقة الحاكمة سلطة الدولة البرلمانية بلا رحمة كـ"سلاح رأسمالي" (الأعمال الكاملة، المجلد السابع عشر، صـ 337) لقمع الحركة العمالية الثورية. وبالمثل، فإن "الحملة الصليبية المستمرة ضد الجماهير المنتجة" ستجبر رأس المال على "تزويد السلطة التنفيذية (الحكومة والإدارة) بسلطة قمع متزايدة باستمرار" (المصدر السابق)، وكما يحدث حاليًا، سيُضعف البرلمان تدريجيًا لصالح السلطة التنفيذية. وفي اللحظات الحرجة، يخشى رأس المال السلطة الديمقراطية للشعب، ويُفضل دكتاتورية الأقلية على "جمهورية ديمقراطية واجتماعية" (الأعمال الكاملة، المجلد السابع، ص 506).

استنتج ماركس أن مجتمعًا تحرريًا وإنسانيًا لا يمكن تحقيقه من خلال النظام البرلماني والوسائل البرلمانية السلمية. ونظرًا لعلاقات الملكية والهيمنة الرأسمالية السائدة، وقدرة رأس المال الهائلة في التلاعب، وعجز الدولة، فإن الديمقراطية البرلمانية تخدم حماية النظام الرأسمالي، لا إلغاءه. ومن خلالها، يسعى أصحاب رأس المال ومؤيدوهم إلى نشر أوهام حول الديمقراطية، وبالتالي إخفاء هياكل السلطة الحقيقية. لم يشارك ماركس الكينزيين المعاصرين قدرتهم المزعومة على معالجة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والبيئية. فوفق ماركس، لا يمكن للدولة الرأسمالية، بسبب قسرية النظام، أن تحقق سوى نجاح محدود (قارن، الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، ص 348).

لن تسمح البرجوازية للدولة بالتدخل في مصالحها الخاصة، ولن تمنحها إلا القدر اللازم من السلطة لضمان أمنها والحفاظ على المنافسة (المصدر السابق، 339). إن اعتقاد البرجوازية الصغيرة بأن الدولة "تُشكّل ذاتيًا كقوة ثالثة في مواجهة الطبقة الحاكمة وتستحوذ على كل السلطة ضدها" (المصدر السابق) هو وهم. وهكذا، وفقًا لماركس، وخلافًا لما ذهب اليه الاقتصادي الفرنسي توماس بيكيتي[3]، لا يمكن القضاء على التوزيع غير العادل للثروة في النظام الرأسمالي من خلال إصلاح النظام الضريبي، "إن هواية البرجوازية المتطرفة المفضلة،

في أحسن الأحوال لا يمكن تعديلها إلا في نقاط ثانوية، ولكن لا يمكن تغيير أساسها أبدًا" (الأعمال الكاملة، المجلد السابع، ص 285). تفشل الأولوية التي تمنحها الكينزية للسياسة أمام الظروف الواقعية، وتصبح "في نهاية المطاف مجرد منفذ للضرورات الاقتصادية" (الأعمال الكاملة، المجلد الثامن والثلاثون، ص 365). "وسيُجبر التشريع دائمًا على التكيف معها" (الأعمال الكاملة، المجلد الثامن عشر، ص 60).

وعلى الرغم من ذلك، ينبغي لممثلي الطبقة العاملة المشاركة في الانتخابات البرلمانية، والعمل في البرلمان "لمعرفة قواهم، ولإيصال موقفهم الثوري ومواقف حزبهم إلى الرأي العام" (الأعمال الكاملة، المجلد السابع، ص 251)، ومحاولة فرض إصلاحات لصالح العمال.

مع ذلك، فإن أي يساري يؤمن بالنهج البرلماني يعاني من داءٍ عضال: "العوق البرلماني، الذي يحاصر المصابين به في عالم وهمي ويسلبهم كل حواسهم، وكل فهم للعالَم الخارجي القاسي" (الأعمال الكاملة، المجلد الثامن، ص 173). هذا الداء، وفق إنجلز، هو "مصيبةٌ تملأ ضحاياها التعساء بقناعةٍ ساميةٍ بأن العالم بأسره، ماضيه ومستقبله، يُوجَّه ويُحدَّد بتصويت أغلبية الهيئة التمثيلية التي تتشرف بضمهم إلى عضويتها" (إنجلز، الأعمال الكاملة، المجلد الثامن، ص 87). وبدلًا من "اتخاذ موقف خارج البرلمان" (الأعمال الكاملة، المجلد السادس، ص 373)، فإن أعضاء اليسار المصممين سيقدمون تنازلًا تلو آخر، وبالضد من كل التجارب، لن يتخلوا عن الأمل في تحقيق الأغلبية في البرلمان.

يتوافق نقد ماركس للنظام البرلماني مع تقييم عالم النفس المعرفي راينر ماوسفيلد، الذي يرى أن الديمقراطية التمثيلية تتعارض مع المبدأ التوجيهي للديمقراطية[4]: حكم الشعب. وأكد ماوسفيلد أن الديمقراطية التمثيلية تقلب الديمقراطية الحقيقية رأسًا على عقب، ولا تمثل سوى حكم النخب السياسية والاقتصادية. ووفقًا لماوسفيلد، وخلافًا لرأي الديمقراطيين الليبراليين، فإن الرأسمالية تتعارض مع الديمقراطية[5]. يتطلب النظام الرأسمالي "الخضوع لعلاقات السلطة التي تمارس فيها أقلية من المالكين، في الرأسمالية، سلطة على أغلبية من غير المالكين"[6]. يخضع الشعب لقيادة هياكل الشركات وشروط استغلال رأس المال، ولقيود النظام. تسود السيطرة الأجنبية على الشركات، وتسيطر سلطة المال على الأسواق. كلتا العلاقتين غير ديمقراطيتين. "لا تلعب الانتخابات البرلمانية أي دور في القرارات السياسية الجوهرية في الديمقراطيات الرأسمالية، ولا يملك النصف الأدنى من سلم الدخل سوى تأثير ضئيل للغاية، يكاد يكون معدومًا، على القرارات السياسية[7].

ما جدوى الانتخابات البرلمانية إذن، إذا كانت الجماهير عاجزة؟ وفقًا لعالم السياسة يوهانس أنيولي، فإنها تؤدي وظيفة ترويض ودمج وتوجيه واستقرار، وتحافظ على مظهر المشاركة، وهي مناسبة بشكل خاص "لإيصال الشعور بالرضا إلى المواطن الفردي المعزول والمجرد، لحاجته إلى اتخاذ القرارات"[8].

على غرار ماوسفيلد، يرى عالم الاجتماع البريطاني كولن كراوتش أن الدولة في ظل الرأسمالية يجب أن تخضع لمنطق

رأس المال والسوق. فهي تقف تحت هيمنة الشركات، والانتخابات مجرد استعراض، والسياسة في ظل الرأسمالية شأن يخص النخبة الاقتصادية[9]. يرى أولريش ميس أيضًا أن الديمقراطية البرلمانية ليست سوى ديمقراطية زائفة يتم فيها مضايقة "صاحب السيادة" وتهدئته وتهميشه والسيطرة عليه من قبل دكتاتورية رأس المال.

يكتب فولفغانغ كوشنيك[10] "يفعل البرلمانيون ما يريدون بمجرد وصولهم إلى مناصبهم"، ونظام الديمقراطية التمثيلية "لا يخدم الصالح العام، بل المصالح الخاصة" (ص 51)، والديمقراطية البرلمانية هي "ديمقراطية زائفة مليئة بالأسطوانات الفارغة" (ص 111)، و"لا يلعب الناخبون، إن لعبوا على الإطلاق، سوى دور ثانوي" (ص 115)، و"إن إشراك السكان في الانتخابات لا يخدم إلا الحفاظ على ولاء الجماهير، للحفاظ على الواجهة الديمقراطية" (ص 116).

ماركس حول ديمقراطية المجالس

ظل تقدير كارل ماركس للديمقراطية المباشرة راسخًا، على مر الزمن، حتى في مواجهة خيبات الأمل والتحليلات السياسية. ولأن بؤس واغتراب غالبية السكان ناتجان بالدرجة الأولى عن نمط الإنتاج الرأسمالي، فإن حل هذه المشكلات لا يكون إلا في مجتمع شيوعي. ويرى ماركس أن أي شيء آخر ليس سوى سياسة شكلية ورمزية، تؤدي في نهاية المطاف إلى تفاقم الوضع الاجتماعي.

عندما انتصر عمال كومونة باريس في عام 1871، أدرك ماركس على الفور الأهمية السياسية لديمقراطية المجالس، وبالتالي الديمقراطية المباشرة.

وفق ماركس، كانت الكومونة "استعادة لسلطة الدولة من قِبل الجماهير" (الأعمال الكاملة، المجلد 17، ص 543)، "ثورة ضد الدولة نفسها، ضد الإجهاض غير الطبيعي للمجتمع؛ لقد كانت إلغاءً للحياة الاجتماعية للشعب من قِبل الشعب ولأجل الشعب" (الأعمال الكاملة، المجلد 17، صـ 541). "لقد كانت في جوهرها حكومة الطبقة العاملة، نتيجة نضال الطبقة المنتجة ضد الطبقة المستحوذة، الشكل السياسي الذي تم اكتشافه أخيرًا والذي يمكن في ظله تحقيق التحرر الاقتصادي للعمال" (الأعمال الكاملة، المجلد 17، ص 342). ومن شأنها أن "تعيد إلى الجسد المجتمعي جميع القوى التي استهلكتها الدولة، هذا النمو الطفيلي حتى الآن" (الأعمال الكاملة، المجلد 17، صـ 341). وكانت كومونة باريس "انبعاث بواسطة الشعب وحياته المجتمعية. لم تكن ثورةً لنقل سلطة الدولة من فصيلٍ من الطبقات الحاكمة إلى آخر، بل ثورة لكسر هذه الآلة البغيضة للحكم الطبقي" (الاعمال الكاملة، المجلد 17، صـ 541 وما بعدها). "إذا كانت الكومونة، بالتالي، الممثل الحقيقي لجميع العناصر السليمة في المجتمع، وبالتالي الحكومة الوطنية الحقيقية، فقد كانت في الوقت نفسه، كحكومة عمالية، وطليعة شجاعة لتحرير العمل، وأممية بكل ما تحمله الكلمة من معنى" (الاعمال الكاملة، المجلد 17، ص 346).

كانت الكومونة، بالنسبة لماركس، شكلاً من أشكال الحكم الديمقراطي المباشر، "الشكل السياسي للتحرر الاجتماعي، وتحرير العمل من عبودية محتكري وسائل الإنتاج، التي يخلقها العمال أنفسهم أو هي هبات من الطبيعة. لا تنهي الكومونة الصراع الطبقي،

الذي تسعى من خلاله الطبقات العاملة إلى تحقيق إلغاء جميع الطبقات. إنها تمثل تحرير العمل، وتخلق المرحلة الوسيطة العقلانية التي يمكن لهذا الصراع الطبقي أن يمر فيها عبر مراحله المختلفة بأكثر الطرق عقلانية وإنسانية" (الأعمال الكاملة، المجلد 17، ص 545 وما بعدها). على طريق الديمقراطية المباشرة.

لقد برهنت الكومونة على كيفية استيلاء الطبقة العاملة على سلطة الدولة وممارستها. لقد كانت، في جوهرها، نموذجًا للدولة البروليتارية، إذ ألغت الديمقراطية المباشرة "الطابع القمعي لسلطة الدولة" (الأعمال الكاملة، المجلد 17، ص 336) واستبدلت حكم الأقلية بحكم الأغلبية. لقد كان ماركس واضحًا في هذا الشأن: "لم تطلب الطبقة العاملة معجزات من الكومونة". لقد خاضت "نضالات طويلة، وسلسلة كاملة من العمليات التاريخية، التي تحوّل الناس والظروف من خلالها تحولًا جذريًا. ليس لديها مُثُل عليا لتحقيقها؛ كل ما عليها فعله هو تحرير عناصر المجتمع الجديد التي تطورت بالفعل في رحم المجتمع البرجوازي المنهار" (الأعمال الكاملة، المجلد 17، ص 343). وأكد ماركس قائلًا: "ستُخلّد باريس العمال، بكومونتها، إلى الأبد باعتبارها البشارة المجيدة لمجتمع جديد" (الأعمال الكاملة، المجلد 17، ص 362).

تحقيق الحكم السياسي للبروليتاريا

انطلق كارل ماركس من ضرورة التغلب على الرأسمالية واستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية. ثم برز السؤال، وما يزال قائماً، حول شكل عملية التحول الثوري هذه. وبصفته ديمقراطياً شعبياً، لم يكن لدى ماركس أدنى شك. فبالنسبة له، كانت "الخطوة الأولى في ثورة العمال" هي "ارتقاء البروليتاريا إلى طبقة حاكمة، والنضال من أجل الديمقراطية (الاعمال الكاملة، المجلد الرابع، ص 481). وأشار انجلس أيضًا إلى: "إن الديمقراطية في جميع البلدان المتحضرة لها نتيجة حتمية تتمثل في الحكم السياسي للبروليتاريا، والحكم السياسي للبروليتاريا هو الشرط الأول لجميع التدابير الشيوعية" (انجلس، الاعمال الكاملة، المجلد الرابع، 317)[11]. "الديمقراطية هي اليوم الشيوعية"، كما يقول انجلس، و"مبدأ البروليتاريا، هو مبدأ الجماهير" (الاعمال الكاملة، المجلد الثاني، ص 613).

وفق ماركس وانجلس، لا يكمن الحل في الإطاحة بالحكومة من قِبل أقلية صغيرة منظمة، ولا في إلغاء الرأسمالية عبر تفكيك مؤسسات الدولة، ولا في النضال الاشتراكي من أجل أغلبية برلمانية، ولا في انتظار المستقبل البعيد؛ بل يكمن الحل، بروح كومونة باريس، بخطوات تحول ديمقراطية مباشرة تهدف إلى تجاوز الرأسمالية والوصول إلى نمط الإنتاج الشيوعي[12].

ماذا يعني هذا عملياً؟

أولًا: يجب توسيع نطاق المجالس/ الديمقراطية المباشرة لتشمل جميع مجالات العمل والحياة في المجتمع، وصولًا إلى الاستيلاء على السلطة. يجب إنشاء هياكل ديمقراطية مباشرة في المصانع والشركات ومراكز رعاية الأطفال والمدارس والجامعات ووسائل الإعلام والجيش، وحتى دور رعاية المسنين، لاستبدال سيطرة

الحكومة الخارجية بالحكم الذاتي الديمقراطي من قبل كل من السكان العاملين وغير العاملين. إن مسار التحول نحو الديمقراطية المباشرة يستلزم التخلي عن الديمقراطية البرلمانية والسعي نحو أشكال ديمقراطية مباشرة شاملة للعمل والحياة[13].

من خلال النضال الديمقراطي المباشر، ستتمكن أغلبية السكان من:

- التحرر من طاعتها العمياء،
- التخلي عن موقفها السياسي السلبي،
- تنمية المعرفة والمهارات الديمقراطية، وكذلك الثقة بالنفس وحق تقرير المصير،
- إدراك أن إصلاح النظام وحده لا يكفي،
- التغلب على علاقات الإنتاج الرأسمالية وهيمنة رأس المال،
- القضاء على العمل المغترب،
- الاستيلاء على السلطة السياسية.

إن حكم الشعب السياسي لنفسه ذاتيا، الذي يتحقق من خلال الديمقراطية المباشرة، يُهيئ الإمكانيات لإلغاء العمل المأجور، ودافع الربح، واقتصاد السوق، والملكية الخاصة؛ وجعل ملكية وسائل الإنتاج عامة؛ ولتطبيق اقتصاد مخطط ديمقراطياً؛ وللتقليص الجذري للعمل المأجور؛ ولتشكيل الاقتصاد ونمط الحياة بطريقة سلمية، قائمة على التضامن، ومستدامة. ولا ينبغي أن تقتصر الديمقراطية المباشرة للمجتمع اليوم على الشركات فقط. فبينما يُعدّ إرساء الإدارة الذاتية للعاملين في أماكن العمل أمراً محورياً، إلا أنه لا يمكن ولا يجب أن يتوقف عند هذا الحد. إن تحرير العمال من هيمنة رأس المال ومن تقديسهم الخرافي للدولة البرجوازية يتطلب ديمقراطية شعبية شاملة على مستوى المجتمع. وبهذه الطريقة فقط يمكن تحقيق نمط حياة يُحدد فيه الجميع مصيره، حيث يصبح كل فرد من أفراد الشعب مشاركاً متساوياً في السيادة الشعبية (الاعمال الكاملة، المجلد الأول، صـ 354). الديمقراطية هي حكم الشعب، بواسطة الشعب، وللشعب، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال إضفاء الطابع الديمقراطي المباشر والشامل على جميع مجالات الحياة والعمل. ويجب إزالة أي غموض يتعلق بهيكل المجالس المجتمعية/ منظمة الديمقراطية المباشرة خلال عملية التحول الديمقراطي.

على النقيض من الأفكار الانقلابية واليسارية المتطرفة والفوضوية، لا يعني المسار الديمقراطي المباشر الانسحاب من العمل البرلماني. فالأنشطة البرلمانية تُسهم في تثقيف الجمهور، وتنفيذ تحسينات طفيفة لعامة السكان، ودعم النضالات خارج البرلمان. مع ذلك، فإن المشاركة في البرلمان تستبعد المشاركة في الحكومة، فموضوعيا لا يملك اليسار الثوري في الحكومة خيارًا سوى الدفاع عن الرأسمالية، وبالتالي التخلي عن هدف تجاوزها.

ثانيًا: لا ينبغي أن يكون الهدف اشتراكية السوق الخضراء، بل تحجيم قوى السوق من خلال زيادة المعروض من السلع المجانية وتوسيع نطاق التخطيط الاقتصادي الكلي. لقد رأى كارل ماركس أن التخطيط الكلي الديمقراطي عنصر لا غنى عنه في مجتمع ما بعد الرأسمالية، لأنه السبيل الوحيد للتغلب على فوضى السوق وأزماتها الاقتصادية والمالية، وإدارة الاقتصاد بما يتوافق مع احتياجات السكان[14]. وانطلاقًا من مبدأ "التخطيط قدر الإمكان، والسوق بقدر الضرورة"، ينبغي تشجيع أنظمة التخطيط الرقمي، وتجربتها عمليًا، وتطبيقها خلال

المرحلة الانتقالية. لا يمكن إلغاء السوق بين عشية وضحاها بتسرع، بل يجب تقليصه من حيث المعروض من السلع المجانية وتوسيع نطاق التخطيط الاقتصادي الكلي.

بالاستناد إلى الاقتصاد البرجوازي، ينتقد الكثير من اليسار الاقتصاد المخطط، بحجة عدم فعاليته، وانه يؤدي إلى نقص اقتصادي، ويفضي إلى المركزية. مع ذلك، وبالنظر إلى الإمكانيات التكنولوجية والسياسية المتاحة اليوم، فإن التخطيط الكلي المنظم ديمقراطياً والقائم على تكنولوجيا المعلومات الحديثة يتفوق على آلية السوق الفوضوية[15]. فهو أكثر عدلاً، ويلبي الاحتياجات، وأكثر مراعاة للبيئة، وأكثر ابتكاراً، ويحسن العرض، ويؤدي إلى توسيع نطاق عمليات صنع القرار الديمقراطية. وحده الاقتصاد المخطط الديمقراطي يمكّن الجميع من المشاركة في تشكيل الاقتصاد، والتغلب على الأزمات والبطالة، ومنع الكوارث المناخية، وخلق سبل مستدامة وسلمية وعادلة للعمل والمعيشة[16].

أما الذين ما زالوا يؤمنون بقدرات السوق العلاجية (كالاقتصاديين الكلاسيكيين الجدد) و/ أو قدرات الدولة الرأسمالية العلاجية (كالكينزيين) فهم يسيرون في طريق خاطئ، وعاجزين عن التغلب على نمط الإنتاج الرأسمالي وآثاره المدمرة.

ثالثا: يجب تقليص ساعات العمل بشكل جذري. فالتقليص التدريجي لساعات العمل يُمكّن العاملين من زيادة وقت فراغهم، ويسمح ذلك لهم بتشكيل حياتهم بشكل متزايد وفقًا لاحتياجاتهم الخاصة وعيش حياة ممتعة. وإذا ما ارتبط اتساع وقت الفراغ بشكل متزايد بالسلع والخدمات المتاحة مجانًا، فسينشأ مجتمعٌ لا تُحدد فيه الحرية الفردية وتقرير المصير بالمال، بل بالرفاه الناتج عن التضامن.

رابعًا: ستؤدي الملكية الجماعية للشركات إلى القضاء على الدخل المُستمد من الثروة والسلطة، مما سيُقلل من التفاوت في الدخل إلى أدنى حد. وسيتم تحديد الدخل من خلال التفاوض الجماعي بمشاركة النقابات في قطاع الإنتاج المعين. وسيحصل العاجزون عن العمل لأسباب صحية أو من أنهوا حياتهم العملية على استحقاقات الضمان الاجتماعي الكافية.

خامساً: تتطلب الكوارث المناخية والبيئية التخلي عن النمو الاقتصادي وإعادة هيكلة الاقتصاد وفقاً لمبدأ الدورة الاقتصادية بطريقة مستدامة مناخياً وبيئياً. ولأن أياً من هذين الأمرين غير ممكن في ظل النظام الرأسمالي، فإن السياسة المناخية والبيئية الفعالة تفترض وجود مجتمع شيوعي ديمقراطي مباشر.

إن بناء مجتمع شيوعي ديمقراطي مباشر لن يكون طريقا سهلا. يخشى الرأسماليون الديمقراطية المباشرة كما يخشى الشيطان الماء المقدس. فالديمقراطية الشعبية تهدد امتيازاتهم، ولذلك سيبذلون قصارى جهدهم للدفاع عن نظام حكمهم الرأسمالي. مع ذلك، لن تفشل عملية التحول الديمقراطي المباشر بسبب مقاومة رأس المال عندما تكون مرغوبة ومدعومة من أوساط واسعة من السكان. لقد كان أحد الأسباب الرئيسية لهزيمة مجالس العمال الألمان عام 1918، هو أن غالبية السكان لم تؤيد ديمقراطية المجالس، وبالتالي انخدعت بالوعود البرلمانية للأكثرية في الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني. إن إرساء الديمقراطية المباشرة والشاملة في

المجتمع يُمكّن من كسب تأييد قطاعات واسعة من السكان للديمقراطية الشعبية، وبالتالي مقاومة إجراءات الرأسمال المضادة للثورة. ويُعدّ هذا سببًا رئيسيًا للانتفاضة الألمانية عام 1918. فالنضال الديمقراطي المباشر وسيلة ضرورية وناجحة لاستبدال الحكم الرأسمالي بحكم الشعب (ديكتاتورية الطبقة العاملة). وينبغي أن يكون هذا النضال نقطة انطلاق لمشروع جديد وشامل ومُغيّر للنظام، يتبنّاه اليسار، حيث تُطبّق فيه تدابير انتقالية "مناسبة لإحداث تغيير جذري في المجتمع" (الاعمال الكاملة، المجلد السادس عشر، ص 369).

من يتخلى اليوم عن مسار الديمقراطية المباشرة، باحثاً عن الخلاص في العمل البرلماني والإصلاحات الرمزية، ينتهي به المطاف حتماً إلى بيرنشتاين وكينز وسياساتهما في تطوير الرأسمالية وترويضها. ولا سبيل لتفكيك الرأسمالية وبناء مجتمع جديد سلمي، عادل، متناغم، صديق للبيئة، ومُلبي للاحتياجات، إلا من خلال التطبيق العملي للمبادئ الديمقراطية الشيوعية المباشرة.

خلاصة

تناولت مقالة ألفريد مولر "ماركس والديمقراطية المباشرة" علاقة كارل ماركس بالديمقراطية المباشرة وآرائه حول تجاوز الرأسمالية. ويشير مولر إلى أن ماركس اعتبر كومونة باريس عام 1871 نموذجًا لديكتاتورية البروليتاريا، وبالتالي، اعتبر الديمقراطية المباشرة عنصرًا أساسيًا في النظرية والممارسة السياسية للعاملين بأجر. وانتقد ماركس مفهوم هيغل الاستبدادي للدولة، ودعا بدلاً من ذلك إلى سيادة شعبية غير قابلة للتجزئة. وكان يعتقد أن الديمقراطية الحقيقية ستمكّن الشعب من اتخاذ القرارات مباشرة بشأن شؤون الدولة المهمة، وممارسة سلطة الدولة بما يخدم مصلحة أغلبية السكان. بالنسبة لماركس، كانت الديمقراطية البرلمانية وما تزال شكلاً من أشكال الحكم البرجوازي، الذي يُستخدم لضمان نمط الإنتاج الرأسمالي وامتيازاته. ومع ذلك، فقد أيّد الديمقراطية البرلمانية في ظروف معينة: كوسيلة للتغلب على الإقطاع وكوسيلة لتعزيز مصالح العمال والنضال الثوري. ووفقًا لماركس، كان تطبيق الديمقراطية المباشرة رافعة أساسية لتفكيك الرأسمالية. ودعا إلى خفض جذري لساعات العمل وجعل وسائل الإنتاج ملكية جماعية، كخطوات نحو تحقيق مجتمع شيوعي حرّ وعادل قائم على مبادئ الديمقراطية المباشرة. واليوم، يتطلب التحول إلى الديمقراطية المباشرة ديمقراطية شعبية شاملة في جميع مجالات الحياة والعمل.

من هو ألفريد مولر (Alfred Müller)

هو باحث واقتصادي ماركسي ألماني معاصر (1946) حاصل على درجة الدكتوراه في العلوم الطبيعية والسياسية، درس الاقتصاد الزراعي والاقتصاد في جامعات برلين وغوتينغن وبيركلي ويعيش كأستاذ وكاتب سياسي في مدينة هيلدسهايم، تخصص بشكل دقيق في دراسة النظريات الاقتصادية لكارل ماركس، وتحديداً ما يتعلق بالدورة الاقتصادية والأزمات. اشتهر مولر بكونه أحد أبرز المنظرين الذين أعادوا قراءة "رأس المال" لماركس من زاوية نظرية الدورات الاقتصادية. وتعد دراسته المعمقة محاولة لسد "الفجوة" في الفكر الماركسي

التقليدي الذي ركز غالباً على الانهيار النهائي للرأسمالية، بينما ركز مولر على فهم التقلبات الدورية وكيفية حدوث الأزمات وتجاوزها داخل النظام.

من أهم مؤلفاته كتاب: "نظرية ماركس في الدورات الاقتصادية: تفسير قائم على نظرية التراكم المفرط" (Die Marxsche Konjunkturtheorie: Eine überakkumulationstheoretische Interpretation)، والذي نُشر في طبعته الأحدث عام 2009 عن دار "PapyRossa" الالمانية.

في هذا الكتاب، يقدم مولر أطروحة مفادها أن الأزمات الرأسمالية ليست مجرد حوادث عارضة، بل هي نتيجة حتمية لـ "التراكم المفرط" لرأس المال، حيث تصل الرأسمالية لمرحلة لا يعود فيها الاستثمار مربحاً بما يكفي، مما يؤدي للركود.

خلاصة القول، يمثل ألفريد مولر في الأوساط الأكاديمية الألمانية تيار "إعادة بناء نظرية ماركس"، حيث يسعى لتحويل الملاحظات المتفرقة في مسودات ماركس إلى نظرية اقتصادية متماسكة قادرة على تفسير الأزمات المالية والاقتصادية في العصر الحديث. شارك مولر من خلال أبحاثه في تقديم إجابات ماركسية على الأزمات المالية العالمية، مثل أزمة 2008، حيث استُخدمت نظريته لشرح كيف تؤدي فوائض رأس المال إلى فقاعات مالية ثم انهيار.

تظل التفاصيل الدقيقة لحياة ألفريد مولر الشخصية (مثل تاريخ ومكان الولادة بالتحديد) غير منتشرة في السير الذاتية العامة، حيث يُعرف في الأوساط الأكاديمية من خلال نتاجه الفكري أكثر من حياته الخاصة. وهو غير ألفريد مولر-أرماك (1901-1978): واضع أسس "اقتصاد السوق الاجتماعي" في ألمانيا الغربية، والنقيض لماركسية الأول.

الترجمة لمقالته المنشورة في جريدة Unsere Zeit (عصرنا) النمساوية في 15 نيسان 2024

الهوامش:

1. ماوس، إنغبورغ (2019)، ص 340
2. قارن: هيغل، GWF: "اصول فلسفة الحق": ص -301، 303، 316، 317، 318، 544
3. توماس بيكيتي، (2022)، ص 171 وما بعدها
4. قارن فيث سيلك، (2023)، ص 65 وما يليهالا.
5. قارن راينر موسفيلد، (2023)، ص 431؛ راينر موسفيلد، (2018)، ص 193
6. راينر موسفيلد (2023)، ص 430
7. راينر موسفيلد (2024): الديمقراطية على حافة الهاوية؟ محاضرة https://www.youtube.com/watch?v=8YYycaOx51s
8. أنولي، يوهانس (2004)، ص 103
9. قارن كولن كراوتش (2008)، الصفحات 9، 10، 30 وما بعدها، 128 وما بعدها؛ كولن كراوتش، (2022)، الصفحات 9 وما بعدها، 42، 48 وما بعدها، 61، 68 وما بعدها.
10. فولفغانغ كوشنيك، (2016) ص 7
11. قارن الاعمال الكاملة، المجلد الرابع4، ص 378 وما بعدها، 392؛ الاعمال
12. اقارن ألفريد مولر (2023): التغلب الديمقراطي المباشر على الرأسمالية، في: https://alfmueller.wordpress.com/category/direkte-demokratie/)
13. قارن ألفريد مولر، (2019)، ص 190 وما بعدها.

14. قارن الاعمال الكاملة المجلد الرابع، ص 370 و375 وما بعدها؛ المجلد السابع عشر، ص 343، 543،551، 545، 18، ص 62، المجلد التاسع عشر، صـ 19؛ المجلد الثالث والعشرين، الصفحات 93، 193؛ المجلد 24، ص ـ316 وما بعدها، 358؛ المجلد السادس والعشرين، الجزء الثاني، الصفحة 509.

15. قارن، حسام حمادة وكريستوف سورغ، (2023): الاقتصاد المخطط الذكي، في:
https://www.zeit.de/kultur/2023-06/wirtschaftsplanung-ki-smarte-planwirtschaft-big-data/komplettansicht

16. يتبنى ألبرت مايكل في كتابه "Parecon"، ص 120 وما بعدها، و دونكهاس هيلموت في كتابه "Plea for Planned Economy" الرأي ذاته

مراجع:

Agnoli, Johannes (2003): Die Transformation der Demokratie und verwandte Schriften, Konkret Literatur Verlag, Hamburg

Albert, Michael (2003): Parecon, Leben nach dem Kapitalismus, Trotzdem Verlag, Frankfurt/Main

Colin, Crouch (2008): Postdemokratie, Bundeszentrale für politische Bildung, Bonn

Colin, Crouch (2022): Postdemokratie revisted, Bundeszentrale für politische Bildung, Bonn

Dunkhase, Helmut (2022): Plädoyer für Planwirtschaft. Vom Umgang mit Widersprüchen in DDR, Sowjetunion und VR China, PapyRossa Verlag, Köln

Hegel, G.W.F. (1970): Grundlinien der Philosophie des Rechts, Reclam Verlag, Stuttgart.

Hamade, Houssam und Sorg, Christoph (2023): Die smarte Planwirtschaft, in: https://www.zeit.de/kultur/2023-06/wirtschaftsplanung-ki-smarte-planwirtschaft-big-data/komplettansicht

Koschnick, Wolfgang (2016): Eine Demokratie haben wir schon lange nicht mehr. Abschied von einer Illusion, Westend Verlag, Frankfurt/Main

Marx, Karl:

- Marx Engels Werke (MEW) , Dietz Verlag, Berlin
- Grundrisse (GR), Europäische Verlagsanstalt Frankfurt

Maus, Ingeborg (2019): Über Volkssouveränität. Elemente einer Demokratietheorie, Suhrkamp Verlag, Berlin

Mausfeld, Rainer (2018): Warum schweigen die Lämmer. Wie Elitendemokratie und Neoliberalismus unsere Gesellschaft und unsere Lebensgrundlagen zerstören, Westend Verlag, Neu-Isenburg, 3. Auflage

Mausfeld, Rainer (2023): Hybris und Nemesis. Wie uns die Entzivilisierung von Macht in den Abgrund führt – Einsichten aus 5.000 Jahren, Westend Verlag, Neu – Isenburg

Mausfeld, Rainer (2024): Demokratie am Abgrund? Vortrag, in: https://www.youtube.com/watch?v=8YYycaOx51s

Mies, Ullrich (2017): Demokratie als Fiktion – Oligarchenherrschaft als Realität, in: Mies, Ullrich/Wernicke, Jens (Hrsg.): Fassadendemokratie und tiefer Staat. Auf dem Weg in ein autoritäres Zeitalter, Promedia Verlag, Wien

Müller, Alfred (2019): Eine Wirtschaft, die tötet. Über den Kapitalismus, seine Überwindung und die Zeit danach, PapyRossa Verlag, Köln

Müller, Alfred (2023): Die direktdemokratische Überwindung des Kapitalismus, in: https://alfmueller.wordpress.com/category/direkte-demokratie/)

Piketty, Thomas (2022): Eine kurze Geschichte der Gleichheit, Bundeszentrale für politische Bildung, Bonn

Selk, Veith (2023): Demokratiedämmerung. Eine Kritik der Demokratietheorie, Suhrkamp Verlag, Berlin

حوارات

الثقافة الجديدة تحاور أريك بروكس

حاوره وترجم الحوار: سوران قحطان

أريك بروكس (Eric Brooks)، عضو المجلس الوطني (اللجنة المركزية) للحزب الشيوعي الأمريكي (CPUSA)، وعضو هيئة تحرير موقعه الالكتروني CPUSA.org. ولد عام 1956 في بروكلن/ نيويورك ونشأ فيها. تخرج من جامعة يال وعمل لمدة 45 عاما كمبرمج كومبيوتر. يعيش حاليا في انديانا. مناضل ومنظم مخضرم في سبل نيل سلطة الطبقة العاملة، وفي سبيل الاشتراكية. يؤمن بأن الحرية ما هي الا نضال دائم، وأن هذا النضال هو السبيل الأمثل لتجربة ذواتنا كبشر في ظل النظام الرأسمالي.

الثقافة الجديدة: شهدت السياسات الداخلية والخارجية للولايات المتحدة تغييرات جوهرية، لا سيما منذ ولاية ترامب الرئاسية الثانية. وقد انعكست هذه التغييرات في التحولات والتغيرات التي طرأت على استراتيجيات الأمن القومي.

هل يمكنكم توضيح أبرز ملامح هذه السياسة الجديدة؟ وهل نحن شهود على بداية عهد جديد، يتضمن نهاية الهيمنة الأمريكية وظهور نظام عالمي متعدد الأقطاب، أم أن القضية ليست الا تغيير في الاساليب، ومجرد إعادة ترتيب وتعديل في النظام؟

بروكس: تخضع الولايات المتحدة الامريكية حاليا لإدارة ذات نزعة وتوجه فاش. إدارة تهاجم باستمرار المكاسب التقدمية التي تم الظفر بها قبل الحرب العالمية الثانية (الصفقة الجديدة New Deal)، والتي توسعت لاحقا من خلال نضالات العمال وكذلك نضالات حركة الحقوق المدنية في الخمسينات وصولا الى السبعينات. بما في ذلك حقوق التصويت، صيانة الحقوق المدنية، ونظام الرعاية الصحية للمسنين وذوي الاحتياجات الخاصة، والضمان الاجتماعي، وأشكال الحماية المختلفة ضد العنصرية وضد مناهضة المرأة، والمبادرات الخاصة بالعوائل مثل إجازات الأمومة او الابوة. ان القوانين التي تم انتزاعها عبر النضالات الجماهيرية للطبقة العاملة وإن بقيت بمعظمها، لكن آليات التنفيذ تم إفراغها من مضمونها. حيث تم تجاهلها من قبل الحكومة الفدرالية وأصبحت حبرا على ورق.

إن الرئيس ترامب، واتباعه الملياردیرات من أعضاءMAGA (لنجعل أمريكا عظيمة مرة اخرى)، يهاجمون بصورة منهجية مكاسب الطبقة العاملة؛ اما بحجة تصحيح قوانين "غير دستورية" تحابي الاتحادات العمالية او بحجة محاربة الإرهاب. بينما جوهر افعالهم، تحت ستار مكافحة الارهاب، لا يكمن في بث الرعب ليس في أوساط الشعب العامل في الولايات المتحدة فحسب؛ وانما الادعاء، بموجب استراتيجية الامن القومي ومبدأ ترامب، ان موارد النصف الغربي [من الكرة الأرضية - المحرر]، وبضمنها غرينلاند وكذلك نفط فنزويلا، كلها تعود له [ترامب -المحرر]. ان استراتيجية الامن القومي الأمريكي هي تأكيد على سيطرة فاشية "من اجل ضمان ان أمريكا ستبقى البلد الأقوى، والاغنى، الأكثر نفوذا، والأكثر نجاحا لعقود قادمة". ان هذه ليست اهدافا لإدارة تحترم سيادة او حق تقرير المصير لأي دولة اخرى. ان سياسة الامن القومي تقر ان للولايات المتحدة "حقوق طبيعية ممنوحة من الله"، وذلك لتحمي "مصالحها ورفاهيتها". ان ما يعنونه هو ان للملياردیرات وغيرهم من الرأسماليين حقا طبيعيا - ليس ديمقراطيا!- ليفعلوا كل ما يشاؤون لخدمة مصالحهم المالية. وكما يُظهر العدوان الأمريكي على إيران، ستسعى إدارة ترامب إلى الاستيلاء على الموارد الطبيعية في أي مكان متخذةً من 'الأمن' ذريعةً، ومن العنف الاقتصادي والجسدي أداةً للإكراه. إن ترامب ومعه كل الفاشيين الاخرين في MAGA مصرّون على السيطرة لا التعاون، وهذا هو جوهره رسالة استراتيجية الأمن القومي كما قرأتها.

ما سينشأ عن المرحلة الراهنة سيعتمد على نضال (قوى - المحرر) السلام هنا في الولايات المتحدة، وكذلك على تصرفات الدول الأخرى على الصعيد العالمي. خصوصا مع تعرض "الناتو" للتهديدات من قبل ترامب، فضلا عن ازمة النفط التي اشعلتها الولايات المتحدة بهجومها على إيران. ان دول العالم تتساءل بحق عن دور الولايات المتحدة كضامن للسلام العالمي. فالتوترات بين الدول مرتفعة، كما أظهرت ذلك الصين بوضوح حينما رافقت ناقلات نفطها بطرادات حربية ثقيلة خلال حصار الولايات المتحدة لمضيق هرمز. نحن نشهد تغيرا حقيقيا لا مجرد تغيير سطحي في الأسلوب. والى أي مدى سيؤدي هذا التغيير نحو حرب عالمية فإن هذا يرتبط بمستوى التنظيم الديمقراطي من اجل السلام،

والاحترام المتبادل، والعمل المشترك.
كان العالم، عموما، متعدد الأقطاب، حتى في ظل ذريعة الولايات المتحدة الزائفة بكونها "قائدة العالم الحر". لقد ادعت الولايات المتحدة نهاية تعدد القطبية بعد ان زال الاتحاد السوفيتي من الوجود. لكن تلك كانت نظرة ضيّقة أغفلت الديناميكيات التي تغذي نمو الاقتصاد الصيني، والتحالفات الاقتصادية في أمريكا الجنوبية ومع الصين.

إن إنهاء استخدام الدولار الأمريكي في المعاملات الخارجية، ولا سيما في الموارد الطبيعية والنفطية، يؤكد بقوة حقيقة أن الولايات المتحدة كانت دائماً مضطهدة للأمم بقوة السلاح لا بانية لتحالفات تستند على الاحترام المتبادل.
وإذا كان ترامب قد نجح في أي شيء، فهو نجاحه، من جهة، في إثبات حدود نفوذ الولايات المتحدة. ومن جهة أخرى، المصلحة الذاتية المتطرفة التي تنكر مشروعية مصالح أي دولة أخرى ذات سيادة، كما ترفض المعاهدات والاتفاقيات الاقتصادية. في هذا السياق، لم تعد الولايات المتحدة شريكاً شرعياً حتى في نظر الرأسماليين.
هناك تغييرات كثيرة، ولكن اين سينتهي المطاف، فإن ذلك يعتمد على كل من: حركات الشعوب من أجل السلام على الصعيدين العالمي والأمريكي، وعلى استعداد القادة الرأسماليين للدول على العمل معاً، وهو امر لا تشجع عليه الرأسمالية. برأيي ان هذه المرحلة خطرة على العمال. وأعتقد ان الامر الملح اليوم هو التأكيد على ضرورة ان يكون التركيز منصبا على بناء حركات سلام ديمقراطية واسعة مناهضة للعنصرية، تسعى للحد من الإنفاق العسكري، وكذلك العمل على تلبية احتياجات العمال.

الثقافة الجديدة: لا يمكن فهم السياسة الأمريكية، ولا التحولات الأخيرة فيها، دون استيعاب كامل للسياق الاجتماعي والاقتصادي الكامن وراءها.
فهل يمكنكم، رفيقنا العزيز، أن تُلقوا الضوء على أبرز السمات المميزة لهذا السياق؟

بروكس: تعيش الولايات المتحدة في قبضة إدارة عنصرية، مناهضة للديمقراطية، معادية للمرأة، ومعادية للمهاجرين. إدارة ترى نفسها غير ملزمة ولا تهتم بأي شيء سوى زيادة ثرائها وتوسيع سيطرتها. وقد كان الأثر الداخلي لهذه السياسات: بلد يعاني غالبية سكانه - الطبقة العاملة - من عوز شديد في السكن، والغذاء، والرعاية الصحية، والتعليم، والثقافة. اما السياق الاجتماعي الاقتصادي فهو مناهض للنقابات، بل وقد وصل الامر إلى حد القول بأن كل من يشكك في الرأسمالية هو إرهابي يستحق الترحيل. لقد كان القمع استجابة ترامب لاحتياجات فئات واسعة من الأمريكيين: الطرد الجماعي من الوظائف، وتحطيم النقابات، وابقاء الحد الأدنى للأجور منخفضاً، والضغط العنيف والمستمر على المهاجرين وغيرهم من العمال (بمن فيهم العمال البيض)، وتخفيضات ضريبية هائلة للأثرياء، مع تضخيم الميزانية العسكرية إلى تريليون دولار؛ كل ذلك قوض الاقتصاد الأمريكي وأفرز نخبةً ضيّقة من المليارديرات وجموعاً من الناس يكافحون للبقاء، والمحظوظ هو من يعيش من الراتب إلى الراتب. ان السياسة الأمريكية موجهة نحو توظيف القوة لضمان زيادة ثراء الأثرياء

عبر السيطرة العالمية على الموارد. غير أن القوة الشرائية للجموع في العالم وفي الولايات المتحدة تتراجع باستمرار، كاشفةً بكل جلاء تناقضات الرأسمالية. وإدارة ترامب لا تفعل شيئاً لتيسير حياة العمال سواء في الولايات المتحدة أو عالمياً، وهي صريحة في أن ذلك ليس من اهتمامها. اهتمامها الوحيد هو الإثراء الذاتي، بما في ذلك توظيف النظام الضريبي الأمريكي لامتصاص أموال العمال وتحويلها مباشرةً إلى تغذية المجمع الصناعي العسكري الذي يجني منه قلة قليلة مليارات الدولارات.

ان النضالات الراهنة في الولايات المتحدة، وفي ظل السياق الاجتماعي والاقتصادي الحالي، تتمحور حول التفاوت الهائل في الدخل، وشُح تمويل الخدمات الحكومية التي يعتمد عليها أغلب العمال في تقاعدهم ورعايتهم الصحية، وعلى هجوم شامل على المنظمات الشعبية التي تناضل من أجل مصالح العمال ومناهضة العنصرية وبناء مجتمع غير اقصائي. المهمة اليوم في الولايات المتحدة هي بناء حركة شعبية جامعة من أجل الديمقراطية والسلام، ومن أجل سياسات تلبي احتياجات العائلات والمجتمعات العاملة. حركة شعبية تتسم بطابع مناهض للاحتكار. وإذا أفلحت في هذه النضالات، فإنها ستُحدث تحولاً جوهرياً في البنى الاجتماعية الاقتصادية في الولايات المتحدة، بقدر نجاحها في النضال من أجل السلام، في العالم أيضاً.

الثقافة الجديدة: استكمالاً للسؤالين السابقين، هل يمكنك شرح اسباب عودة ترامب في عام 2024؟ أو بشكل أعم، كيف يمكننا تفسير ما يُسمى بـ"ظاهرة ترامب" منذ عام 2016؟ ما هي الظروف التي سمحت لهذا "الدخيل"، لسيد الخطاب الشعبوي هذا، ان يتم القبول به زعيما للصفوة في الحزب الجمهوري؟

بروكس: من المهم أن ندرك أن ترامب لم يفز بتفويض شعبي لا في 2016 ولا في 2024. في 2024 فاز بفارق 1.25% من الأصوات، فيما أحجم نحو ثلث الناخبين عن التصويت. والسؤال هو لماذا يشعر كثير من الناس بالاغتراب عن ميدان الانتخابات في الولايات المتحدة؟

للإجابة على ذلك، لا بد من النظر في القيود السخيفة المناهضة للديمقراطية المفروضة على المشاركة في العملية الانتخابية، بما فيها قمع التصويت، وذلك عبر تطبيق نظام الحزبين. حيث تكون "المعارضة" عند الحزب الديمقراطي، وهو حزب رأسمالي أيضا. لا ننسى من جهة أخرى ان هذا النظام يوفر اطارا للمنظمات الشعبية وللعمل المنظم من اجل السلطة.

من وجهة نظري، ان الفوزين اللذين حققهما ترامب، ينبعان من تيارين ساخطين: أحدهما بين الشباب الذين ينظرون الى أصواتهم يتم تكميمها من قبل القيادات الكهلة والفاسدة في الحزب الديمقراطي، والتيار الاخر في صفوف البيض الذين جرى التلاعب بهم عبر ادعاءات عنصرية مزيفة بصورة صريحة لإيهامهم بأن مصلحتهم الذاتية تكمن مع غاية ترامب وMAGA الفاشية. لقد سوق ترامب نفسه مرشحاً للسلام، مرشحا سيقف مع العمال أو على الأقل مع العمال البيض، وشخصاً سيعيد الولايات المتحدة إلى مكانتها الاقتصادية المتقدمة، ما أوهم بعض العمال

بأن ذلك سينعكس إيجاباً عليهم.
ظاهرة ترامب هي منتج ثانوي لحملات إعلانية ضخمة أربكت الناخبين وكذبت عليهم، ولإرهاق الشعب الأمريكي بحروب لا نهاية لها، ولهجوم الحزب الديمقراطي على جناحه اليساري الذي نفر كثيرون منه. كما لعب دعم الولايات المتحدة للإبادة الجماعية الإسرائيلية ضد شعب غزة دوراً مهماً، إذ رأى البعض في الامتناع عن التصويت بياناً أخلاقياً احتجاجياً، الا أن فعلهم قد أسهم موضوعياً في انتصار ترامب.
أحد اشكال الصراع في الولايات المتحدة هو محاولة اقناع الناس ان التصويت ليس الا جانبا من النضال من اجل السلام والعدالة الاجتماعية والاقتصادية، وأن التصويت ليس بيانا أخلاقيا بقدر ما هو تأكيد جمعي للقوة. اننا نرى، في انتخابات التجديد النصفي الحالية، أن ترامب لم يعد خياراً رابحاً. يدرك أنصار ترامب وMAGE ذلك. لذا ركزوا جهودهم على تضييق الوصول إلى صناديق الاقتراع في المناطق التي طالما قامت بتحديهم، بما في ذلك محاولة تعريف مفهوم المواطنة وبالتالي تحديد من يحق له التصويت. لقد بات مفهوم المواطنة ذاته في الولايات المتحدة موضع جدل، بنية عنصرية صريحة تهدف إلى حصرها في البيض.

الثقافة الجديدة: لا يزال العديد من الماركسيين يعتقدون أن سياسات ترامب الخارجية - من المطالبات بغرينلاند، وبإعادة قناة بنما، مرورا بالتهديدات الموجهة ضد كندا، واختطاف الرئيس الفنزويلي، وصولاً إلى العدوان على إيران الذي شاركت فيه إسرائيل - لا يمكن تفسيرها إلا من خلال نظرية "الإمبريالية"، ما يستلزم بالضرورة تطوير هذه النظرية مع إطارها المفاهيمي ليكونا أكثر حداثة.
رفيق بروكس، ما هو تفسيركم للعدوان الموجه ضد إيران تحديداً؟

بروكس: يجب فهم ترامب من خلال منظور النضال من أجل السلام. إنه واجهة لطبقة لا بد لها من انتهاج سياسات إمبريالية لضمان الأرباح، ولا سيما في زمن تتقلص فيه قدرة العمال الشرائية، وحيث تغدو السيطرة على الأسواق والموارد ضرورةً لخفض التكاليف وضمان حجم المبيعات التي تدرّ الأرباح. تضمن الإمبريالية، أيضاً، الحاجة إلى ميزانية عسكرية مستمرة ومتنامية، وهي الآلية التي تتم من خلالها عملية نقل هائلة للثروة، عبر الضرائب، إلى جيوب المليارديرات.
وان كانت الطبقة العاملة تواجه بتحدي الامبريالية الامريكية، الا انه من الضروري في هذه المرحلة أيضا النضال من أجل بناء تضامن أممي عمالي متبادل وقوي، قائم على مبدأ المساواة بين الأمم واحترام السيادة المتبادلة، واحترام الحق في تحديد المسار الاجتماعي الاقتصادي الخاص. هذا النضال هو مناهضة الإمبريالية، وهو ايضا في جوهره نضال من أجل السلام.
نعم، للطبقة العاملة الأمريكية دور خاص في النضال من أجل السلام، لكن هذه الحركة تواجه رياحاً معاكسة قوية. حيث هناك ثمة التباس حول طبيعة العلاقة بين العمال في بلدان مختلفة وما إذا كانوا متنافسين هيكلياً أم حلفاء. من جهتي أعتقد أنه ينبغي لنا النضال من أجل تضامن عمالي أممي ووضع حد للإمبريالية الأمريكية هنا في الولايات

المتحدة.
أخيرا، توجد انقسامات في حركة السلام، تحديداً حول الإبادة الجماعية في غزة وحول العدوان الأمريكي على إيران. وهذه الانقسامات يجب معالجتها من اجل بناء حركة سلام قوية وموحدة.

الثقافة الجديدة: كان للإدانة العالمية لجرائم الحرب المروعة والإبادة الجماعية التي ارتكبها الاحتلال الصهيوني في غزة ضد الشعب الفلسطيني - بدعم كامل من الإمبريالية الأمريكية وحلفائها - دورٌ محوري في إنعاش الحركات التقدمية واليسارية والنقابات العمالية. وفي الولايات المتحدة الامريكية شهدنا العديد من الاحتجاجات والمسيرات والتظاهرات المؤيدة لفلسطين في العديد من المدن والجامعات.
رفيق بروكس، هل يمكنك إلقاء الضوء على وضع اليسار في أمريكا في السنوات الأخيرة؟ وخاصة اليسار الراديكالي؟ وهل كان للقضية الفلسطينية والجرائم المرتكبة في غزة دورٌ في حراكه؟

بروكس: شهدت الولايات المتحدة طفرة مرحب بها من الاحتجاجات ضد دعم الولايات المتحدة للإبادة الجماعية بحق شعب فلسطين ولا سيما في غزة. غير أن تلك التظاهرات اقتصرت في حالات كثيرة على الشباب، وانفصلت عن النضالات العمالية الجارية، وافتقرت إلى استراتيجية واضحة لتغيير السياسة عبر عمل جماعي موحد.
حيث لم تنخرط الحركة النقابية المنظمة، التي تعد كبرى منظمات الطبقة العاملة في الولايات المتحدة، بشكل واسع في الحركات الداعية لإنهاء الإبادة الجماعية. إلا أنها اتخذت مواقف مهمة تعكس تحولاً نحو اليسار. فـ (الاتحاد الأمريكي للعمل ومؤتمر المنظمات الصناعية AFL-CIO) أصدر بيانا، في 8 شباط/ فبراير 2024، يدعو فيه إلى "وقف إطلاق النار في غزة عبر المفاوضات - بما يشمل الإفراج الفوري عن جميع الرهائن وتوفير المأوى الطارئ والغذاء والدواء وسائر المساعدات الإنسانية لأهل غزة - ونؤكد من جديد دعمنا لحل الدولتين لتحقيق السلام والأمن على المدى البعيد".
فيما يتعلق بإيران، استجاب العمال على الفور. كانت (نقابة عمال الخدمات الدولية SEIU) أول من أصدر بياناً في اليوم الذي بدأت فيه الحرب. حيث ندد البيان بـ "استهتار إدارة ترامب بأرواح العمال"، واستطرد البيان قائلا "الحرب تؤذي العمال والفقراء والنساء والأطفال"، كما أعلن تضامنه مع العمال في إيران وفي أنحاء العالم. اما نقابة الممرضات الوطنية فقد ادانت ترامبَ لارتكابه "عملاً إمبريالياً آخر من أعمال الحرب دون إذن الكونغرس"، مستحضرةً صلةً مباشرة بين المليارات المنفقة على الحرب والتقشف المفروض على العائلات العاملة في الداخل الامريكي، ونبّهت إلى قصف مدرسة بنات أودى بحياة أكثر من 150 شخصاً بوصفه انتهاكاً لأحكام القانون الإنساني الدولي. بينما رفع اتحاد المعلمين الأمريكي (AFT) في بيانه "صوته الجماعي دعماً لشعب إيران وهو يناضل بشجاعة في شوارع بلاده من أجل الحرية والعدالة والحقوق الإنسانية الأساسية مواجهاً نظاماً استبدادياً دينياً". وفي 6 اذار/ مارس 2026 أصدر الـ AFL-CIO بياناً

يطالب بإنهاء النزاع، مع احترام صارم للقانون الدولي، وتجديد الالتزام بنزع السلاح النووي، والاحترام التام لحرية التنظيم.
اما فيما يخص كوبا، ثمة مصالح تجارية ويساريون ـ على حد سواء ـ يرون ضرورة رفع العقوبات عن تلك الدولة، لكنها لم تتحول بعد إلى قضية شعبية رئيسية تحرّكها حركة جماهيرية.
وعلى الرغم من كونها تخبو، لكن لا تزال هناك مؤثرات كثيرة، ترى في الحرب والميزانية العسكرية الضخمة خيراً للعمال الأمريكيين، بدعوى زائفة أنها تحافظ على الوظائف في الولايات المتحدة.
في النهاية، لا أعتقد أن الاعتداءات على غزة قد لعبت دورا محوريا في إعادة إحياء نقابات العمال والحركات التقدمية واليسارية في الولايات المتحدة. العمال على وجه الخصوص، يجابهون الإجراءات الاقتصادية وممارسات كسر النقابات من قِبل إدارة ترامب، والى حد ما مهاجمة الديمقراطية او وجود النقابات ذاتها. من وجهة نظري، انهم منشغلون أكثر بالنضالات الداخلية، لا بالتضامن الاممي للطبقة العاملة. غير أن بيان SEIU حول غزة كان صارما في دعم الأممية العمالية والتضامن، وأرى ذلك توجهاً متنامياً في الحركة العمالية في الولايات المتحدة.

الثقافة الجديدة: يصدر هذا العدد بعد أيام من حلول الأول من أيار ـ عيد العمال العالمي، بهذه المناسبة هل يمكنكم رفيقنا العزيز أن تشرح الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للطبقة العاملة الأمريكية، والظروف التي تناضل فيها؟

بروكس: الطبقة العاملة الأمريكية تناضل ضد كل التوجهات والمبادرات الفاشية، والمناهضة للديمقراطية لإدارة ترامب / MAGA وداعميهما من أصحاب المليارات.
ويمثل عيد العمال العالمي هذا العام جبهةً جديدة في هذا النضال، إذ ستلعب الحركة النقابية المنظمة دورا قياديا للمرة الأولى منذ عقود. حيث سيواصل العمال هنا تصعيد الاحتجاجات المترابطة التي أطلقوها أيام [تظاهرات ـ المحرر] "لا ملوك" الأولى والثانية والثالثة وغيرها، بما فيها إضرابات طلاب المدارس الثانوية. من المهم التنويه الى ان تظاهرات لا للملوك الثالثة شارك فيها ما يقارب 8 ملايين شخص. علما ان هناك أكثر من 3000 احتجاج في يوم العمال هذا العام.
الا ان التحدي هو مواصلة انماء هذه التظاهرات وتعزيز وحدتها التنظيمية والسياسية. عموما ان انخراط العمال المنظمين في الحركة الاحتجاجية، كما تجلّى في احتجاجات مينيابوليس ضد دائرة الهجرة والجمارك (ICE)، يُحدث فارقاً هائلاً في تركيز الاحتجاجات ووحدتها السياسية. ومن المتوقع أن يتجلى ذلك مجدداً في احتجاجات أول أيار/ مايو. ثمة أيضاً قرار تقدّم به تحالف النقابيين السود من أجل مسيرة شعبية واسعة يقودها العمال نحو واشنطن للمطالبة بحقوق العمال والديمقراطية. وأيضا انها المرة الأولى التي يدعم فيها الـ AFL-CIO المساهمة في عيد العمال. بينما مجالس العمال في نيويورك وشيكاغو وديترويت ولوس أنجلوس أيّدت الفعاليات وتحشد لها. لقد عاد عيد العمال إلى الولايات المتحدة بزخم كبير.

إن الطبقة العاملة في الولايات المتحدة، بما فيها الشباب، تعاني كثيرا، الا انها تصارع، وهي تحت ضغط هجوم فاشٍ متواصل، لإيجاد سبل للوحدة والنضال. وأتوقع أن يستمر هذا التوجه مع اقتراب البلاد من انتخابات التجديد النصفي لعام 2026 ثم الانتخابات الرئاسية لعام 2028. وبينما يكافح شعب الولايات المتحدة من أجل البقاء؛ السود والملونون والآسيويون والنساء وجميع العمال، يعتمد ترامب والحزب الجمهوري على القوة المناهضة للديمقراطية لكبح حركة الديمقراطية وحقوق العمال، التي تبني زخمها اليوم.

إذا نجحت الطبقة العاملة في إنهاء سيطرة ترامب على الكونغرس كما هو متوقع، فإن ذلك سيُشير إلى تحول هائل في موازين القوى، والى ما يمكن تحقيقه مستقبلاً على الصعيدين الداخلي والسلمي، اللذين يتشابكان تشابكاً وثيقاً. وذلك لأنه من الضروري توسيع المكون السلمي لهذا النضال ليشمل المطالبة بضرورة احترام حق الأمم في تقرير مصيرها.

ان اليسار الواسع في الولايات المتحدة هو يسار مناهض للشركات الكبرى، مناهض للعنصرية والتمييز على أساس الجنس، مؤيد للمهاجرين ولحقوق العمال. وثمة تيار اشتراكي متنام تمثّله انتخابات ماماداني في نيويورك وآخرين في أنحاء البلاد. ويكتسب هذا اليسار طابعاً عمالياً متزايداً بدخول النقابات في المعركة ضد حركة MAGA، كما تجلى بوضوح في احتجاجات مينيسوتا ضد دائرة الهجرة والجمارك. ان هذا الطابع العمالي يترك بصمته على تنظيم يوم العمال العالمي.

وأخيرا، لقد تراجعت موجة معاداة الشيوعية وبات الحزب الشيوعي الأمريكي يؤدي دوراً علنياً في هذه التحالفات دون أن يُقصى منها. وستُحدد قوة اليسار الواسع المستمرة مدى قدرته على التركيز في النضال من أجل الوحدة.

ان كلمة ''المقاومة'' منتشرة في كل مكان في الولايات المتحدة اليوم. فلن نعود إلى الأشكال الرأسمالية النيوليبرالية للحكم. اما ما سيأتي بعد ذلك فإنه يعتمد على الحركة العمالية والوحدة التي يمكن بناؤها بين الشعوب العاملة والمضطهَدة في الولايات المتحدة والعالم.

يا عمال العالم، اتحدوا!

أدب وفن

ثقافة السلام

حسب الله يحيى

على الرغم من كل الحروب السابقة والراهنة وربما المستقبلية..
وعلى الرغم من إدراك كل الشعوب والحكومات للكوارث التدميرية التي تلحقها الحروب بالإنسان والعمران؛ مازالت العديد من الدول تعمل على تعزيز بناء ترساناتها التسليحية والسعي الحثيث لامتلاك الأسلحة الفتاكة والمتطورة باستمرار، وإشغال الاذهان بالشعارات والحث على القتال والدخول في اتون الحروب..
وعلى الرغم من الخسائر الفادحة التي تلحقها الحروب بالعقول العلمية والخبرات الاستثنائية؛ الا ان هذه الحروب تواصل الاشتعال وتحت مسميات شتى وتوجهات مختلفة، فيما تدعي كل الأطراف الى انها تدافع عن حقوقها المغتصبة وصد العدوان عليها..
إن كل مسوغات الحروب، وكل السبل المستخدمة لتطوير الأسلحة، سوف تلحق الاضرار بالبشر والحجر، وإلحاق الأذى بكل ما بنته البشرية من سبل تعنى بحياة الانسان ورفاهيته وتقدمه وتحقيق أمنه وسلامته وعافيته.
في حين لو فكرنا وتأملنا واقعا جديدا يتمثل في انصراف البشرية وبما تملكه من طاقات علمية وفكرية، نحو السلام وبما يمثله، فإن هذا السلام سيوفر الطمأنينة للبشرية، لكي تنصرف العقول الى العمل المثمر الذي يحقق الحياة الرغيدة للإنسان عن طريق تطوير الصناعة والزراعة وتوفير الدواء والغذاء والسكن والعمل المخلص والبناء..
لكنا في خير حال وأحسن وأبهى حياة.
نعم.. لو انتقل التفكير من صناعة الحروب بما فيها من أسلحة واعداد بشري، الى التفكير في صناعة كل ما شأنه تحقيق السلم والعدالة والعيش الرغيد للإنسانية، عندئذ ستحيا البشرية في أبهى زمان وأجمل مكان..
ترى.. هل نتفاءل ـ ولو قليلا ـ بغد يسود فيه السلام كل البلدان ويعم الرخاء في حياة الشعوب؟

د. ممتاز كريدي.. سلاما، سلاما

السلام والتحية يليقان بالرجل الممتاز.. انسانية وعذوبة والقا وعطاءا: د. ممتاز كريدي وهو يفارقنا، بعد ان كانت كل حياته وافكاره منشغلة بالانسان وقضاياه الانية الملحة .
في ريف الحلة نشأ، وفي العالم المنفتح على كل الافاق ،كان الممتاز ينتقل موزعا بين عقل ماركسي نير، وترجمة هذا العقل الى عمل منجز في حياة شاقة وغربة قاسية .
الممتاز كريدي (1933 - 2026) درس "مشكلات شعبه وعوائق تطوير نظرية وطنية تقدمية للنقد الادبي في العراق" فكانت اطروحته البهية .
واذا كانت مقالاته وترجماته موزعة في الصحف والمجلات الرصينة؛ فأنه ظل طوال حياته غير معني بجمعها ونشرها، وقد ان الاوان لتقديمها في كتاب اثير يخلد ذكراه ويعمق تواصلنا مع منجزه الفكري التقدمي .
سلاما.. سلاما د.ممتاز كريدي

هيئة تحرير مجلة «الثقافة الجديدة»

إنطلاقا من فهمنا ان كل معني بالأدب والفن؛ لابد ان يكون على معرفة بالثقافات المجاورة: السياسة والاقتصاد والتربية وعلم النفس والاجتماع.. ننشر هذا المقال القيم الذي يحيط بجوانب سياسية راهنة لابد للمثقف ان يكون على معرفة بها وبأبعادها بوصفها قائمة ومحيطه بحياته ووعيه.

محرر ادب وفن

إمبراطورية الكوربورقراطية... أمريكا ولعبة الموت بين الأمم

أوس حسن

إنها لعبة قديمة قدم الإمبراطوريات في تاريخنا البشري، لعبة الهيمنة والنفوذ والغزو، وإسقاط الدول والحضارات، وإن صح التعبير بدقة أكثر، فالولايات المتحدة الأمريكية هي الإمبراطورية الكونية في عصرنا الحالي، إمبراطورية عالمية تستخدم كل أساليب التاريخ القديمة في حكم العالم والمناطق الخاضعة لنفوذها، لكن بطريقة القوة الناعمة، والأسلوب العصري الحديث المتماشي مع إيقاع التمدن والحضارة والعولمة.

إن الحقيقة القائلة بأن الإنسان قد غادر طريقة تفكيره البدائية فيما يخص التفكير والرغبة والملكية والجشع، هي حقيقة موضع سؤال وشك، فالصراعات التي تشغل العالم الآن، والحروب والمآسي البشرية هي ذاتها قبل آلاف السنوات، فما تغير فقط هي الأنساق العلمية والحضارية التي تحكم العالم. أما الخير والشر والبؤس الإنساني من فقر وحروب وأمراض وعبودية، فما زال كما هو، لكنه يرتدي أشكالاً جديدة، وأقنعة براقة تلمع وحشية الحضارة وتستبيح الإنسان تحت لافتة الرقي والتطور، وتحت مفاهيم أخرى مثل العدالة والسلام والمساواة.

إن الأحداث المتسارعة للعالم في الأعوام

الأخيرة ابتداءً من وباء كورونا إلى حرب أوكرانيا وروسيا، إلى حرب غزة، واغتيال زعماء مقاومة وقادة حرب ميدانيين مؤثرين في دولهم في الشرق الأوسط ،إلى الأزمة الإيرانية المتمثلة في حربها مع إسرائيل وأمريكا، وأحداث الشغب التي تعيشها الآن طهران وبقية المدن الإيرانية ، ثم جاء أخيراً اختطاف مادورو زعيم فنزويلا من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، ومطالبة ترامب بجزيرة غرين لاند التابعة للدنمارك لضمها إلى الولايات المتحدة؛ كل هذه الأحداث التي لم يعد يستوعبها العقل، لا بد أن تضع السياسة الأمريكية تحت مجهر المساءلة والنقد والمحاسبة، ولا بد لنا من معرفة الطريقة التي يجري بها العالم، وكيف يتم فعلياً حكم العالم، وبيد من؟

مصير العالم والبشرية ومافيات الاقتصاد

لا يمكننا أن نفصل السياسة الخارجية أو الداخلية لأي دولة بعيداً عن الاقتصاد، بل إن علم السياسة برمته لا ينفصل عن المكون الاقتصادي، وعليه يمكننا أن نحلل سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تحليلاً دقيقاً منذ خمسينيات القرن العشرين، فبعد سقوط الاتحاد السوفيتي وانهيار المعسكر الاشتراكي في العالم، ابتهج الكثيرون وصفقوا لانتصار النموذج الرأسمالي الذي يعد البشرية بالحرية والرفاهية والتطور.

إن الحكاية الخفية لأمريكا تبدأ من أزمنة الحرب الباردة بينها وبين والاتحاد السوفيتي، وإلى التحولات الجذرية التي أصابت أمريكا وبروزها كقوة دولية عظمى على الساحة الدولية، بعد الحرب العالمية الثانية، وتحديدا عندما تأسس النظام العالمي المعاصر، وتشكل البنك الدولي، وصندوق النقد لإعادة إعمار أوروبا المدمرة. وحققا في ذلك نجاحات بارزة، وسرعان ما تبنت كل الدول الحليفة للولايات المتحدة هذا النظام وأقرته في وجه الاتحاد السوفيتي السابق، بعدها أصبح الدولار هو العملة العالمية الوحيدة للتداول، والتي تطبعها فقط الولايات المتحدة الأمريكية.

بعد تلك الحقبة، يمكننا الحديث عن بروز نظام خفي يحكم الولايات المتحدة والعالم، وهو قطاع الشركات الكبرى الخاصة التي تدير نظام الحكم في أمريكا والعالم بناءً على الربح والفائدة. ويتصل كل من جهاز المخابرات الأمريكي ال سي. اي. ايه، والمسؤولين الكبار في أمريكا والجيش الأمريكي بتلك الدائرة السرية في الخفاء، وعادة ما يتبادل المسؤولون الحكوميون في أمريكا مناصبهم بين مديري تلك الشركات أو مالكيها، وبين وظيفتهم الحكومية في الدولة من الرئاسة إلى قيادة الجيش والاستخبارات، ومنهم الرئيس الأمريكي الأسبق دونالد ريغان، والرئيس جورج دبليو بوش، وديك تشيني نائب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية من عامي 2001 إلى 2009، ومهندس غزو العراق عام 2003.

في كتاب "الاغتيال الاقتصادي للأمم" للخبير الاقتصادي الأمريكي جون بيركنز(*)، يقدم بيركنز مجموعة من الاعترافات والأدلة بوصفه قرصاناً اقتصادياً سابقاً، وبأنه كان ضمن مجموعة من القراصنة الاقتصاديين المنتمين لتلك الشركات الكبرى، ويسلط الضوء على ممارسات النخبة من رجال الأعمال والسياسة في الولايات المتحدة، لبناء إمبراطورية عالمية تسيطر عليها

"الكوربورقراطية"، أي حكم منظومة الشركات الكبرى، والتي تشكل عصب اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية، وترسم سياستها الداخلية والخارجية ومصالحها مع العالم.

يحدد بيركنز دوره مثل أقرانه من صفوة الخبراء في الشركات الاستشارية الأمريكية الكبرى في استخدام المنظمات المالية الدولية لخلق ظروف تؤدي إلى خضوع الدول النامية لهيمنة النخبة الأمريكية التي تدير الحكومة والشركات والبنوك، فالخبير يقوم بإعداد الدراسات التي بناء عليها توافق المنظمات المالية على تقديم قروض للدول النامية المستهدفة، بغرض تطوير البنية الأساسية وبناء محطات توليد الكهرباء والطرق والموانئ والمطارات والمدن الصناعية، بشرط قيام المكاتب الهندسية وشركات المقاولات الأمريكية بتنفيذ هذه المشروعات. وفي حقيقة الأمر، فإن الأموال بهذه الطريقة لا تغادر الولايات المتحدة، حيث تتحول ببساطة من حسابات بنوك واشنطن إلى حساب شركات في نيويورك أو هيوستن أو فرانسيسكو، ورغم أن هذه الأموال تعود بشكل فوري إلى أعضاء في الكوربورقراطية فإنه يبقى على الدولة المتلقية سداد أصل القرض والفوائد. أما المثير في اعترافات بيركنز فهو تأكيده بأن مقياس نجاح الخبير يتناسب طردياً مع حجم القرض بحيث يجبر المدين على التعثر بضع سنوات، وعندئذ تفرض شروط الدائن التي تتنوع في عدة أمور، مثل: الموافقة على تصويت ما في الأمم المتحدة، أو السيطرة على موارد معينة في البلد المدين، أو قبول تواجد عسكري داخل هذا البلد، وتبقى الدول النامية بعد ذلك كله مدينة بالأموال، ولكن في ظل الهرم الرأسمالي التي تشكل أمريكا قمته. ويسلب القراصنة الاقتصاديون ملايين الدولارات من دول كثيرة في سائر أنحاء العالم، ولتحقيق ذلك، تتنوع وسائلهم وأدواتهم بين اصطناع التقارير المالية، وتزوير الانتخابات والرشوة والابتزاز والجنس والقتل، لكنها تأخذ أبعاداً جديدة ومخيفة في عصرنا الراهن.

يحدد بيركنز نماذج التنبؤ التي يستعين بها الخبير لدراسة تأثير استثمار مليارات الدولارات في بلد ما على النمو الاقتصادي المتوقع لسنوات قادمة، ولتقويم المشروعات المقترحة. ويكشف الطابع المخادع للأرقام الجافة، فنمو الناتج الإجمالي القومي قد يكون نتيجة استفادة أقلية من المواطنين (النخبة) على حساب الأغلبية بحيث يزداد الثري ثراءً ويزداد الفقير فقراً. ورغم ذلك فإنه من الناحية الاقتصادية، يعتبر تقدما اقتصادياً.

وعليه، يكشف بيركنز الجانب غير المرئي في خطة القروض والمشروعات، وهو تكوين مجموعة من العائلات الثرية ذات نفوذ اقتصادي وسياسي داخل الدولة المدينة، والتي تشكل امتداداً للنخبة الأمريكية، ليس بصفة التآمر، ولكن من خلال اعتناق نفس أفكار ومبادىء وأهداف النخبة الأمريكية الحاكمة، والدفاع عن الليبرالية بالمفهوم الأمريكي، وبحيث ترتبط سعادة ورفاهية الأثرياء الجدد بالتبعية طويلة المدى للولايات المتحدة الأمريكية. رغم أن عبء القروض سيحرم الفقراء من الخدمات الاجتماعية لعقود قادمة، ويدلل بيركنز على ذلك بأن مديونية العالم الثالث قد وصلت إلى 2،5 تريليون دولار، وأن خدمة هذه الديون بلغت

375 مليار دولار سنوياً في عام 2004، وهو رقم يفوق كل ما تنفقه دول العالم الثالث على الصحة والتعليم، ويمثل 30 ضعفاً لما تقدمه سنوياً الدول المتقدمة من مساعدات خارجية.

القراصنة الاقتصاديون ينهبون ثروات أمريكا اللاتينية

كانت أولى أعمال جون بيركنز في الاكوادور التي عاش فيها فترة من الزمن، وكتب عن تاريخها وعاداتها، وعن ثقافة سكانها الأصليين في غابات الأمازون. يعترف بيركنز بأنه هو وزملاؤه كانوا قد دفعوا الاكوادور إلى الإفلاس، ففي غضون ثلاثين عاماً ارتفعت نسبة الفقر من 50% إلى 70%، وازدادت نسبة البطالة من 15% إلى 70%، وكانت الاكوادور تخصص قرابة 50% من ميزانيتها لسداد الديون، الأمر الذي اضطرها إلى بيع غابات الأمازون إلى شركات البترول الأمريكية، نظراً لكون مخزون غابات الأمازون من النفط يحتوي على احتياطي يعتقد أنه منافس للشرق الأوسط. أضف إلى ذلك، فإن شركات البترول قامت بتسميم المياه بالنفايات السامة، والقضاء على الثروة الطبيعة من أسماك وطيور ونباتات وحشرات. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تعداه إلى عمليات تزوير وسرقة لأراضي السكان المحليين، وجرائم قتل وحتى تحرش بالنساء أيضاً.

وعندما حاول رئيس الاكوادور خايمي رولدوس فرض سيادة بلاده على مصادر النفط وتوجيه الثروات الطبيعية إلى داخل البلاد، طاله الاغتيال في حادث طائرة مدبر في 24 مايو من عام 1981.

أما بالنسبة لغواتيمالا، فقد قام رئيسها أربنز الذي جاء إلى الحكم من خلال انتخابات حرة وديمقراطية في الخمسينيات من القرن العشرين، بتأمين برنامج إصلاح زراعي يهدد مصالح شركة يونايتد فروت الأمريكية التي تأسست في أواخر القرن التاسع عشر، ونمت لتصبح من القوى المسيطرة على أمريكا الوسطى بما لها من مزارع كبرى في غواتيمالا ونيكاراجوا وكوستاريكا وجمايكا وبنما، الأمر الذي خلق سابقة خطيرة للشركة في المنطقة، وعليه فقد قامت الشركة بحملة دعائية واسعة داخل الولايات المتحدة تركز على أن أربنز يعمل في إطار مؤامرة سوفيتية على أمريكا، وهكذا قامت (السي. اي. ايه) في عام 1954 بتدبير انقلاب على النظام المنتخب ديمقراطياً، وضرب الطيارون الأمريكيون العاصمة، واستبدل أربنز بدكتاتور يميني متطرف هو الكولونيل (كارلوس أرماس)، الذي ألغى على الفور الإصلاح الزراعي والضرائب على الاستثمار الأجنبي ونظام الاقتراع السري في الانتخابات، وأودع في السجون الآلاف من المواطنين.

أساليب وطرق القرصنة الاقتصادية

هكذا يمكننا أن نستنتج أن إمبراطورية الكوربورقراطية تعتمد في عملها على مجموعة من الشبكات المتصلة التي تبدأ بالقرصنة الاقتصادية تحت شعار التنمية والاستثمار، وشبكة المخابرات المركزية، والقرار السياسي الأمريكي بغزو الجيش الأمريكي للدول التي ترفض الانصياع لمغريات القراصنة الاقتصاديين. أما شبكة المخابرات فتكون ممثلة بما يسمى بالثعالب،

وتكون مهمتها إشعال الفوضى والفتن، ومحاولة إسقاط النظام داخليا ً للدول التي ترفض عرض منظومة الشركات الأمريكية في العمل داخل أراضيها، أو تأميم البترول وتوجيه عائدات الثروة الوطنية إلى الداخل. ويمككنا أن نلاحظ مثالاً على عمل الثعالب في إيران عام 1951، عندما تمردت إيران على شركة بترول بريطانية كانت تستغل موارد إيران الطبيعية وشعبها. كانت تلك الشركة أهم شركات مؤسسة بترتيش بترولم، وردا ً على هذا الاستغلال، أعلن رئيس الوزراء الإيراني المحبوب جماهيرياً، والمنتخب ديمقراطياً محمد مصدق تأميم أصول البترول الإيراني، فجن جنون بريطانيا ولجأت للولايات المتحدة الأمريكية حليفتها في الحرب العالمية الثانية لمساعدتها، لكن الدولتين تخوفتا من اللجوء إلى الحل العسكري، لأن هذا سيتسفز الاتحاد السوفيتي ويجعله يتخذ موقفا ً مسانداً لإيران. وبدلا ً من إرسال البحرية الأمريكية (المارينز)، أرسل على وجه السرعة عميل المخابرات المركزية الأمريكية كيرمن روزفلت حفيد تيودور روزفلت، وقد أدى دوره بمهارة شديدة، واستطاع أن يكسب الناس بالرشاوى والتهديدات، ثم حرضهم على تنظيم أعمال شغب في الشوارع، والسير في مظاهرات عنيفة أدت إلى خلق انطباع بأن مصدقاً ليس رجلاً وغير كفء. وفي النهاية سقط مصدق وأمضى بقية حياته في الإقامة الجبرية، وأصبح الشاه محمد رضا الدكتاتور المرعب، صديق أمريكا وحليفها في الشرق الأوسط. وهذا الماضي هو انعكاس لما يحدث اليوم في إيران من فوضى وشغب داخلي ومحاولة لإسقاط النظام مع التلويح في الوقت نفسه بالحرب المباشرة والضربة العسكرية ضد النظام الإيراني المستقل عن لعبة المافيات الاقتصادية وحرب القراصنة الأمريكيين.

ويمكننا في فترة الخمسينيات تلك، أن نرى الحرب الاقتصادية لمنظومة الكوربورقراطية بشكل غير مباشر متمثلة بالعدوان الثلاثي على مصر عام 1956، بعد تأميم قناة السويس من دول هي حليفة لأمريكا كبريطانيا وفرنسا وإسرائيل، أو بحرب الثعالب وتخطيط المخابرات المركزية الأمريكية، كما في حالة انقلاب البعثيين على عبد الكريم قاسم الذي أمم النفط العراقي وطرد الاستعمار والشركات الإمبريالية من العراق، بعدما أسقط النظام الملكي وأسس الجمهورية العراقية.

بنما وفنزويلا والعراق

في بدايات عام 2026 اُختطف رئيس فنزويلا مادورو من بيته هو وزوجته في عملية أمريكية خاطفة ونوعية تدل على حجم وقدرة التطور العلمي والتكنولوجي الذي وصلت إليه أمريكا، بعدما شلت أمريكا المراكز الحيوية العسكرية، واغتالت قادة مهمين في الجيش الفنزويلي، الأمر الذي أدى إلى تعطيل كل أنظمة الدفاع الفنزويلية. كانت حربا ً خاطفة ومفاجئة وصادمة، فقد اُقتيد الرئيس الفنزويلي وزوجته إلى واشنطن للمحاكمة بتهمة الفساد وتجارة المخدرات، وتهديد الأمن القومي الأمريكي. وقد ضجت قنوات الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي بهذا الحدث الذي يدل على تطور شكل جديد من أشكال الحرب المعتمدة على التقنية العلمية، وعلى حرب معلومات فائقة الدقة. كذلك يثبت لنا هذا الحدث المزلزل المفهوم الهش لسيادة الدول واستقلالها، وضعف انفرادها بقرارها السياسي والاقتصادي.

إن رؤية الحدث من زاوية تاريخية يزيل عنه طابع الدهشة والصدمة، فقراءة متمعنة وعميقة لتاريخ أمريكا المعاصر يثبت لنا أن هذه العملية لم تكن الأولى من نوعها في أمريكا اللاتينية، بل سبقتها غواتمالا وبنما، وقبل كل شيء معاهدة مونرو التي وقعت عام 1823، والتي تتيح لأمريكا التدخل في شؤون أمريكا اللاتينية، وتمنع أي قوة دولية أو فكر سياسي يهدد أمريكا أن يستوطن دول أمريكا اللاتينية، وعلى هذا الأساس رسمت أمريكا سياستها الخارجية تجاه هذه القارة، وأتاحت لها التدخل عسكرياً وسياسياً في شأن أي دولة من أمريكا الجنوبية.

كان عمر توريخوس رئيس بنما يحظى بشعبية هائلة ومحبة كبيرة من الشعب البنمي وبقية دول العالم، وكان احترامه نابعاً من أنه أرغم الولايات المتحدة الأمريكية على التخلي عن قناة بنما وتركها لأصحابها الحقيقيين، وواصل الوقوف ضد رونالد ريغان. وكان بطلاً في الدفاع عن حقوق الإنسان، ورئيس دولة فتحت ذراعيها للاجئين، وكان ذا صمت مؤثر في جانب العدالة الاجتماعية. واعتقد الكثيرون أنه سيرشح لجائزة نوبل للسلام، إلا أنه قتل بعد مقتل خامي رولدوس رئيس الإكوادور بشهرين، وتحديداً في يوليو من عام 1981، على يد المخابرات الأمريكية، وانقلب العالم رأساً على عقب، وخرجت مظاهرات حاشدة ومنددة بمقتله في مدن أمريكا اللاتينية ومدن العالم.

لم يكن مانويل نوريجا الذي تولى رئاسة بنما بعد عمر توريخوس، بنزاهة وشعبية وعدالة توريخوس، فقد عرف عن توريغا بتورطه في الفساد وتجارة المخدرات، إلا أن نوريجا ظل وفياً لعهد سلفه توريخوس في استقلالية قناة بنما وسيادة القرار الداخلي الاقتصادي، لكن العالم وجد نفسه مذهولاً وهو يرى الولايات المتحدة تقوم في 20 ديسمبر من عام 1989، بالإغارة على بنما بهجوم جوي عنيف صُنف كأعنف قصف جوي على مدينة بعد الحرب العالمية الثانية، كان هجوماً بلا مبرر على سكان عزل، فلم يحدث أن مثّل شعب بنما أي خطر على الولايات المتحدة ولا غيرها من الدول. وقد شجب السياسون والحكومات والإعلام العمل الفردي الذي اتخذته الولايات المتحدة تجاه بنما في انتهاك صارخ لحقوق الإنسان والقانون الدولي.

لقد أصرت بنما على أن تحترم اتفاقية القناة، وأن تكون بنما مستقلة وذات سيادة. إضافة إلى ذلك كانت بنما قد استكشفت إمكانات بناء قناة جديدة بالتعاون مع شركات التمويل والإنشاء اليابانية، فكانت النتيجة عقوبة جماعية لبلد وشعب بأكمله.

اعتمد التبرير الذي صاغته واشنطن لهجومها على بنما على استهداف رجل واحد. لقد كان إسقاط نوريجا هو المبرر الوحيد للولايات المتحدة الأمريكية لإرسال جنودها رجالاً ونساء ليخاطروا بحياتهم وضمائرهم، فيقتلون الأبرياء، بمن فيهم أعداداً لا تحصى من الأطفال، ويضرمون النيران في أحياء ضخمة من العاصمة بنما.

لقد صوروا نوريجا على أنه شيطان وعدو للشعب، وتاجر مخدرات بشع، ومن ثم فقد قدم للإدارة الأمريكية العذر كي تقدم على غزوها الكاسح لدولة يقطنها مليونا نسمة.

وأسلوب شيطنة الدول واتهامها بالإرهاب، ثم تجويعها ومحاصرتها، هو أسلوب ما زال متبعاً حتى وقتنا الراهن في السياسة الخارجية الأمريكية.

يعلق جون بيركنز على غزو بنما، ويرى أن ذلك كان إشارة إلى أن السياسة الأمريكية ارتدت إلى الأساليب العتيقة في بناء الإمبراطوريات، إلى درجة أن إدارة بوش قررت أن تزايد على إدارة ريغان وتظهر للعالم عدم ترددها في استخدام القوة من أجل تحقيق غاياتها. وقد بدا أيضاً أنه إلى جانب رغبة الولايات المتحدة في إزاحة إرث توريخوس وتنصيب حكومة صورية موالية للولايات المتحدة، كان الهدف المطلوب من بنما هو ترويع دول أخرى مثل العراق وإجبارها على الخضوع.

كان نوريجا هو سجين الحرب الوحيد في غزو أمريكا لبنما، فقد جيء به إلى الأراضي الأمريكية ليواجه المحاكمة والسجن بحجة انتهاكه القانون الأمريكي على أرض بلده وداخل نطاق نفوذه الوطني. وقدرت منظمات حقوق الإنسان الحجم الحقيقي للمذبحة التي ارتكبها الأمريكيون في بنما بين 3000 إلى 5000 قتيل و25000 مشرد.

عندما أنقذ العراق فنزويلا

بعد نجاح القراصنة الاقتصاديين، وعلى رأسهم جون بيركنز في المملكة العربية السعودية التي استثمرت فيها مشاريع هائلة من البنى التحتية، ومحطات توليد الطاقة والكهرباء، ومد الجسور والطرقات، وبناء المدن الصناعية، أصبحت المملكة العربية السعودية تابعة سياسياً في قرارتها للولايات المتحدة مقابل حماية أمنها وبقاء آل سعود على سدة الحكم، فوضعت المملكة دخلها من البترول تحت يد الحكومة الأمريكية مقابل هذا الشرط. لقد خرجت المملكة العربية السعودية من مجتمع القرون الوسطى، وبدأت باللحاق بركب العصر الحديث والعالم المعاصر، وكلما زاد اقتصاد المملكة العربية السعودية تشابكاً وخضوعاً لمصالح الولايات المتحدة، كلما ازداد تقليدها للأسلوب الغربي وميلها وتبعيتها لقرارات أمريكا وسياساتها الخارجية.

كان القراصنة الاقتصاديون يظنون أن الأمر سهل مع صدام حسين، وسيحذو حذو المملكة العربية السعودية، وتحديداً بعد معاهدة البترودولار، إلا أن القراصنة الاقتصاديين خاب ظنهم وفشلوا فشلاً ذريعاً في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، رغم أنهم كانوا سيرضخون لطلبات صدام في نزعته التوسعية في الشرق الأوسط والعالم العربي، ووصل الحد إلى أنهم كانوا سيوافقون على بناء منشآت نووية، وأسلحة حديثة متطورة، وسيغضون الطرف عن دكتاتورية صدام وجرائمه الوحشية تجاه شعبه والدول المجاورة، بل يمكننا القول بأنهم كانوا يعدون لخلق هتلر آخر في الشرق الأوسط مقابل أن تستثمر الشركات الأمريكية الكبرى في العراق، ويكون العراق حليفاً استراتيجياً قوياً للأمريكان لا يقل قوة عن إسرائيل وإيران في زمن الشاه.

لكن كيف أنقذ العراق فنزويلا من غزو مؤكد في عام 2003؟

يقول جون بيركنز: "إن العراق ليس فقط هو النفط، ولكنه أيضاً المياه والموقع الاستراتيجي، والسوق الواسعة للتكنولوجية الأمريكية وخبرتها الهندسية".

ولقد بات واضحاً منذ عام 1989 للنخبة الأمريكية التي ساندت صدام حسين في حربه ضد إيران. أن صدام لن يسير في السيناريو الاقتصادي المرسوم له. وأما بالنسبة لفنزويلا فهي رابع مصدر للبترول في العالم، وثالث

مورد للولايات المتحدة، وهي تعتبر حاليا ًأكبر احتياطي للنفط. كانت الأمور قد تأزمت بين البلدين، عندما فرض شافيز إجراءات ملزمة وتولى السيطرة على القضاء وغيره من المؤسسات، وحل البرلمان الفنزويلي. لقد ندد شافيز بسياسة الولايات المتحدة الإمبريالية الفاضحة، وقدم نقدا ًلاذعا ًللعولمة، وفرض قانونا ًجديدا ً للتنقيب عن البترول شبيها ًحتى في اسمه بذلك القانون الذي فرضه خايمي رولدوس في الاكوادور قبل أن يلقى مصرعه في تحطم طائرته المروحية.

قام شافيز بفرض سيطرة بلاده على البترول في ديسمبر من عام 2002، وحاولت إدارة الرئيس جورج دبليو بوش خلعه عن الحكم بطريقة سياسة الثعالب المتبعة كحل ثانٍ في منظومة الكوربورقراطية الأمريكية، إلا أن شافيز عاد إلى الحكم مستنداً إلى الجيش الذي وقف إلى جانب الشعب. بخلاف مصدق في إيران، ولم تتمكن أمريكا في عام 2003 من تكرار سيناريو إيران عام 1951 في فنزويلا، فقد جاء الغزو الأمريكي للعراق لينقذ فنزويلا، حيث لم يكن بإمكان الإدارة الأمريكية شن الحرب على عدة جهات: أفغانستان، والعراق، وفنزويلا في التوقيت نفسه.

يقول بيركنز في اعترافاته: "راقبت فنزويلا لسنوات عديدة. كانت مثالاً تقليديا ًللدولة التي نهضت من الفقر إلى الثراء نتيجة اكتشاف البترول. كانت كذلك نموذجا ًللاضطرابات التي تحركها ثورة البترول، وفقدان التوازن بين الأثرياء والفقراء، ومثالاً لبلد استغلته الكوربورقراطية بصفاقة".

الأهداف الاستراتيجية

تهدف أمريكا إلى بناء نظام عالمي تسيطر عليه الولايات المتحدة، ويتم من خلاله نمو وازدهار الأعمال الأمريكية، وتأسيس منظومة عالمية تتشكل من النخبة في جميع البلدان، تؤدي مكوناتها المختلفة مهاماً ًمحددة لصالح الشركة الأمريكية، سواء كمراكز تصنيع أو كأسواق استهلاك أو كمصادر للطاقة والمواد الخام.

لذلك تسعى الإدارة الأمريكية إلى تقسيم العالم إلى مناطق اقتصادية نوعية تخدم كل منها على حدة أغراض الشركات الأمريكية.

إن ما يريده النظام الأمريكي في حقيقة الأمر ليس التجارة الحرة، بل احتكار المستقبل لصالح منظمة الشركة الأمريكية في دخول الأسواق واستغلال الموارد واحتكار التكنولوجيا والاستثمار والإنتاج العالمي.

ولا يقتصر ارتباط الدولة في أمريكا مع الشركات الكبرى على الجانب الاقتصادي، فهناك الجانب السياسي المرئي وغير المرئي، مثل تبادل أفراد النخبة المراكز العليا في الدولة والشركات، ومساندة الدكتاتوريات والأنظمة اليمينية المتطرفة، مثل الرئيس الأندونيسي سوهارتو، وزعيم تشيلي بيونشيه، والرئيس الكوري بارك تشونغ، ورئيس الكونغو الديمقراطية موبوتو، إضافة إلى حكم آل سعود في المملكة العربية السعودية التي تعتبر أكبر ممول وداعم للإرهاب. والسعودية على حد تعبير مسؤول رفيع في وزارة الخزانة الأمريكية، هي بؤرة تمويل الإرهاب من أواخر الثمانينيات إلى ما بعد غزو العراق في عام 2003، وكان تمويل الإرهاب والحركات الأصولية المتطرفة يجري بشكل واضح وعلني تحت أنظار الإدارة الأمريكية ودعمها المستمر.

هكذا تصبح الأنظمة الأصولية المتطرفة

والأنظمة الشمولية القمعية، حليفة دائمة للولايات المتحدة عندما ترتبط مصالحها ش الكبرى. كما أنها تشكل معها جداراً منيعاً في وجه الأنظمة الوطنية التي تبحث سيادتها واستقلالها ورفاهية مواطنيها بعيداً عن مافيات الاقتصاد، وعن لعبة المال والسياسة التي تلعبها الولايات المتحدة لإحكام نفوذها وبناء إمبراطوريتها العالمية.

لماذا الاعترافات؟

لا يضر الولايات المتحدة الأمريكية إن أصبحت جرائمها من التاريخ، ولا تدينها الوثائق والأدلة إن مضى عليها فترة من الزمن، ما دامت تحقق أهدافها الاستراتيجية ومصالحها في الوقت الحالي. وهنا نستنتج، لماذا لم يستطع جون بيركنز أن ينشر كتابه "الاغتيال الاقتصادي للأمم" إلا بعد أكثر من ثلاثين عاماً، رغم أنه تعرض للتهديد والرشاوى في ذلك الزمن الذي كان ينوي فيه نشر كتابه. كما يجب ألا ننسى أن بنية النظام الرأسمالي التي تحفر في وجدان النخبة الأمريكية تخلق للإنسان رغبات زائفة وحاجات زائفة، أضف إلى ذلك فإنها توفر له عدة خيارات توهمه بالحرية كالسلطة والسلطة المضادة، والنقد وبدائله، و المصادر المتنوعة للمعرفة ووسائل الإعلام والتواصل، إلا أنها في النهاية تصب كلها في مصلحة النخبة الحاكمة وأهدافها ومبادئها، ما دام كل شيء قابلاً للتسليع والاستهلاك حتى الإنسان نفسه، كل ما ينتجه النظام الرأسمالي من بدائل وخيارات ومعارضة تعمل على تعليب الوعي، وعلى إعادة إنتاج السلطة مرة أخرى، مع المراقبة الحثيثة لتلك السلطة ألا يتحول أي فكر خلّاق ومبدع إلى واقع إجرائي أو فعل سياسي.

تأتي اعترافات بيركنز بمثابة تطهير وخلاص من خطايا الماضي وجروحه العميقة، والمضي قدماً نحو العالم الذي يحلم به الإنسان، إنه موقف وجودي وأخلاقي كبير، لكن ما أغفله بيركنز أو محاه عامدا أو ساهياً من ذاكرته، هو إسرائيل في الشرق الأوسط، والنخب الصهيونية المتحكمة في منظومة الشركات العالمية الكبرى. هذا هو السؤال الذي سيبقى مفتوحاً وينتظر إجابة من بيركنز أو من الصراعات والحروب القادمة في العالم.

***..جون بيركنز، الاغتيال الاقتصادي للأمم (اعترافات قرصان اقتصادي)، ترجمة ومراجعة: مصطفى الطناني، عاطف معتمد، تقديم شريف دلاور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2012.**

جون بيركنز: John perkins:

، من مواليد 1945 في الولايات المتحدة الأمريكية، اقتصادي وكاتب أمريكي، عمل في شبكات استشارية وحكومية دولية، واكتسب خبرة في علاقات التمويل الدولي وسياسات القروض الخارجية. اشتهر بكتابه

، والذي سرد فيه تجاربه حول كيفية ممارسة النفوذ المالي على الدول النامية

Confessions of an ECONOMIChit MAN (2004)

يا صائغا للكلمات الصادقة.. وداعا

السنوات التسعون التي احتفى بها زمانك عسلا وحنظلا ؛ لم تكن سنوات عزلة عن الناس الذين احبوك ..
فقد كنت بينهم شاعرا وصحفيا وفنانا وسينمائيا وناقدا .. وقبل ذلك كله الانسان التقدمي الذي نذر وجودة من اجل الاخرين ..
لذلك استعادوا جذر حضوره بينهم والق تساميه عن كل ما هو عابر وسطحي في الحياة ..
وظل (نشيد الكركدن) نشيدك الوحيد المفضل والخالد بينهم ، بينما كان حضورك البهي يسكن في قلوبهم وعقولهم وارواحهم .
هذا هو انت يا صادق الصائغ .. مبتكر المحبة عن طريق الابداع .
كنت شجرة باسقة وغابات من الكلمات الحية والرؤى الجمالية المشرقة بهاء وعطاء ثرا .
وداعا .. لقد كنت صائغا ماهرا وصادقا في كل ما اعطيت ..
وداعا

هئية تحرير مجلة «الثقافة الجديدة»

عليّ جواد الطّاهر.. الكاتب

د. سعيد عدنان

زاولَ عليّ جواد الطاهر (1919 – 1996) الكتابةَ والنشر منذُ صدرِ حياته، وظلّ يكتبُ وينشرُ حتّى آخرِ أيّامِه؛ فقد كتب مقالةً، نشرها في جريدة البطحاء، يوم 15 نيسان، من سنة 1946، هي من أُولَيات ما كتب، عنوانُها " بيتٌ في قصيدة "، أدارها على بيت أبي العتاهية:

ترجو النجاةَ ولم تسلِكْ مسالِكَها ...
إنّ السفينةَ لا تجري على اليَبَسِ

وجعلَ مقصدَه منها؛ أنّ بلوغَ المرام مرهونٌ بتهيئةِ الأسباب، وأنّ النجاةَ قرينةُ العملِ الدائب، وأنّ التمنّي، وحدَه، ضربٌ من الضلال. ولقد انطوتْ تلك المقالةُ القديمة على عناصرَ من خصائص شخصه، وخصائص أُسلوبه؛ ذلك أنّ ممّا أحكمَ عليه مجرى حياتِه؛ الأخذَ بالحزم والعزم في كلّ الأحوال، ومباعدةَ التواني، والتراخي، وأنّ ممّا أجرى عليه أُسلوبَه إحكامَ الجملةِ الواضحةِ المقتصدة، وإشاعةَ أشياءَ من الطرافةِ والطراوة.

وهو من قبلِ أن يكتبَ هيّأ للكتابةِ أسبابَها؛ فقرأ، وحفِظَ، ولزِم كتبَ الأدبِ، في الرفيعِ منها، في ميداني الشعرِ والنثر. ونظمَ الشعرَ، وهو فتى، وأراد أن يكون شاعرًا؛ ولكنّ ما تحقّق له من المنظوم لم يُرضه، فأضرب عنه صفحًا، وطوى كَشحًا؛ على أنّ جذوةً من روح الشعر بقيت حيّةً عنده، لا تنطفئ؛ متّخِذةً من الكتابة منفذًا لها.

كان مشغوفًا بطه حسين، وبما يكتب من نثرٍ رفيع؛ فقد أقبل على "الأيّام"، وهو في الثالثةَ عشرةَ من عمره؛ إذ دلّه عليها أستاذه، في المدرسة المتوسّطة، محمّد أحمد المهنّا، وقرأ فصولًا من "على هامش السيرة"، وهي تُنشر منجّمةً، قبل أن يضمّها كتابٌ، وأُخِذ بخيالها، وبيانها، وبإيقاعِ ألفاظها. وعرَف أحمد حسن الزَّيّات في قلمه، وفي مجلّته "الرسالة"، وهي يومئذٍ مَجْمَعُ أصحاب القلم المبين، وأحبّ افتنانَه في الكتابة، وصنعته في البيان. وعرف آخرين من كتّاب ذلك العصر كعبد العزيز البشريّ، وزكي مبارك، ومحمّد عوض محمّد؛ فكان أن استقرّ عنده منحى الكتابةِ المُبِينَة في اللفظِ، والجملةِ، وتتابعِ الفِقَر، وتتامِّ المعنى. وحين شرعَ

بالدراسة في فرنسا، وعرَف الفرنسيّةَ، وأخذ يقرأ آثارها؛ نفَذت إليه أشعّةٌ من لغةِ جان جاك روسّو، وأطيافٌ من الجفاف الطري في عبارةِ ستندال، وأشياءُ من متانةِ أندريه جيد. بذلك كلّهِ، وبالطبع المواتي، صار البيانُ مكينًا عنده، راسخًا، في لسانه وفي قلمه؛ وهو، من بعدُ، بيانٌ قرينُ الوضوحِ والسلاسةِ، والوجازةِ المحيطةِ بالمقاصد منَ دون إخلالٍ أو إملال.

ولقد جرت كتابتُه في منحيين متآزرين هما: الكتابةُ الأكاديميّة في البحث والتأليف، والكتابةُ في الصحف والمجلّات العامّة؛ وقد حرَص عليهما معًا مدّةَ حياته، وأقامهما على شرائطهما من غير أن يطغى منحى على آخر. وهما منحيانِ قلّما يلتقيان على قلم معًا، وقلّما يبرع في كليهما أحد؛ إذ ليس من شرط الدارسِ الباحث أن يُحسنَ الكتابةَ للصحافة، وليس من شرطِ من يكتبُ في الصحفِ اليوميّة أن يكون دارسًا باحثًا على النهج الأكاديميّ؛ لكنّهما متى التقيا عند أحد تكاملا واستحكما في الطريقة والمحتوى.

كان " الشعر العربيّ في العراق وبلادِ العجم في العصر السَّلجوقيّ " أوّلَ عملٍ له، وضعه بالفرنسيّة، ونال به الدكتوراه من جامعة السوربون، في سنة 1954، ثمّ ترجمه إلى العربيّة ونشره بجزأين الأوّل في سنة 1958، والثاني في سنة 1961. وقد جعله بعربيّةٍ واضحةٍ مقتصدةٍ تُحيط بالمراد؛ لا تقصُر عنه، ولا تزيدُ عليه؛ هي مثالٌ لما ينبغي أن تكون عليه لغةُ بحثٍ رصين.

وحين كان منشغلًا بترجمة "الشعر العربيّ في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقيّ" إلى العربيّة، كان يكتب مقالاتٍ في مجلّة " المعلم الجديد"، وفي مجلّة "الأديب العراقيّ " يعالج فيها أطرافًا من شؤون الأدب والنقد؛ أقامها على مزيدٍ من السلاسة والتدفّق، وعلى جانبٍ من التهكّم الناقد؛ كمثل: "النقد سهل"، و"أنا ناقد مسرحيّ" و "ألفُ شرط وشرط"، و "شرطٌ في المغني"، وغيرها. وقد اتّضح، بذلك، نمطا الكتابةِ، عنده، واستقرّا، وظلّا حاضرين على قلمه مدّةَ حياته؛ نمطُ البحثِ والدراسة، ونمطُ المقالةِ الأدبيّة؛ وكلاهما قائم بشرط الفصاحة والبيان، وهو في كليهما كاتب مبين.

قال في مورد من " الشعر العربيّ ..." وهو في سياقِ الحديث عن الطُّغرائيّ وعن لاميّته: " وقد حازت هذه اللاميّةُ إعجابَ القرّاء والسامعين والنقّاد على مرّ العصور، وهي أهلٌ لذلك، لما فيها من متانةٍ في السبك، وجيشانٍ في العاطفة، وخصبٍ في القريحة؛ وتُفسّر حِكَمُها الجانبَ الأكبرَ من عناية القدماء بها." والموردُ مثالٌ، على ما سواه، يشهدُ بالوضوح، والوَجازةِ، وسَدادِ الدلالة، والإفادةِ من التاريخ، وينبئ عن ذوقٍ رصين لا تخفى عليه مواطنُ الإجادة.

وقالَ في مقالة بعنوان: "ألفُ شرط.. وشرط"، وهو في سياق بيان مكانةِ النقد والناقدِ: " أي نعم، ألفُ شرط يجب أن تتوافر في الإنسان لكي يكون ناقدًا، وشرطٌ واحد لكي يكونَ شاعرًا، فلماذا؟ أما في ذلك حيفٌ يلحق كائنًا من الناس؟! ألفُ شرط، وأنتَ تعلم منها العلمَ العميقَ الواسع، ولا بدّ من دراسةِ اللغة والتاريخ والدين والأخلاق والجغرافية، والفلسفةِ وعلم النفس وعلم الاجتماع، والفيزياءِ والكيمياء والفسلجة! ولقد بالغنا وأثقلنا، وكان القدامى أرحمَ إذ أشاروا إلى الأخذ من كلّ علم بطرف." وهو مثالٌ على طريقته في الكِتابة، حين

يتخفّف من شرائط البحث والدراسة، ويستغني عن المصادر والمراجع، ويميل إلى المقالة الأدبيّة في طرافتها وحيويتها، واقترابها من القارئ. أمّا توخّي الصواب، وإقامةُ الصدق، والتوجّه إلى الحقّ؛ فشيء لا يخلو منه كلا نمطي الكتابة عنده.

وإذا كان قد أصدر " الشعر العربيّ في العراق وبلاد العجم " في كتاب ، ولم يدعه رهينةَ الفرنسيّة التي كُتب بها أوّلًا ؛ فإنّه جمع مقالاتِه التي كتبها في "المعلّم الجديد" ، وفي غيرها ، وأصدرها ، سنةَ 1962، في كتابٍ عنوانُه : " مقالات " ، قال في مقدّمته : " هذه مقالاتٌ ، والمقالةُ هنا ليست إنشاءً مطلقًا قائمًا على العاطفة أو الخيال، وليست بحثًا مثقلًا بالأسانيد والمراجع ؛ إنّما هي عرضٌ يسهّل المادّة ويجعلها أقربَ إلى القارئ، وأخفَّ عليه بما يحاوله المؤلّف من ترقيق في الأسلوب ، وإثارة للذهن ، وقصدٍ إلى الطرافة ." وقد ظلّ حريصًا على مزاولةِ نمطي الكتابةِ؛ الدراسةِ، والمقالةِ؛ وإصدارهما في كتب. على أنّ المقالة عند الطّاهر، بتطلّب الفنّ فيها، هي الكتابة على وجه التحقيق، وهي التي تجعل من صاحبها كاتبًا. وقد ينحسرُ أحدُ النمطين في زمنٍ ما، لعواملَ ممّا يُحيط به؛ كالذي جرى للمقالة عنده؛ إذ انحسرت من سنة 1963 حتّى مطلع السبعين، وأخلتِ المكانَ للدراسة والبحث؛ ثمّ استأنفها، من بعدُ، في سنة 1972، في جريدة " الجُمهوريّة "، في صفحة " آفاق " منها. وشرع يلتقط القضيّة من قضايا الأدب أو المجتمع، ويُدير الكلام فيها قاصدًا الإعرابَ عن رأيٍ واضح متماسكٍ، مع مراعاةِ جانبِ اللغةِ؛ في تخيّر الكلمة، وبناء الجملة، وتوخّي اكتمالِ الهيكل في سلاسة الدلالةِ على المراد. وقد انتظمَ بالكتابةِ على هذا النمط في جريدة " الجمهوريّة"، وفي غيرها من المنابر التي كان يُدعى إلى الكتابة فيها. وهو، في ذلك كلّه، يسعى أن يَتمّ لكتابته شرطُ الفنّ؛ لكي تظلَّ مقروءةً من أجل شكلها مثلما هي مقروءةٌ من أجل محتواها؛ ويهيئها أن يضمّها كتابٌ متى اجتمع منها قدرٌ صالح. وقد تتامّت مقالاتُه، بانتظام الكتابةِ، وصار من حقِّها أن تصدرَ في كتابٍ يلمُّ أطرافَها، ويرشّح لها ما تلتقي عنده؛ فصدرت في سنة 1977 بعنوان: "وراء الأفق الأدبيّ". ولعلّ في عنوانها ما يُوحي بما طوته المقالات، ولم تنشره؛ ذلك أنّ الذي يقع وراءَ الأفق الأدبيّ هو الأفقُ الاجتماعيّ ملتبسًا بالسياسة، دائرًا في فلكها، وأنّ ما يعتري الأدبَ من قصور، وتراخٍ، وعللٍ أخرى؛ إنّما يرجِع، في جانبٍ منه، إلى الأفقِ الذي هو وراءه؛ أي إلى المجتمع مصبوبًا بما تريده السياسة؛ فكأنّه بهذا العنوان جعل للمقالات مغزى يجاوز المعنى المتحقّقَ بها.

وإذا كانت كتابةُ المقالة عنده محكومةً بتاراتٍ من الإقبال والانحسار؛ فإنّ كتابةَ الدراسةِ والبحثِ شيءٌ مطّرد لا يكاد يتخلّف في كلّ الأحوال. فقد نشر "محمود أحمد السيّد رائد القصّة الحديثة في العراق"، في سنة 1969، ونشر "منهج البحث الأدبيّ"، في سنة 1970، وهما دراستان رائدتان في بابيهما؛ كُتِبتا بأُسلوبٍ واضح مقتصد، تنزل فيه الألفاظُ منازلَها في استقامة الدلالة، وإحكام المعنى؛ غيرَ أنّه أجرى مقدّمتي الكتابين مجرى المقالة في الإعراب عنه، وعن صلته بموضوع الدراستين، فأبان عن أشياءَ قريبةٍ منه. وكذلك ظلّ يفعل في

كلّ كتابٍ يؤلّفه؛ يجعلُ مقدّمته مقالةً، أو ما يقرُب منها؛ يُزجي بها الحديثَ إلى قارئه على نحوٍ من الألفة والمكاشفة.

وعلى نهجِهِ في الانقطاعِ عن كتابةِ المقالة حينًا بعد حين؛ فقد انقطعَ عنها، مرّة أخرى، بعد تمام "وراء الأفق الأدبيّ"، وانشغل بما سواها من تأليف، ونقد، وأشياء أخرى حتّى سنة 1984، قال في معاودته كتابة المقالة: "وكان الدافعُ المباشر للعودة الأخيرة مرورَ عشرة أعوام على وفاة أستاذه الكبير الدكتور محمّد مهدي البصير؛ وما كان معقولًا أو كريمًا أن تمرَّ المناسبة دون كلمة مناسبة، فكانت". وبدأت بها طائفةٌ من المقالات، نشرها في جريدة الجمهوريّة، على صفحة آفاق منها، أدارها على أساتيذ كرام في رفيعِ خِصالهم؛ في العلم، والخُلُق، واستقامة المنهَج؛ كمثل محمّد مهدي البصير، وطه الراوي، ومحمّد أحمد المهنا؛ وكلّهم ممّن درّسه، وكمثل طه حسين، ومحمّد غنيميّ هلال، ومحمّد صقر خفاجة، وطه أحمد إبراهيم؛ ممّن عرفهم في آثارهم، وأحبّهم؛ لعلمهم، وبيانهم، وإخلاصهم. وكأنّه إذ يقف عند هؤلاءِ، ويبسطُ القولَ فيهم، وفي فضائلهم؛ يريد أن يستعيدَ من التاريخ القريب أمثلةً رفيعةً على ما يكادُ يندرسُ من فضيلةِ العلم، والخُلُق، والموقفِ السديد.

وكتب، أيضًا، مقالاتٍ أخرى قال في دواعي كتابتها: " يكادُ يكونُ الباعثُ الأوّل على كتابتها واحدًا؛ هو الضيق بأمرٍ، والانفعالُ بحالٍ، والتأذّي بظاهرة فإذا بالباعثِ يتمكّن من النفس ويتخمّر فيها، وينبثق كلمةً فيها التألّم، وفيها الإلماحُ إلى ما يجب أن يكونَ من حَسَنٍ ردًّا على قبيحٍ كائن. "وحين تمّت المقالاتُ باستيفاء بواعثِها صدرت في سنة 1987 بكتاب عنوانه: "أساتذتي ومقالات أخرى". وفي النصّ على أساتذته في العنوان، وهو في العقد السابع من عمره، رفيعُ المنزلة؛ إلماحٌ إلى مكانةِ الأستاذ في

الثقافة والحضارة، وفي اكتمال المعرفة، وإلى ما ينبغي له عند الآخرين.
ثمّ أجمّ نفسَه سنةً، أو ما يزيد عليها بقليل؛ لا يكتبُ المقالةَ؛ حتّى دعته مجلّةُ "ألف باء"، في شهر تشرين الأوّل سنة 1988، إلى أن يكون له فيها بابٌ كلَّ أسبوع، يختارُ عنوانَه، ويكتبُ فيه ما يشاء؛ فاستأنف الكتابة، تحت عنوان: "الباب الضيّق"؛ يريد منه إلى تناول شؤونٍ من مجرى الحياة في الثقافة والمجتمع، على نحوٍ من الوجازة الموحية، والاقتصاد في القولِ، وتوخّي شكلٍ محكم؛ يتّضح فيه المستهلُّ والخاتمةُ؛ وقد قال عنها: "هذه كلماتٌ أردتها مقالاتٍ لها ما يستطيع أن يهبها صاحبها من مفهوم المقالة الأدبيّة لديه حتّى في حال قصرها ، وأهم ما في المفهوم : الانفعال الكبير بالمنبّه الصغير ... إنّها انفعالٌ مسيطَرٌ عليه، وله التقاء مع التاريخ" وإذا بدت عبارةُ "الباب الضيّق" قديمةً متداولةً؛ إذ جاءت في إنجيل متّى: "أُدخلوا من الباب الضيّق . فإنّ الباب رَحبٌ والطريق المؤدّي إلى الهلاك واسع، والذين يسلُكونه كثيرون" وجاءت في إنجيل لوقا: "اجتهدوا أن تدخلوا من البابِ الضيّق، أقولُ لكم إنّ كثيرًا من الناس سيُحاولونَ الدخولَ فلا يستطيعونَ" وهي في كلا المقامين دعوةٌ إلى التقوى، ومغالبةِ الأهواء، وأخذِ النفسِ بالاستقامة، وجاءت عنوانَ روايةٍ لأندريه جيد بدلالةٍ لا تبعد عن الشدّة والحزم وما يتّصل بهما – فإنّها عند الطاهر جديدةٌ تذهب إلى التنبيهِ على نقصٍ، والوقوفِ على خلل؛ من أجل السديدِ الحَسَن في الحياة والأدب.
وظلّ يكتب حتّى استوفى ما أراد أن يقول في "الباب الضيّق"؛ فتوقف، ثمّ جعل المقالات كتابًا، بعنوان الباب نفسه، صدر في سنة 1990. وأخذ، من بعده، بأمر آخر؛ فإذا كان "الباب الضيّق " قد أتمّ قضاياه؛ فلِمَ لا يكون بابٌ واسعٌ يتّسع لما لم يتّسع له "الباب الضيّق"؛ فيأخذ في شؤون كثيرة من الثقافة والمجتمع؛ فيها أشياءُ من الزمن الحاضر، وأشياء من زمنٍ ماضٍ؛ قريبٍ أو بعيد. وهي في كلّ حالاتها موصولةٌ بالكاتب نفسه؛ بما رأى، أو سمع، أو وقع عليه، أو وقع منه. ولعلّ جانبَ الذكرى واستعادةَ أطرافٍ من تجاربَ مضت أوضحُ ما يسِمُ هذه الطائفةَ من المقالات. ومع ذلك فقد كان من غايته فيها أن يبسطَ معرفةً دقيقة، وأن يصوّبَ خطأً، وأن يُشيع صوابًا؛ وأن يصُبَّ ذلك كلّه في صياغة طريّةٍ قادرةٍ على مخاطبةِ القارئ وإمتاعه.
ولقد كتب بعضًا من مقالات "الباب الواسع" وهو في جوٍّ من علّةٍ تخاتله؛ كلّما دفعها من ناحيةٍ أقبلت عليه من أخرى؛ غيرَ أنّه كان حريصًا على أن يمدّ كتابتَه بأسباب القوّةِ والرَّصانة، وأن يُهيّأ لها سبيلَ النشر. وقد أخذت تُنشر كلَّ خميسٍ في جريدة "الثورة"، وكان يدفع إلى الجريدةِ بالمقالتين والثلاث معًا حتّى لا ينقطع النشر؛ فلمّا حان يومُ مغادرته بغدادَ إلى عَمّان ابتغاءَ العلاج، وكنتُ، مع آخرين، في وداعه فجرَ ذلك اليوم عند الحافلةِ المنطلقة إلى عَمّان؛ دفع إليّ ملفًا فيه بقيّةُ "الباب الواسع" وقال: إذا لم أرجع فتولَّ أنتَ نشرها! قلتُ: ترجِعُ، أستاذَنا، بالسلامة والعافية، وأعيدُ إليكم الملفّ! وأعدتُه إليه حين عاد فنظر فيه، ونقّح، ودفعه إلى جريدة "الثورة"، وظلّت المقالات تُنشر كلّ خميس مدّةً بعد وفاته. ثمّ صدرت، من بعد، بكتاب عنوانه "الباب الواسع". وكان، وهو في علّته المخاتلة

تلك، قد هيّأ مقالاتٍ له؛ بعضها قديم، وبعضها جديد، ودفع بها إلى النشر، وصدرت بعد وفاته بعنوان: "كلمات".

ذلك ما كان من شأن الكتابة الخالصة التي تأخذ مادّتَها من النفس والثقافة والمجتمع؛ أمّا الكتابةُ النقديّة التي تقوم على الشعر والقصّة فهي ميدان آخر كان فيه رائدًا مؤسّسًا في منحى المنهج، والرعاية، والتوجيه؛ وأريد هنا أن أقول إنّه كان حريصًا على أن يجعل كتابته النقديّة ذاتَ طابعٍ أدبيّ يحقّقُ المتعةَ والفائدة، وأن تُقرأَ من أجلِ النصّ الذي كُتِبتْ عنه، ومن أجل صياغتها؛ إنّها أدب يقوم على أدب.

كان غزيرَ الكتابة، لا يكاد يمرُّ به يومٌ يخلو من جريان قلمٍ على ورق، وكان لا يكتب إلّا ما يرى ويعتقد، ولا يصدر إلّا عن نفسه، وقد قال ذات مرّة " إنّ الإنسان إمّا أن يكتبَ ما يرى ويعتقد، أو لا يكتب؛ إمّا أن يحترم قارئه خلال نفسه، وإمّا أن يخسر احترام القارئ." وقد كان يحترم قارئَه فلا يلقاه إلّا بالصدقِ والوضوح والاستقامة ودعوة الخير؛ فلقد كان يكتب في " الجمهوريّة "، و"الثورة"، و"ألف باء" وفي غيرها ممّا كان قائمًا من صحف ومجلّات، وكان يُلقي المحاضرات، ويتحدّث في محافل الأدب - من غير أن يخطَّ قلمُه أو ينطِق لسانُه بكلمةٍ تنطوي على ممالأة، أو تدنو من زلفى...!

إنّه في طليعةِ من أحلّوا الكتابةَ منزلةً رفيعةً في البلد ...!

طريق الغوايات

خزعل الماجدي

1. زهرةٌ على الرفّ
سأقضي بقية عمري
أضعُ ساقيةً على منضدتي
وأخرى في الماضي
وهناكَ على الرفِّ
تنمو زهرةٌ بصعوبةٍ بالغةٍ
يالشرقنا الذي أشبعنا عذاباً
ونشوة !

2.هذا القلب
من ذا يعينني ؟
ويستلُّ مني هذا القلبَ
يأخذه بعيداً خلف الحديقةِ ويدفنهُ
لأهيمَ دونهُ
وأملأ أيامي بالنسيان
وهناكَ أنامُ على صخرةٍ في الساحلِ
أو على كتف صعلوكٍ في حانةٍ.

3.أدرنا دفة السفينة
لا تبكي عالياً
وأنتِ تضمّدين الخيول الجريحةَ
كي لاينفضح أمرنا
تلك أيام الجمرِ التي عشناها في البلاد
كم كان النهار شحيحاً في العيون
وكم كنا نتلوى في السفينةِ التي هربتنا
كان المنافقون يلاحقوننا بالسهام
ويقفون في طريقنا
ولذا أدرنا دفة السفينة
وقررنا الرحيلَ للماضي القصيّ
حتى وصلنا لسواحلِ المدن القديمةِ
تلك التي أحببناها وتمددنا فيها جريحَين
أمام آلهتها النائمة عند الأبواب !

4.كحول
كلما ارتجفت أيامي
سال منها كحولٌ
وصعدت من شقوقها ثيرانٌ طائرةٌ
وأسودٌ ملتهبةٌ
هناك في صحراء أيامي
قضيتُ العمرَ مع الواحات المرّةِ
ومع الأفاعي التي تقفزُ في أمواج الرمال
وكان أهلي ينامون في ظلامهم
ويدافعون عنه بكلابهم
لكني دفعتُ نفسي مع العاصفة
لأصعد جريحاً

أزرع غيوماً
وأهطل جمراً
وأوقظهم قبل بداية الشتاء .

5.أضع فراشةً على إصبعي
هناكَ الكثير من الألم
رغم أني أدفنهُ في ركبتي
وأتحدثُ عنه بزهدٍ
لكن دمعاً يسقطُ في القلبِ
وينهالُ ترابٌ على أوجاعي
وقد آن الأوان لكي أضع فراشةً على إصبعي
لتطير بي
و بيدي الأخرى نخبُ ألمي
لتكن هذه هي كأسي الأخيرة
فربما تلتمع عيونكم بعد
أن أتوارى .

6.كنتُ أرقصُ كملاكٍ
العودة إلى البيتِ عذابٌ
الهرب منه عذابٌ
وتبادل كرة المنضدةِ معهم عذابٌ
الجوهر يختفي
وتظهر عضلات الكلام
وعلى حافة العشبِ أبكَي
ويسندني جدارٌ
ويُعينني طيرٌ مشغولٌ بالتقاطِ البذورِ
كنتُ أرقصُ كملاكٍ
وفجأةً أصبحتُ إنساناً !

7.نهارٌ يخطفني من طبيعتي
النهارُ أكثرُ قسوةً
فهو يخطفني من طبيعتي
ويذهب بي نحو الشمس
فيما القمرُ الذي في داخلي يبكي
لترفعني مراوح الهواء في الحقول إلى
الأعالي
فيضيءُ مصباحٌ
ويبتسمُ رضيعٌ
وتغني عاشقةٌ .

8. أتقلّبُ في أعماقي
لماذا أيتها المهيبةُ ؟
لماذا يقع همبان الذهبِ ؟
وتقع الأخطاءُ الموحشَةُ
وقلبكِ لايتحرك
الأيام تضعني هناك في رفوفكِ المنسية
أتنفسُ بصعوبةٍ
وأتقلّبُ في أعماقي
مثل سمكةٍ على الساحل .

9. تعال أيها الحكيمُ
تعال أيها الحكيمُ
وضع يدك على جبهتي
ضع زهرةً فوق أذني
لعلّي أنهض!
لماذا لاينتبه الناسُ
إلى الترابِ الذي ينزل من كتفيّ
لا أريدُ جدارين حولي بل أريدُ دائرةً!

10.كلّ ليلةٍ أطرقُ بابَ غرفتكِ
كلّ ليلةٍ أطرقُ بابَ غرفتكِ
لكنكِ لاتفتحين
عادة ماتكونين مشغولةً بتقليب الطيور في
أعشاشها
ورغم أني أحملُ الماءَ والطعامَ لها
لكنكِ لا تأبهين بصياحي
ولاتثقبي حجر الجدار

كأنني الحجر الملقى في طريقكِ .

11.خيطٌ من الدموع
كأن المساءَ ، بينَ يدَيكِ ، أحجيةٌ
وكأن الموسيقى لغطٌ
بينما جرّتي تتفطرُ
وينمو العشبُ على أقدامي
والنور الذي في داخلي يختفي
وخيطٌ من الدموع يسري تحتَ سريركِ
دون أن تشعري بَه !

12.أصعد سفينتي
أطاردُ أيامي وأصعدُ سفينتي وأغيب
كأن يدي في فم التنّين
وكأن الأسرار تتدفق فيها
رحيل دائمٌ مع الكائنات التي لا تُرى
ومع حيوانات العقلِ
وقطعانها الشاردة
ووردة التيه لا تفارقني
وأنا أنحني على خوفي وأنيني .

13.الرغبات عمياء
الرغباتُ عمياء
لا لون لها ولا عشّ
من جبلٍ إلى جبلٍ تطاردني
وتدفن موسيقاي في الماءِ
تتوردُ في آخرِ الخوف
وتعودُ مدهونةً
تقطرُ حيناً على العتبات
وتخرجُ حيناً مع الموج
تتيه في الساحلِ
ثم تعود إلى عمائها.

14.الخوف أم السؤال؟
حين كنتُ طفلاً
كانت أقدامي تقودني دائماً إلى حافة البئرِ
كنتُ أبحثُ عن ظلّي
وأنظرُ في أعماقي
فيزداد غموضي
لا أبكي ..
لكني أتمتمُ بفمٍ مشقوقٍ
ولسانٍ ثقيلٍ
ما الذي سيحصلُ معي ؟
ملاكٌ في طريقهِ للجنون
وأرض لاتحتملُ سؤالي
الخوف أم السؤال؟
آآآآآه .. كلاهما !!

15.كأني غيمة
حياتي تتحول إلى جمهرةٍ
خيولٌ جريحة
و حطام أوسمةٍ وسيوفٍ
وحشود..
لا تقف عند سورٍ أو نهرٍ
ولاتطرقُ البابَ حين تتمتم
وأنا على ظهرها أقرأ أسطورةً
ويلمحني بشرٌ كثيرون كأني غيمة !

16.يطيرُ منكَ غرابٌ
كلّ محراثٍ ظهر فيكَ رمى بذورَه ومضى
لكنكَ مازلتَ على حافةِ الليلِ تغني
ويطيرُ منكَ غرابٌ
وتهربُ أفعى
ويظهرُ نهرٌ رقراقٌ
في قاعِ أعماقكَ
وعلى حافة النهر حطام لانهاية له .

17.جدران الكلمات

لا الشياطينُ ولا الأقاصي تنفعُ هذه الأقدام
أحلمُ بطيفٍ فاترٍ
وبمصائر تمطرُ حِمماً
لأجعلها جدراناً من الكلمات
تُرصّعُ قصري
السلالة غافية
وذلك اليوم مازالَ في ظهيرتهِ
وفي سعالهِ
بينما أنا على وشكِ الطيران
تلكَ أيامي التي لا أستطيع تدوينها!

18.داخل هذه الحشود
لم يكن سوى موجةٍ عابرة
داخل هذه الحشود
ذاب مع الكلمات التي يثرثرُ بها الناسُ كلّ يوم
هناكَ من جرّ كلماته وجعلها تمطرُ
وهناك من جعلها شبيهةً بتمثالِ شبحٍ
هناكَ من رفع أحزانه في الأعالي
ورأى كلماته وهي تتحولُ حجراً
ومدنٌ تظهرُ منها
وحشودٌ كثيرة تسكنها
لماذا تحاصرنا لغة الحشود؟

19. أصابعكِ
كانت أصابعك معجزة
حين تمررينها على طيني
تتّضحُ معالمي
وتكون لي حكاية
أعبر حانة سيدوري
وأصلُ لك حتى أمضغ ، على مهلٍ ، عشبة الخلود
تجعلين مني غابة
وأجعل منك إلهة
و تكون أصابعكِ المعجزة بساطا لنا وقمراً
يطلع على ليلٍ لاينام .

20.أشباحنا تضحك وتبكي
كنتِ معي حين ذهبتُ
وحين وقفنا أمام الغيوم
وسارت بنا سفينة غاطسة في الرمال
لا تغفلي عن المسلات
ولاتنامي
فهنا كانت أشباحنا تضحك وتبكي
وكنّا نرعى قطيعاً من الوهمِ
وكان الحبّ محراثاً خلفنا
يجرُّ رجلاً عجوزاً
وصبياً أسره البدو.

21. ندور مع الملائكة
كوني معي أيقونةً في البلاد الغريبةِ
نأخذ متاحفها بعيوننا
ونسكرُ في حاناتها
ونعيد رواية العمران
حينها ..
يكون جسدي جرّةً من النبيذ
وتكون قصائدي خبزاً وفاكهةً
وندور مع الملائكة في سمائنا
ولا أثر للأبوابِ والنوافذ في غرفنا التي بلا سقوف.

22. صورة الصيّاد
لا تُمحى صورة الصيادِ من عيني الحمامةِ
حتى وأن سقطت في المياه
ستكون هناك مياه مالحةٌ وعذبةٌ تتصارع بينها، وهي تحدّق
حتى وأن نريد دفنها في الجبال

ستكون هناك تماثيل من النهار أمام تماثيل
من الليل
ستجد هناكَ في البستان
نسراً وأفعى
وستجد هناك سطلاً وكوباً
وستجد نبيذاً وموقداً
لا يُمحى شيء
الإشارات ستحكي.

23. ألقى بي البدو هنا ومضوا
أنا كما أظنُّ في الظلام
وفي بئرٍ داخل الصحراء
ألقى بيَ البدو هنا ومضوا
لكنهم لم يدركوا أني أعرف صناعة النوافذ
فكان لبئري نافذة
ولم يعرفوا أن بإمكاني أن أُطيل سيقاني
وأقفزُ على عكازةٍ
فخرجتُ ومضيتُ إلى ماءٍ بعيداً عنهم
وصنعتُ مدناً وتماثيلَ
ورقصتُ على عكّازي .

24.حيث مجمرتكَ يايوسف
يايوسفنا الجميلُ تقدّم واخرج من الخرائب
التي دفنتكَ
أكاد أموتُ من شجر اللوز
وهو يطوّحني
وأكادُ أتصفّحُ نهراً من النسيان
محمولاً على رقاب الحجر
وعلى نساءٍ يستعدن رغوة البلّور
ويثملنَ في تداعي الشعاب
من الماءِ لأريدو، ومن أريدو للشمس
صعوداً نحو السماء الرابعة
حيث مجمرتكَ يايوسف
وحيث يكون النداءُ ضعيفاً
والملائكةُ كثيرةٌ تتطوّح
في الروابي والبساتين
هناك لسعتنا أفاعي السماء
وسقطنا تحت أحذية الكهنة
ولم تعد الأرضُ لنا.

25.النساء الأرامل
أقسمُ بالنساء الأرامل
بالماء الذي ينشف في غصونهنّ
بالخديعةِ تتربصُ بماضيهنّ وحاضرهنّ
بالليالي العجاف بين الوسائد الخالية
والأسرة الباردة
بالبومة التي تنعقُ في نوافذهنّ
بالستارة التي لاتفي بوعدها
بنومهنّ الملغوم بالرغبات الخجولةِ
أقسم بهنّ
فهنّ أعظمُ من ينتظر في هذا الوجود بذاكرةٍ
مثقوبة دون رجاء.

طمأنينة المربع
أهو الأمان أم قناع القلق المنظم في لوحة جبران طرزي؟

ضحى عبد الرؤوف المل

يُقدم الفنان "جبران طرزي" لوحته كفخ بصري ناعم ويجعلها مساحة آمنة ظاهرياً، كأرض مستوية لا تخبرك أنّها مائلة إلا بعد أن يتغلغل البصر فيها، فمنذ اللحظة الأولى، تمنحك الأشكال شعوراً بالطمأنينة عبر مربعات متساوية، شبكة منتظمة، حدود واضحة، ألوان محدودة، توزيع متوازن لا يختل. كل شيء يجعل المتلقي يشعر أن هذا الاطمئنان ذاته هو أول الإثارة وزوبعة من تساؤلات لا تنتهي منها هل نثق بالنظام لأنه صادق، أم لأنه واضح فقط؟ وهل يمكن للشكل المُتقن أن يُخفي فراغاً من دون أن يكذب؟ ومتى يصبح التكرار وسيلة للسيطرة بدل أن يكون أداة للفهم؟

في كل مربع، يتكرّر شكل واحد، أو هكذا يخيل لمن يتـأمل اللوحة من شكل هندسي، يبدو ثلاثي الأبعاد، مصقول الزوايا، مُحكم البنية. شكل يمكن للعقل أن يتعامل معه بسهولة، لأننا نحب الأشكال التي نعرف كيف نُكمِلها ذهنياً. فنحن نحب ما يوحي بالحجم، بما يشبه الأشياء التي يمكن لمسها، تدويرها، وضعها على طاولة. لكن هذا الشكل لا يسمح بذلك. هو يمنحك وهم البعد الثالث، ثم يسحبه في اللحظة نفسها. لا ظلّ حقيقي، لا مصدر ضوء ثابت، لا منظور يُمسك به. كل محاولة لتثبيته تنتهي بانزلاق جديد..

التكرار إذا ليس راحة، بل استنزاف. فكل مربع يغيّر اتجاه الشكل قليلًا، انقلاباً خفيفاً، ميلًا بالكاد يُلاحظ، وكأن اللوحة لا تقول لك إنّ الشكل يتحرّك، بل تجبرك على اكتشاف ذلك بنفسك. العين تبدأ العدّ، ثم تتعب. العقل يحاول إيجاد نمط نهائي، ثم يكتشف أنّ النمط نفسه يتفلّت. لا يوجد مربع هو الأصل، ولا آخر هو النسخة. كل وحدة مكتفية بذاتها، لكنها في الوقت نفسه ناقصة بدون الأخريات. وهذا التناقض هو جوهر التوتّر. إذ تخلق حالة تجعل المتلقي يُدرك، أن الطمأنينة قد تكون تركيباً بصرياً، وأن القلق قد يكون الحقيقة التي نحاول تنظيمها قبل مواجهتها وكأن الفنان جبران طرزي يقول لنا إن النظام ليس سيئ، بل النظام

ليس بريئاً. وأن الجمال حين يصبح دقيقاً أكثر من المعتاد يبدأ بطرح أسئلة قبل تقديم إجابات. فهل يمكن للشكل المتقن أن يُخفي فراغاً من دون أن يكذب؟ وإذا كان هذا النظام لا ينهار، فهل لأنه قوي؟ أم لأنه لا يسمح للبصر باختباره؟ وهل يمكن أن يتحوّل السؤال من سؤال عن اللوحة إلى سؤال عن الإنسان. عن علاقتنا بالأنظمة التي نبنيها كي نشعر بالأمان وتصديق ما يُرسم بخط مستقيم حتى لو كان الداخل متذبذباً؟

يُجبر طرزي العين الانتقال من شكل إلى شكل ومن لون إلى لون الأصفر الترابي والأخضر المائل للرمادي والأزرق الباهت والبرتقالي الدافئ فالألوان بدورها، تشارك في هذه الخدعة الهادئة. لا ألوان حادّة، لا تباينات صادمة. الأزرق باهت كسماء مغطّاة، الأصفر ترابي كأرض قديمة، الأخضر مائل إلى الصمت، البرتقالي دافئ لكنه مكتوم. ألوان توحي بالاستقرار، بالقدم، بالموثوقية. لكنها موزّعة بحيث لا تسمح للعين بالاستقرار بل تبقى بحالة قلق لتثير قوة الاكتشاف. فاللون لا يثبّت الشكل، بل يزيد من ارتباكه. وما لا يمكن رؤيته بشكل مباشر هو في الحقيقة بنية خفية، فالشكل الأساسي لا هو مكعب كامل ولا شكل مسطح، وعقلانياً البصر يحاول باستمرار إكمال البعد الثالث، لكنه يفشل فيبدأ القلق العبقري إن صح لي قول ذلك بمعنى القلق الذي يثير التفكّر، فهو يوحي بالحجم ثم يسحبه مما يجعل المتلقي في حالة قلق وتساؤل أيضا عن قوة هذا النظام؟ فهل كل مربع في أعمال طرزي هو لحظة مختلفة من الشكل نفسه؟ وهل الدوران والميل والانقلاب والانعكاس يجعلنا أمام سلسلة لقطات لشكل واحد يتحرك في فراغ بلا مركز لا بداية ولا نهاية فقط استمرارية ؟ أم هذا يجعل اللوحة زمنية ولا مكانية فقط؟

في أعمال طرزي يتكشّف معنى التجريد البنائي في أكثر حالاته قسوة. فالتجريد البنائي، في تاريخه، وعد الإنسان بأنّ العقل قادر على بناء عالم متماسك من الخطوط والأشكال. وعد بأنّ الهندسة لغة الحقيقة، وأنّ النظام طريق الأمان. هذه اللوحة تستخدم اللغة نفسها، لكنها منضبطة حد القسوة . إنها تتكلّم بالعقل، لتُظهر حدوده. تبني لتكشف هشاشة البناء. تكرّر لتفضح فراغ التكرار.وهي أشبه بلغز لا يمكن فك معناه ولكن يجعلنا نتعايش مع محاولات فهمه. فهل التحوّل داخل القيود هو وهم جميل يكفي تصديقه؟

لا يمكن أن يشعر المتلقي أمام هذه اللوحة بالاستقرار الذي يبدو آمناً لكنه وهمي، فهو قلب التجريد البنائي حين يفقد عفويته ويجعلنا داخل الشبكة الصارمة التي تحتضن كل مربع، فهي ليست إطار حماية، بل قفصاً ذهنياً. وكأن طرزي يقول كل شيء في مكانه، كل شيء ضمن المنطق البصري. لكن ما الذي يعنيه المنطق البصري إذا لم يكن هناك مركز؟ ما الذي يعنيه التوازن إذا كان موزّعاً بالتساوي إلى حدّ إلغاء الثقل؟ لا نقطة تستريح عندها العين، لا محور تُقاس منه الحركة. اللوحة بلا قلب، وهذا مقصود. إنها بنية بلا نواة، جسد بلا عضو حاكم. أو الأصح كالعين التي تقول أنا في مكان آمن، كل شيء مضبوط. فهل يُجبر طرزي دماغ المتلقي على إعادة الحساب في كل شكل؟

وهل كل هذا لا يُشكل استقراراً بل تعليق دائم للإدراك؟

النظام في أعمال طرزي يساوي الحقيقة والهندسة هي اليقين فأدواته البنائية من خط وزاوية وقياس وتكرار هي القلق المنظم ومع التأمل العميق يبدأ المتلقي في الشعور بأنّ اللوحة لا تتحرّك، بل هو الذي يتحرّك داخلها. كأنّ الزمن هو ما يتكرّر، لا الشكل. كل مربع يبدو كزمن محتمل للشكل نفسه، لحظة عابرة لا تكتمل.إذ يتحوّل التخطيط التجريدي\ البنائي من مساحة إلى سرد، من شكل إلى تجربة زمنية. فلا يمكن للبصر أن يمر بها مرور الكرام بل يتغلغل بالأنماط المُتوقعة والتكرارات والشبكات، فهذا هو الفن الذي يثق بأنّ للإرباك الحسي والبصري قيمة، وبأنّ القلق الهادئ أكثر صدقاً من الطمأنينة المصطنعة. هو فن يعرف أنّ الإنسان المعاصر يعيش داخل شبكات مشابهة من أنظمة، جداول، تكرارات يومية، وعود بالاستقرار، بينما الداخل يهتز بلا توقف. فهل يريد طرزي قول ليس كل ما يبدو مضبوطاً متماسكاً وليس كل ما هو هندسي صادقاً وليس كل استقرار إلا احتمال سقوط مؤجل؟

ما من مخرج بصري في هذه اللوحة فالأثر النفسي الخفي يتجلى بعد تأملها فقد يشعر المُتلقي بتغيير زاوية النظر للبحث عن مخرج بصري غير موجود. إذ لا شيء والازدواجية ليست خللاً، بل موقفاً. موقف يجعلنا نكتشف ما معناه إنّ النظام ليس نقيض الفوضى، بل هو الأكثر تهذيباً. وإنّ الاستقرار قد يكون قناعاً، وإنّ الأمان قد يكون مجرد اتفاق بصري بين العين والعقل على تجاهل ما لا يمكن حسمه. فالتجريد

البنائي ليس بناء، بل اختباراً لفكرة البناء. هو استقرار بلا أرض، نظام بلا مركز، أمان بلا ضمان. فهل الاستقرار الذي نبحث عنه هو حالة واقعية، أم مجرد صورة نكررها حتى نصدّقها؟ وهل جبران طرزي يحتفي بالهندسة، أم يستخدمها كمرآة. مرآة تُظهر لنا شغفنا بالنظام، وخوفنا من اللايقين، واستعدادنا لتصديق أي استقرار ما دام مرسوماً بخطوط مستقيمة؟

في النهاية يمكنني القول أن قراءتي لأعمال الفنان جبران طرزي هي انطلاقة انطباعية تحليلية تكشف عن نفسها بوصفها نموذجاً دقيقاً لما يمكن تسميته الاستقرار غير القابل للإقفال فكل عنصر فيها يشير إلى نظام، لكن أي محاولة لإغلاق هذا النظام معرفياً تفشل، لأن الشبكة المربعة، في ظاهرها، تمثل أبسط أشكال التنظيم الممكنة مثل تقسيم متساوٍ للفضاء،وحدات قابلة للعد، بنية يمكن توصيفها دون فقدان. غير أن هذا التوصيف ذاته هو ما يتحول إلى عبء، لأن الشبكة لا تعمل كإطار حاسم، بل كحقل توزيع. كل مربع لا يحدد موقعاً، بل يؤجل التحديد وكل تساوٍ في القياس يخلق اختلافاً في القراءات

النقدية. رياضياً يمكن اعتبار اللوحة فضاءً ذا شروط حدية ثابتة. بحيث يبقى النظام متماسكاً من الخارج ومفتوحاً من الداخل. الشكل الواحد المتكرر لا يؤدي وظيفة النسخ، بل وظيفة التحويل، لأن كل ظهور له يخضع لتغير دقيق في الاتجاه أو العلاقة، ما يمنعه من أن يصبح مرجعاً. ويمكنني القول أن التناقض الجوهري يتمثل في التكرار، الذي يفترض أن يقلل المعلومات، فكل تكرار لا يُلغي السابق، بل يضيف طبقة جديدة من الاختلاف، وكأن النظام لا يتقدّم نحو حل، بل يتراكم حول فجوة مركزية لا تُرى. هذا النوع من البنى معروف في الفيزياء النظرية بوصفه حالة شبه مستقرة: لا انهيار، ولا اتزان نهائي. اللوحة لا تخلق فوضى، لكنها تمنع الوصول إلى حالة توازن إدراكي، لأن شروط التوازن لا تكتمل. العين، في هذه الحالة، تتحول من جهاز استقبال إلى جهاز قياس يفشل باستمرار في تثبيت القراءة، لأن كل قياس يغيّر موقعه المرجعي. اللون، من جهته، لا يعمل كقيمة جمالية مستقلة، بل كمعامل تخميد. الألوان المختارة تقع في مناطق طيفية تقلّل من الاستثارة العصبية، لكنها لا تلغي الحمل المعرفي، فتحدث مفارقة دقيقة مثل انخفاض الإحساس يقابله ارتفاع في الجهد الذهني. هذا يشبه أنظمة فيزيائية ذات طاقة كامنة منخفضة، لكنها عالية الحساسية لأي اضطراب صغير. وهكذا، يصبح القلق ليس نتيجة صدمة، بل نتيجة استمرارية. كل مربع يَعِد بأن يكون نهاية المسار، لكنه يفشل في ذلك، لأن بنيته لا تسمح بأن يُقرأ منفصلاً. الاستقلال هنا ليس خاصية حقيقية، بل فرضية بصرية سرعان ما تُنقَض، لأن معنى كل وحدة لا يظهر إلا ضمن شبكة العلاقات. من منظور هندسي، يمكن القول إن اللوحة ترفض وجود محور إحداثي مهيمن، لا أصل، لا اتجاه موجب ثابت، لا بعد يمكن تثبيته دون تناقض. هذا يضع المتلقي داخل فضاء بلا إطار إسناد، حيث تصبح كل قراءة صحيحة محلياً وخاطئة كلياً. الأمان، ليس قيمة موضوعية، بل أثر جانبي لتنظيم لا يسمح بانفجار التناقض دفعة واحدة، بل يوزعه بالتساوي. المربع لا يحمي، بل يقسّم. النظام لا يطمئن، بل يُدير القلق بكفاءة عالية. وهنا تكمن خطورة الجمال المنضبط، إنه لا يكشف هشاشته، بل يخفيها خلف انتظامه. اللوحة، ليست عن الشكل، بل عن حدود القدرة على الإغلاق المعرفي. إنها تجربة على الإدراك أكثر منها عرضاً بصرياً. كل ما فيها يعمل كما لو كان معادلة بلا حل صريح، أو برهاناً صحيح الخطوات، غير مكتمل النتيجة. لا انهيار يحدث، لكن لا راحة تتحقق. وهذا بالضبط ما يجعلها نموذجاً بصرياً لفكرة أعمق وهي أن الاستقرار قد يكون حالة إدارية لا وجودية، وأن النظام، حين يُتقن، لا يلغي القلق بل يمنحه بنية، وأن الطمأنينة التي نشعر بها أمام الأشكال الواضحة ليست دليلاً على الأمان، بل على نجاح الشكل في تأجيل السؤال بدل الإجابة عنه.

فإذا كان هذا النظام البصري قادراً على الاستمرار دون أن يبلغ حالة اتزان، فهل يعني ذلك أن الاستقرار ليس سوى وهم إحصائي ناتج عن تكرار كافٍ؟ وإذا كانت الشبكة لا تمنح مركزاً بل توزّع المعنى على وحدات متساوية، فهل يمكن للمعنى أن يوجد أصلاً دون نقطة مرجعية؟ ثم، هل

القلق الذي تولّده اللوحة ناتج عن قصور في الإدراك، أم عن اكتمال مفرط في النظام نفسه؟ وإذا كانت الطمأنينة هنا نتيجة خفض الاستثارة لا نتيجة حلّ معرفي، فهل نثق بما نشعر به أم بما نفهمه؟ وأخيراً، إذا كان الشكل المنضبط قادراً على إدارة القلق بدل تبديده، فكم من أنظمتنا اليومية تعمل بالطريقة نفسها، وكم من شعور بالأمان ليس إلا أثراً جانبياً لتنظيم ناجح للهشاشة؟

والفنان اللبناني جبران طرزي عام 1944، ولد ونشأ في المغرب خلال أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين، في بيئة محافظة ومتعددة الطبقات الثقافية، تراوحت بين المدرسة الكاثوليكية الفرنسية الصارمة في الرباط، وعلاقات والده ألفريد طرزي الوثيقة بالملك محمد الخامس، وبالبرجوازية المغربية والحرفيين التقليديين. وكان القاسم المشترك بين هذه العوالم جميعها تجارة التحف المغربية والمشرقية، وهي المهنة التي ارتبطت باسم عائلة طرزي منذ أكثر من قرن ونصف، وامتزجت فيها الحرفة بالفن، والذاكرة بالهوية.

غير أن جبران طرزي، منذ ستينيات القرن الماضي، اختار مسارًا مغايرًا، فتمرد على الإرث العائلي ورفض الاكتفاء بدور الوريث الحِرفي، متجهًا نحو الحداثة الأدبية ومتأثرًا بالفكر اليساري، من دون أن ينخرط تنظيمياً في اليسار العربي، بل عبر شبكة من الصداقات الثقافية والفكرية. ومع اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، وجد نفسه مجبرًا بين عامي 1974 و1986 على العودة إلى "مشغل طرزي" العائلي، متحملاً مسؤولية الألوان في فنون الخشب الشرقية، في مفارقة جسّدت الصراع بين القناعة الفكرية

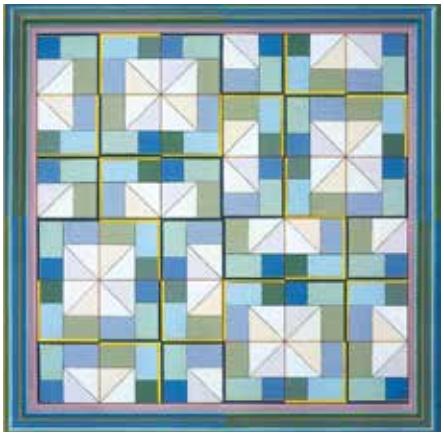

والضرورة التاريخية.

شكّل عام 1986 نقطة التحول الحاسمة في مسيرته، إذ أدى حل "مؤسسة طرزي للفنون" إلى تحرره النهائي من سلطة العائلة، وانتقاله إلى قرية بلونة في كسروان، حيث سعى إلى استعادة توازنه النفسي بعيدًا عن أهوال الحرب. ورغم عودته إلى الكتابة الأدبية، إلا أن محدودية جدواها الاقتصادية دفعته إلى تصميم المرايا والصناديق الشرقية، قبل أن ينزلق، شبه مصادفة، إلى التجريد الهندسي الحديث، ليبدأ بين عامي 1988 و2003 واحدة من أكثر التجارب العربية دقةً وانضباطًا في هذا المجال.

لم يكن التجريد لدى جبران طرزي ممارسة شكلية، بل كان نضالًا بصريًا وفلسفيًا، قوامه الصبر والتأمل والانضباط الصارم. لم يترك للصدفة أي دور في أعماله، إذ كانت كل لوحة نتاج مئات الرسومات الهندسية والمخططات الورقية، فيما خضعت الألوان لسلسلة طويلة من الاختبارات المتراكمة، بحيث تختزن اللوحة الواحدة عشرات الطبقات اللونية الممحوة، في سعي شاق للوصول إلى التوازن النهائي. وقد دفع هذا

الإخلاص الجسدي والفكري ثمنًا باهظًا من الجهد والألم، لكنه شكّل جوهر رؤيته الجمالية.

سعى طرزي بوعي حاد إلى التمايز عن الحرفة التقليدية، مدفوعًا بتمرده الفكري، لكنه في الوقت ذاته لم ينفصل وجدانيًا عن مغرب طفولته، ولا عن معرفته العميقة بالفنون الإسلامية والزخارف المشرقية. ومن هذه المفارقة بالذات، وُلد مشروعه في "الحداثة الذاتية"، إذ آمن بأن الشرق يمتلك أدواته الخاصة للحداثة، من دون الحاجة إلى استيراد النماذج الغربية. فطرح الشرق لا بوصفه ماضيًا جامدًا، بل باعتباره أفقًا منافسًا وقادرًا على محاورة التجريد العالمي بندّية.

غير أن هذا الطموح اصطدم طويلًا بصورة اجتماعية لازمت اسمه، بوصفه مرتبطًا بالحرف التقليدية وتجارة التحف، ما حال دون الاعتراف به كفنان عربي معاصر في حياته، وخلّف لديه شعورًا بالمرارة والندم. توفي جبران طرزي عام 2010 من دون أن يشهد اكتمال هذا الاعتراف، لكن الزمن أنصف تجربته لاحقًا، فتكاثفت الدراسات النقدية حول أعماله، وبرزت أهميته بوصفه مجددًا في التجريد الهندسي العربي.

لعب الناقد والشاعر العراقي خضير الزيدي دورًا محوريًا في توثيق هذه التجربة، من خلال كتابيه "جبران طرزي – سيرة إبداع فني مشرقي" (2024) و"جبران طرزي – رائد الأصالة والتجديد" (2025)، حيث قارب فلسفته الجمالية في ضوء بيان "الحاجة إلى الشرق"، وربط تجريده الهندسي بالأيقونات والخط والمنمنمات، وقارنه بتجارب عالمية مثل فيكتور فازاريلي، وبتيارات فكرية عربية حديثة عند شاكر حسن آل سعيد والجابري وأدونيس وأركون.

وقد تكرّس موقع جبران طرزي بين التراث والحداثة منذ عام 2015، مع دخول أكثر من خمسين عملًا له إلى المتحف العربي للفن الحديث في قطر، ثم إلى متحف عالمي مرموق عام 2023. وتعمل مؤسسات لبنانية كبرى، مثل متحف بيروت للفن (BeMA) ومتحف الجامعة الأميركية في بيروت ومتحف "نابو"، على أرشفة أعماله وإعادة إدراجها ضمن السردية التاريخية للفن اللبناني والعربي، فيما أدرجت أعماله في المناهج الأكاديمية للجامعة اللبنانية.

تكمن أهمية جبران طرزي في كونه لم يقدم حلولًا بصرية جاهزة، بل فتح أسئلة عميقة حول معنى الهوية وجدوى الفن، مثبتًا أن الحداثة لا تُستعار بل تُصاغ من الداخل، وأن الشرق قادر، حين يُعاد التفكير فيه، على أن يكون مصدرًا لا ظلًا.

سلطة الدين وتسلّط المتدينين في رواية "عندما تشيخ الذئاب" جمال ناجي *

جني قبيسي

تعرض هذه الرواية البناء السّردي و الموضوع الذي من أجله
أوجد الكاتب سرديّته الخاصّة، فتتحدث عن الشّخصيات و دورها
في عملية السرد إلى جانب الإيقاع السّردي ودلالته حتى
تصل إلى محوري الرواية الأساسيين وهما: الدّين والجنس
وطريقة عرضهما وكيفية توظيفهما في الرواية.

تختلف اتجاهات الكتابة الرّوائية باختلاف الاتجاهات الفكرية للكاتب. ولأن الثقافة والمعرفة التي يتميز بهما الروائي هما من العناصر الأساسية للكتابة، كان على كل روائي عند اختياره لموضوع معين أن يعرض للقارئ هذا الموضوع بأبعاده المختلفة سواء أكان مؤيّدًا لهذه الأبعاد أو معارضًا لها حتى يمنح المتلقي مساحة أكبر للتفكير والتحليل والنقد .

رواية جمال ناجي تعد أنموذجًا للرواية التي تهدف إلى خلق تيار من الوعي الفكري الّذي يولد بعد عملية تقييم للواقع الدّيني المرتبط بمجموعة وقائع سياسية واجتماعية وفكرية، كلها تدور في فلك الدين أو التمظهر الدّيني إن صح التعبير.

"م تصطدم الرواية – إجمالًا- بالذائقة العربية التقليدية ولم تتورط في مغامرات موضوعاتية أو شكلية غير محسوبة، بل ظلت مرتبطةً بالواقع العربي وتواصلت محاولات مبدعيها للتعبير عن معاناة الإنسان في حياته اليومية ولم تنبهر الرواية العربية بالمفاهيم الغربية التي تجردها من خصوصيتها"(!).

انطلاقًا من هذا، جاءت هذه الرواية تصويرًا للجهل المستشري في عمق الإنسان العربي الممزوج بالهشاشة النفسية والّتي تدفعه للعيش في تبعية عمياء للآخر الذي يفرض سطوته مستغلًا سلطتين: المال والدين، أو يستغل المال والدين لتحقيق دوافع جنسية

أراد لنا الكاتب في هذه الرواية أن نقف أمام أنفسنا أوّلًا وأمام مجتمعنا ثانيًا ونطرح الإشكالية الآتية: متى يكون الفرد متديّنا بالمعنى الحقيقي لمفهوم التدين، أو بعبارةٍ أخرى ما هي السمات الصّحيحة للدّين؟ فيأتي بعدها تقييم الممارسات الدينية لمختلف الأفراد وهو ما حاولت الرواية الوصول إليه بعد أن عرضت الأنموذجين لمفهوم التدين على وفاق آراء شخصياتها .

الأنموذج الأول هو الأنموذج السّطحي الّذي يستلهم من الدّين قشوره وعند تصادم مصالحه مع الدين ينزع عنه هذه القشور ويتجرد منها، والأنموذج الثاني هو الأنموذج الذي لا يعنى بالدين لا ظاهريًا ولا باطنيًا فيتجنّب التّوغّل

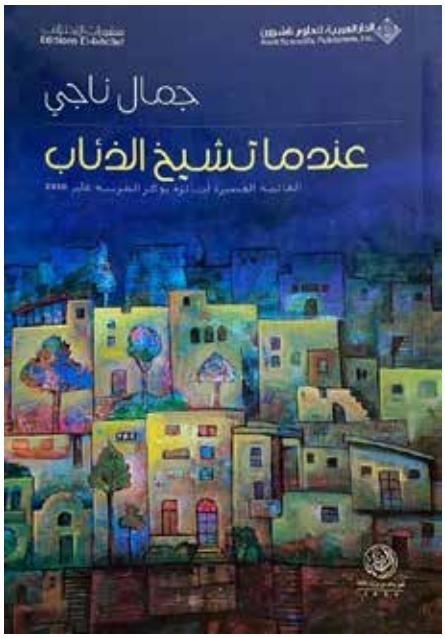

فيه خوفًا من عدم قدرته على استيعابه ويفرض على نفسه أن يتحرر من قيوده. وفي الحالتين يتحول السلوك البشري إلى سلوك غرائزي نفعي يسعى لنيل المكاسب بصرف النظر عن رأي الدين فيه

عند قراءتنا للرواية نلاحظ أن رسم الكاتب للشّخصيات قد تمّ بمسار أحادي في تطورها أي إنها تتطور معًا تطوّرًا يشتدّ ويخفت واضعًا مختلف الشخصيات في دائرة واحدة ضيقة من حيث الحدود الزمنية والمكانية ومتسعة من حيث التوظيف الدلالي للأفكار التي لا تخلو من بعض النقد السّياسي والاجتماعي.

لجأ الكاتب في عرضه للحوادث إلى تقنية التقديم المباشر للشّخصيات بحيث ظلّ خارج العملية السّردية وترك للشخصيات أن تعرّف ذاتها وتعبّر عن هواجسها وأفكارها تعبيرًا حرًّا حقيقيًا وأبقى ذاته كسارد بعيدًا من انعكاسات الحوادث وتأثيرها في علاقات الشخصيات بعضها ببعض وقد أسهمت هذه التقنية في تأكيد الموضوعية النّسبية التي يحاول الكاتب إظهارها وهذا البعد هو الحد الفاصل بين الكاتب وبين الشخصيات وهو نفسه الحد الذي سيعطى للمتلقّي لاحقًا لتلقّف ما يودّ الكاتب إيصاله إليه بطريقة غير واعية وتلقائية مجردة من أي فرض.

قُدّر للشخصيات منذ بداية الرواية أن تكون ذات نزعة دينية متشددة وهو تقدير متشابه بينها في الظاهر إلا أنه متعدد الاتجاهات والمنطلقات في مضمونه فلكل شخصية هدف تتخذ من أجله الدين وسيلة للوصول إليه ولكن اللّافت هو أن الشخصيات ومنذ ظهورها الأول باعثة على النفور، ليس النفور الذي يبعد القارئ من متابعة الرواية، بل هو النفور الذي يتعمده الروائي لجذب القارئ حتى يستميل عواطفه ويوظّفها في خدمة مراده وهو النفور الذي اعتاد عليه القارئ العربي في الروايات التي تتناول التطرف الديني. لكن ما يؤخذ على الكاتب هو إصراره على أن يحوّل التدين إلى مسار أيديولوجي مثير للريبة إذ جعل كلّ متدين في الرواية منافق وفاسد دون وجود شخصية متدينة واحدة على الأقل تحمل الفكر الديني السليم شكلًا ومضمونًا بالرغم من ملاحظة مدى جديته في إضفاء بعض التشويق والغموض على الصّورة النمطية للشخصية المتطرفة لجعل الرواية أقرب إلى المتلقّي وهو ما كسر الجمود فيها.

حافظ الكاتب على إيقاع سردي واحد بقي هادئًا حتى الوصول إلى ذروة التأزم وعنصر التشويق جاء مخفّفًا ولكن لا يعدّ هذا عيبًا فنيًا، أوّلًا لأن الفضاء الذي تتحرك فيه الشخصيات فضاء بسيط غير مثقل بالتعقيدات، وثانيًا لأن الشخصيات التي تحمل عبء تطور الأحداث

غير مركبة وإن كانت تتمتع بتعدد الأوجه إلا أن جوهرها سهل الفهم والإدراك فابتعد من الصراعات العميقة التي تكون أكبر من وجود الشخصية النفسي والفكري.

برز الجنس في الرواية بروزًا قويًا وجعله الكاتب النقطة التي تلتقي عنده معظم الشخصيات نظرًا لأهميته في الكشف عن التأزم النفسي للشخصيات التي رأت في الجنس تعويضًا عن نقص عاطفيٍّ داخلها وهذه الحال لا تقتصر فقط على الرجال بل صار الجنس هاجسًا عند المرأة أيضًا، من هنا أكد الكاتب أن قضية الجنس في الرواية العربية هي قضية إنسانية ولا يمكن حصرها في حدود مجموعة من السّلوك، أو جعلها قضية آنية، وهذه الفكرة أشار إليها الكاتب حين نقل لنا الظّروف الاجتماعية والثقافية لكل شخصية قبل الحديث عن البعد الجنسي فيها فقضية الجنس قضية شائكة مرتبطة بقضايا أكثر تعقيدًا كالدين وعلم النفس، ومن خلال هذا الدافع، استطاع الكاتب أن يسلط الضوء على مجموعة من العقد الّتي تحتلّ الحياة النفسية للشخوص، وأن يبقي القارئ مشدودًا إليها دون إطلاق الأحكام، وصار القارئ أكثر تقبّلًا لها لا للدّفاع عنه بل لمعالجته.

"فعلاقة الإنسان بذاته هي في النهاية علاقة جسدية ومن ثم تكون الحقائق الحاملة للمعنى هي حقائق الجسد ذاته الذي يحمل المعنى ذاته، وهذا التأصيل المفهومي للجسد الخاص يدفعنا إلى الإقرار بأن الذاتية الإنسانية هي في أصلها ذاتية جسدية وفي ذلك يتأكد البعد الاجتماعي والمعرفي للظاهرة الجسدية، وهذا ما انتهت اليه العلوم الإنسانية المعاصرة.."[2].

إلا أن الكاتب لم يستغل موضوع الجنس بشكل فاضح ولم يكن جريئًا وصريحًا في

جمال ناجي

توصيفه بكامل تفاصيله لأن غاية الكاتب من عرضه ليست جنسية، انما عرضه كان بهدف الوصول الى أبعاد أكثر أهمية وهي التخلف والتطرف على عكس بعض الروايات العربية التي كسرت كل القيود وعرضت موضوع الجنس بشكل فاضح.

الكاتب يرى أن القاعدة الأساس التي يستند إليها التطرف لينمو وينتشر هي الجهل فانعدام الوعي هو العنصر الذي يمكّن رجال الدين الفاسدين من احتلال عقول الناس والتحكم بها نتيجة تمسك المجتمع بالدين واتباعه من اي مصدر كان إلى جانب عامل الفقر الذي يحصر الإنسان في دائرة البحث عمّا يسد به رمقه لا سيما إن كان المسؤول عن إطعامه مجموعة من المتطرفين، عندها يستميلون قلوب المساكين ويكسبونهم في صفوفهم حتى يتحولوا الى دمى يلعبون بها كيفما شاءت مصالحهم.

وللغاية سعى المتطرفون في الرواية إلى زرع الأفكار الملوثة والأوهام وكل ما له علاقة

بالسحر حتى يبعدوهم عن الحقيقة فيحافظوا على وجودهم ومكانتهم مع "الغلو في العصبية الدينية، وما نشأ عنها من اضطهاد وتعذيب وسفك الدماء، وأضرار عقلية كالتي نشأت من الخرافات والأوهام.."[3].

والتّغيير يبدأ من إعادة التفكير بكل المعطيات الدينية وضبط السلطة التي يتمتع بها رجال الدين حتى لا يستفردوا بها عندها يمكننا الحديث عن نهضة شاملة وواسعة في كل مجالات الحياة لخلق نظام سياسي واجتماعي ينسجم مع الدين ولا يعارضه لتحقيق العدالة الاجتماعية.

وأزمة التطرف لا تغيب عن الأزمة السياسية العربية بل هما متداخلان، فالسياسة تستفيد من الوجود الديني المتطرف لإرساء قواعدها والمتطرفون يستغلون القاعدة الشعبية لهم للوصول الى السياسة لذلك نلحظ تركيز الكاتب في الحديث عن السياسة مع كثير من النقد للواقع السياسي الهش والمتزعزع فقد جعل السياسيين تحت رعاية المتطرفين. "فالروائي اتخذ من قضية القهر السياسي المسألة الأساسية في عمله الإبداعي. وقضية قهر الإنسان عنده ليست ضبابية أو مثالية، إنما هي متجسدة ببعدها السياسي والاجتماعي، لذلك يتمثل القص الروائي عن التاريخ والسياسة بكتابه المسكوت عنه.."[4].

نجح الكاتب في توظيف واستثمار مكونات رواية وعناصرها في ايصال ما يريد إلى القارئ بأسلوب متين متجنّبًا الغوص في تفاصيل لا تخدم الموضوع، وإن ابتعد الكاتب قليلًا من اللغة الشاعرية إلا أن القوة السردية التي نلحظها عند قراءتنا قد حققت جمالية فنية.

طرح موضوع الدين والجنس بنمط هادئ يثير في المتلقي الرغبة في إعادة بلورة بعض المفاهيم بعيدًا من الانفعال معتمدًا فقط على عنصر العقل لأن الموضوعين المطروحين لا يحتاجان الى العواطف والانفعال إنما إلى التفكير المنطقي والعقلاني .

إن مراد الكاتب من روايته ليس الاقناع او فرض ما يريد من أفكار على القارئ انما يريد من القارئ أن يعي بمفرده وبعد دراسة وتحليل الواقع العربي أن التغيير يبدأ حين نرفع ثوب القداسة عما هو غير مقدس حتى نتمكن من الوصول إلى تغيير إنساني عام.

***جمال ناجي / روائي اردني**

الهوامش :

1- بهاء الدين محمد، النزعة الإنسانية في الرواية العربية وبنات جنسها، 2007، ط1، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ص: 44

2- عبد الوهاب بو شليحة، خطاب الحداثة في الرواية المغاربية، 2011، ط1، نادي الإحساء الأدبي، ص:300 - 301

3- احمد امين، فيض الخاطر، تق: عبد الرحيم الكردي ،2009 . ج9 ، (ط3) دار الكتب المصرية. ص249

4- عبد الوهاب بو شليحة، مرجع سابق ص 188

الفقيد المناضل حميد مجيد موسى
الرجل المضيء حاضراً ومستقبلاً

طالب عبد الأمير

لا أدري من اين ابدأ، وثمة دافع قوي يدفعني الى الكتابة وكأن هذه الحيرة بدت شبه ملازمة في كل مرة أكتب فيها عن أمر يثير المشاعر فما بالك في زلزال يهز سكينة الروح. والأمر لا يتعلق بطبيعة الصلة التي تربطك بالشخص المعني، قربها او بُعدها عنك، يكفي انك ألتقيها مرة، فتدخل قلبك عبر مسامات الحوار المتأني ذي النبرة الهادئة حد والابتسامة التي قد لاتشبه ابتسامات الآخرين، ثم تلتقيه مرة اخرى او ثلاث او اربع، أو أكثر. وكلها عن طريق الصدفة. ولكن هل هي الصدفة فقط؟ ام نحن "سكان المنافي" أو الأصح " بدو المنافي" الرحّل، "من بلدٍ الى بلدٍ ومن دارٍ لدار" مثقلين بهموم الوطن الذي أزاح حدوده بنا، عن جغرافية المكان حتى أصبحنا امتدادات له في الفضاءات الغريبة، بل وحتى في مقابرها الباردة.

دقائق ويبدأ أحد المشاركين يبث على المباشر، نقلاً حياً لمسيرة تشييع "أبو داود" الى مثواه الأخير. تشييع هادئ، يشبه الوداعة التي امتلكها الرجل في حياته، وطابورٌ من المودعين يسيرون بإيقاع منظّم، يتقدمهم جثمانه مكللاً بالورود البيضاء ويسيّره على عربة اربعة أشخاص، اثنان من كلا الجانبين ويتقدمهم شخص خامس، يقود مسيرة الدفن. هكذا هو طقس التشييع المهيب حتى الحدثُ

المهيأ والدفانون الأنيقون بزيهم الرسمي بمقبرة مدينة "لايبزيك" الالمانية، يحرصون على عملية سيرِ الطقوس التي تجلت في فضاءاتها رهبةُ المكان، والعيونٌ نَعسى إنسلتّ من حدقاتها دموعٌ تجمعت بين طيات الجفون. حيث يودع المشيعون جثمان حميد مجيد موسى "أبو داود"، القائد الشيوعي والشخصية الوطنية الوقورة التي التقيتها وتركت لها في نفسي تقديراً عالياً واحتراماً من نوع خاص.

في المرة الأولى كان في مقهى "سلافيا" في براغ، ذلك المكان التاريخي الذي كان يرتاده المثقفون والأدباء والفنانون التقدميون، وكان المقهى المفضل للشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري، ردحاً من الزمن. وللكاتب

المميز شمران الياسري أبو كاطع. وكان يرتاده الشيوعيون العراقيون واصدقاؤهم من الناشطين في الجمعيات والروابط الطلابية، فروع الاتحاد العام لطلبة العراق، وكنت انا منهم. كنت حينها عائداً من مشاركتي في مؤتمر لجمعية الطلبة العراقيين في بولندا، ووصلنا انا والزميل عصام الزند، من جمعية الطلبة العراقيين في تشيكوسوفاكيا، الى براغ، ومنها سأستقل القطار الى بلغراد، حيث كنت أقيم، ولكن ولما كان الوقت مازال مبكراً على موعد القطار، نصحني زميلي ان اذهب الى المقهى وسيأتي آخرون ممن يسكنون في براغ، حتى لا أكون وحيداً وبالفعل ذهبت الى هناك ورأيت شخصاً يجلس بكل وقار وهدوء منتظراً احداً ما. كان ذلك في بداية الثمانينات. شعرت وكأنني أعرفه منذ زمن طويل... علمت "بعد حين، أنه جاء ليمثل الحزب الشيوعي العراقي في مجلة قضايا السلم والاشتراكية.

ثم مرت الايام والشهور والسنوات، ومن خلال اهتمامي بالعمل الثقافي والصحفي، وكنت اراسل "طريق الشعب" التي كانت تصدر علنية ايام "الجبهة"، اتابع، كغيري ما يجري في الوطن، حيث انقلب البعثيون على حلفائهم في الجبهة، ونكلوا بالشيوعيين وغيرهم من اليساريين والديمقراطيين، الذين لم يتبق لكثيرين منهم سبل العيش الكريم فالتجأت أعداد منهم الى اوروبا الشرقية، وخاصة بلغاريا، أيام كانت شيوعية، وبعدها حدثت الحرب العراقية الايرانية وغزو صدام للكويت، وحرب الحصار ضد الشعب العراقي والحرب الأمريكية لتحرير الكويت من الغزو الصدامي، التي سميت بالحرب الامريكية الأولى، في تلك الفترة انتقلت الى بلغاريا ومنها الى السويد، في مطلع التسعينات. وربما التقيت "أبو داود، خلال

تلك الفترة، في بلغاريا، أو هنغاريا، أو في التشيك مصادفة بالطبع، ولم يعلق شيء من تلك اللقاءات بالذاكرة. ثم جاءت الحرب الثانية التي أسقطت صدام ونظامه القمعي ولكنها اسقطت معه أسس الدولة العراقية.

خلال تلك الفترة كانت المعارضة العراقية منقسمة حول الحرب الأمريكية على العراق، وبرز موقف الحزب الشيوعي الذي تميز بمعارضته للحرب ومناهضته في ذات الوقت للنظام الدكتاتوري الفاشي. مثلما برز إسم حميد مجيد موسى "أبو داود"، شخصية قيادية جمعت بين الليونة في السياسة والصلابة في المبدأ، والتعامل مع الأحداث بروية وموضوعية. وقد تحمل وزر النضال بشجاعة وحكمة. كل هذه الصفات سمعتها عنه حتى من المختلفين مع الحزب لسبب وآخر. حتى جاء اليوم الذي التقيته في ستوكهولم. كنت حينذاك اعمل صحفيا ومعد ومقدم برامج لقسم اللغة العربية المؤسس حديثا في الاذاعة السويدية. وشاءت الصدفة ان التقي أبو داود في ضاحية "سيترا" في ستوكهولم بصحبة الصديق العزيز جاسم الحلفي "أبو أحلام" فتصافحنا بحرارة. وعلى هامش الندوة التي اقيمت له في ستوكهولم والتي تحدث فيها أمام الجالية العراقية عن الاحداث السياسية الجارية في العراق والمنطقة مفصحاً عن رؤى الحزب حول ما يجري من خلافات بين قوى المعارضة. فالتقيته في حوار مسجل أذيع من راديو السويد. وفي ذلك اللقاء تعرفت على قائد سياسي ذكي، لمّاح ومنصت جيد متأني في الإجابة مهما كانت طبيعة السؤال. كان يتمتع بكاريزما نادرة من بين العديد من المسؤولين الذين التقيتهم في حياتي المهنية في هذه الاذاعة بالذات لأكثر من عشرين عاماً، قادة احزاب، وزراء وسواهم عراقيين وعرب ومن بلدان مختلفة.

ومن الطبيعي، ان أبحث عنه، لإجراء لقاء صحفي معه للإذاعة السويدية التي أوفدتني الى اسبانيا في العام 2004 لتغطية اعمال مؤتمر مدريد للدول المانحة لإعادة اعمار العراق.

كنا نحن الصحفيون ومن جميع وكالات الأنباء ووسائل الاعلام العالمية والمحلية نتابع وقائع المؤتمر من صالة منعزلة تماماً عن قاعات الاجتماعات التي شارك فيها جمع كبير من العراقيين المشاركين في العملية السياسية، ومن قادة ووزاء خارجية ومالية، من البلدان الاوروبية والعربية، المانحة لإعادة اعمار العراق، نتابع من خلال الشاشات والمعلومات التي يفيدنا بها المكتب الصحفي للمؤتمر. كانت المشاركة العراقية واسعة لأعضاء مجلس الحكم وقادة الاحزاب السياسية ومن نشطاء في منظمات المجتمع المدني. ولكن اللقاءات بالقادة والمسؤولين المشاركين لم تجر بشكل منظم، حيث حصل تدافع بين الصحفيين للفوز بتصريح من هذا المسؤول او ذاك الوزير، من الذين عقدوا مؤتمراتهم المقتضبة في الصالة الصحفية. الا انه في بعض الاحيان تلعب الجهود الشخصية للصحفي دوراً بالحصول على سبق صحفي او مقابلة ذات طابع استثنائي. وكنت قد اجريت عدد من اللقاءات مع مسؤولين عراقيين من جهات مختلفة ومن ناشطين في منظمات المجتمع المدني وغيرها من الذين زاروا الصالة الصحفية، ومن خلال لقاء اجريته مع احدى الناشطات، وكانت من رابطة المرأة العراقية علمت بمشاركة حميد مجيد موسى سكرتير الحزب الشيوعي العراقي وعضو

مجلس الحكم، فرجوتها اخباره عن وجودي هنا ورغبتي بأجراء حوار معه. وماهو الا وقت قصير حتى دخل "أبو داود" بطلّته بشوشاً، كعادته فقمت باستقباله، تحدثنا قليلاً ثم أجريت معه حواراً مطولاً باللغة العربية، نشرته على موقع الإذاعة السويدية على الانترنت مباشرة وبعدها اخبرت زميلتي من قسم الاخبار في الاذاعة السويدية "أيكوت" عنه فأجرت معه حواراً باللغة الانجليزية. كان لقاءً جميلاً أشعرني بتواضعه الجم ونبل أخلاقه.

وتمر الاعوام فالتقي "أبو داود " مجدداً، وهذه المرة في الحبيبية بغداد العام 2018 في الجلسة الصباحية التي أقامها الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق للإعلان عن تريشيحه مظفر النواب لجائزة نوبل في الأدب. كنت قد تحدثت فيها، باعتباري عضواً في لجنة الترشيح التي ترأسها "مع حفظ الألقاب" الناقد فاضل ثامر وعضوية عدد من الاسماء من بينها مفيد الجزائري، مالك المطلبي، عمر السراي، رياض النعماني، كاظم غيلان وآخرون. كان "أبو دواد" حاضراً في تلك الفعالية التي حضرتها شخصيات ثقافية وأدبية وسياسية من بينها ميسون الدملوجي، رئيسة اللجنة الثقافية في البرلمان العراقي والصحفي عبد المنعم الاعسم وغيرهم، من لم تسعفني الذاكرة بأسمائهم. كان لقاءً حميمياً حقاً.

اللقاء الأخير في بيتي

لكن اللقاء الأخير كان مفاجئة رائعة لم أكن اتوقعها أبداً. كان مجيء "أبو داود " الى ستوكهولم، ليلبي دعوة اجتماعية، حفلة شخصية كنا نحن، زوجتي وأنا ايضاً مدعوان لها، لكن بسبب وضعي الصحي، لم أستطع تلبيتها. الا انه شرفني بزيارته الى بيتنا في اليوم التالي.

صدقاً أقول إنني فوجئت بتلك الزيارة التي اسعدتني جداً، وقد سادها جوٌ عائلي بامتياز. استفسر "أبو داود" عن صحتي، ولم يبح شيئاً عن حالته الصحية التي بدأت في تلك الفترة، وهو أمرٌ أقدّره عالياً بطبيعة الحال، وقد عرفت بها في وقت لاحق. تحدثنا في امور عامة كثيرة، وعن إصداراتي المتواضعة وكتاباتي في الصحف والدوريات والمجلات، ومنها مساهماتي في الثقافة الجديدة وطريق الشعب، وتوقف عند أحد المقالات البحثية التي نشرتها في الثقافة الجديدة بعنوان هل تشكل تطور تقنية المعلومات بديلاً للثورات الاجتماعية؟ فسألني إن كنت أومن بإمكانية حصول ذلك، فأجبته، ليس الآن ولكن ربما سيحدث هذا الامر في المستقبل، خاصة ونحن نعيش مرحلة تتطور فيها تقنيات التواصل العابرة للحدود بشكل متطور وبتسارع جداً.

ثم أخذته لأريه مكتبتي المتواضعة والتي من شدة اعتزازي بها خصصنا لها غرفة، قلت له، مازحاً هذه صومعتي كما اسماها أحد الاصدقاء، فضحك طويلاً.

وفي نظرة خاطفة الى محتويات رفوف المكتبة توقف "ابو داود" عند كتابي عن الأديب الراحل عبد الغني الخليلي "عبد الغني الخليلي.. سحر الكلمة وعشق الصداقات"، أعجبه العنوان وقال انه ينطبق على الخليلي حقاً. ثم حدثني عن معرفته بأبي فارس، وعن خصاله المميزة الكثيرة.

- ابو فارس، كان انساناً نادراً ومن زمن نادر، قال عنه "أبو داود"، وقد فاجئني حين ذكر لي انه قد رأى الكتاب في بغداد، وأنا لم ارسله

حينئذ الى العراق، حيث طُبع في اوروبا ونفذت الطبعة الاولى، ولم يتبق منها سوى ثلاث نسخ، أحدها كانت بحوزتي عندما زرت العراق في العام 2017 وكانت مهداة الى الصديق الودود الفقيد عقيل الناصري الذي رحل هو الآخر عن عالمنا، قبل ايام من رحيل أبو داود. وكان الفقيد الناصري قد اعار الكتاب بدوره الى صاحب مكتبة في المتنبي. لقد دهشت فعلاً كيف وصل الكتاب الى أبو داود؟ كما دهشت أكثر عندما سألني عن عدد المرات التي سافرت، أو جئت بها الى العراق. قلت له، بجواب سريع، أعتقد أربع مرات، لكنه فأجابني، بالقول، لا انها خمس مرات. نعم، وكان محقاً في ذلك. فقد نسيت تلك السفرة التي جئت بها الى الوطن. وزرت خلالها بغداد ليوم واحد فقط.

كان ذلك اللقاء الأخير بالفقيد العزيز حميد مجيد موسى، وبعده وقد اختفت الصُدَف التي كانت تتيح تلك القاءات، حتى جاء نبأ رحيله الأبدي ليدفن في ثرى ارض غريبة، شأنه شأن الكثيرين من شغيلة الفكر والسياسة من الذين ضحوا بكل ما يملكون من أجل الوطن لكنهم دفنوا بعيداً عنه.

فلروحك السكينة ايها النبيل الطيب، رحلت أنت الى الخلود وظلت ابتسامتك الهادئة معلقة على رفوف مكتبتي.

---

12 مارس/ آذار 2026

البعد التاريخي والمتخيل السردي
في رواية(نور خضر خان) لجابر خليفة جابر

د.رباب هاشم البيضاني

تمثل رواية (نور خضر خان) للروائي جابر خليفة جابر تجربة سردية تنطوي على الكثير من روح التجريب وتعدد مستويات الدلالة. وتتجلى روح التجريب الفني في استثمار الوقائع التاريخية والاقتراب من التاريخ على وفق صيغة الأستلهام وليس بصيغة أو خصائص، الرواية التاريخية المحضة فالرواية تمركز حول توظيف الوقائع التاريخية وتوظيف التاريخي ومزجه بالمتخيل السردي ومنذ البدء والعتبات والأشارات نكتشف البنية المركبه أو اللعبة السردية المخاتلة لتمرير المضمون الإنساني وتعددية توجهاته والكشف عن المسكوت عنه واليومي والمهمل في تضاعيف الواقع التاريخي والمرحلة الممتدة التي تجسدها الرواية منذ المرحلة أو العصر العثماني وحتى نهاية القرن العشرين وهناك إشارات ومشاهد للحرب الواقعية الإيرانية وسنوات الحصار في التسعينات وتجسد الرواية لجوء أسرة نور وهروبها من مجزرة الموت أو الأبادة العثمانية للارمن عام 1915 واستقرارها في البصرة والتعايش الاجتماعي وتماسك النسيج المكوناتي الذي يوحي لعميق هواياتي ونسق انساني يجمع الشخصيات المختلفة ومن أديان وطوائف ومذاهب مختلفة ومن الخصائص الفنية للرواية وأطارها المركب أنها لم تمركز حول متن حكائي احادي أو بؤرة سردية مستقلة ومتمركزة بل اتبعت الرواية أسلوب التخطي أو البناء الشذري فتحولت الى عدد كبير من الحكايات والشخصيات ولتعدد الأمكنة والازمنة على وفق توليفه سردية لا تخلو من التوثيق والتشويق وانباء السردي المتشابك وتعدد الرواة فيها (نور ، سهيلة ، آنوش وغيرها ..) واعتمدت بذلك على تقنية (بوليفونية) وتعدد الأصوات وظلت الرواية تنسج خيوطها بأسلوب التوليد السردي لعدد كبير من الحكايات والقصص والاجواء مما منح الرواية بعدًا اجماليًا في تنوع البيئات

والمواقف والدلالات.

وترتكز الرواية على أسلوب (الميتا سرد) بوصفها رواية داخل رواية حيث يذكر فيها اسم الكاتب جابر خليفة جابر لغرض كسر الأيهام وتقديم نص فيه الكثير من التجريب وقصدية الخطاب وكما في المقطع السردي "تضمن القسم الأول سيرة للرواية / الكتاب استخلصها الأستاذ خاجيك مما تركته زوجته الراحلة من أوراق ويوميات، إما القسم الثالث فقد تضمن دليلاً للأسر والأشخاص اعده الأستاذ خاجيك ايضًا" وضم القسم الثاني رواية (انوش) كما صدرت في الطبعة الأولى سنة (2024) وفقًا لصياغة وإعداد الروائي الراحل الأستاذ جابر خليفة جابر رحمه الله ومن دون تعديلات وقد توخينا من الأضافة "تقديم تفاصيل جديدة تبين الجهد الكبير الذي بذلته المؤلفة الأصلية للكتاب (أم زوجتي) السيدة الراحلة نور خضر خان رحمها الله" (الرواية:9). والمقطع يكتشف عن ملامح التجريب واللعبة السردية المخاتلة مع تأطير فانتازي وغرائبي ولمحة ميتا سردية تجسد (الرواية داخل الرواية) تجسد ذكر المؤلف الحقيقي.

يتيح السرد المخاتل التوكل في تفاصيل ووقائع تاريخية وحكايات متناثرة على مدى زمني ممتد منذ القرن السادس عشر وحتى يومنا الحاضر. وهذا الامتداد الزمني الواسع اقتضى تتبعًا وتجسيدًا لأحداث متشابكة وشخصيات متناقضة وسم الرواية بنوع من الأستطراد المضاعف والتشضي على مستوى البنية السردية ومن خصائص الرواية الفنية ان فصولها أهملت عناوين تذكر فيها الشخصيات مثل (سهيلة، مريام) و(سلام) و (نظران) و(علي زمان) و(عدن افندي) و(محاسن) و(سلطانة) و(احمد بن مهنا) و(أشرقت) و(حكايات توما) و (ماركيل) و(فاطمة القراطيسي) و(ارميناك) و(علي خضر خان) وغيرها من الشخصيات التي تشكلت على شكل عناوين لكل فصول الرواية المتشابهة والمتسلسلة والمتشابكة مما جعل رواية تتسم بهذا البناء التركيب والأطاري واتاح لها السياحة في عدة ازمان وأزمنة وتتبع الشخصيات المختلفة.

وتتمركز الرواية من حيث التيمات والمضامين حول الأنسان والصراع الطبقي والقيمي واشكالية الهوية واشكالية العنف واشكالية الآخر والتعايش وموضوعية القيم الأنسانية وتداعيات الصراع القائم بين الخير والشر بشكل عام.

ويمكن الأستدلال على أن الرواية في جانب منها تمثل سردية مكانية في تركيزها على مدينة البصرة وتاريخها واحداثها وجغرافيتها وواقعها الديموغرافي المتعدد حتى يتحول الواقع البصري الى بانورما كوزموبولتية اي ينصر فيها الاقوام والطوائف والاخباس وتتعايش فيها الهويات والانتماءات والأصول المختلف وتمثل محلة (دار زمان) رمزًا للبعد ورمزًا لهذا التشابك الإنساني وتعدد دلالات هذا التداخل الدال وكما ينبئ المقطع السردي الآتي والدال من الرواية:") تمزج هذه الرواية بين تاريخ يجمع بين المعلن والمسكوت عنه) وبين سيرة غريبة حافلة بالأحداث لدار في البصرة القديمة (محلة نظران) تسالم الناس على تسميتها ب (دار زمان) وتتناول مصائر أسر ارتبطت حياتها بهذه الدار فاستحقت الكتابة والتوثيق، وقد اشتقت

الرواية مادتها من كتاب بعنوان (دار زمان) قدمته السيدة نور خضر خان الى دار ميران لطباعته ونشره، ولكننا ولأسباب فنية اقترحنا على السيدة نور ان تعاد صياغة كتابها ليصدر كرواية بعنوان (انوش) فأرسلت لنا موافقتها الخطية مشكورة وقد وقع اختيارنا لإنجاز هذه المهمة على الأستاذ الروائي جابر خليفة جابر لاهتمامه بكل ما يتعلق بمدينة البصرة من سير واخبار ولتجربته في السرد التاريخي، فله منا كل الشكر وباقة تحيات.. دار ميران للطباعة والنشر (البصرة 2024)" (الرواية:11).

وهذه الإفاضة تكشف عن ملامح اللعبة السردية المخاتلة وأسلوب التجريب لخلق شكل فني (ميتاسردي) كمنظومة تعبيرية تحكم بناء الرواية بدلالة ذكر اسم مؤلف الرواية أكثر(6) من مرة . ونجد سمة السرد الأطاري وتعدد الرواة وسير النسق السردي من شخصية الى أخرى حتى يصبح الرواة مجموعة من الحكائين عن البصرة واناسها واماكنها وطقوسها والأحداث التي مرت بها فتقول الشخصية الرئيسة " وبالإضافة الى استفادتي من خاجيك ومعرفته بحكاية دار زمان وأهلها، فأن ما قدمته امه السيدة ماريام وابنتها الأنسة كنار كان مهمًا وله وقع خاص في نفسي حيث حللت ضيفة عليهم لعدة ايام لا تُنسى متعتها سعدتُ فيها بكرمهم البصري الأصيل وصحبتهم الطيبة وزين ذلك كله وجود المحبوب الصغير شكران وكانوا قد تحولوا للسكن في دار زمان " (الرواية:14).

فالبناء السردي اعتمد على عدة رواة وعلى منظور تواتري متصاعد كل راوي وكل حكاء ينقل الوقائع الى الآخر وبما يؤدي إلى سرد لولبي وعنقودي يتصاعد ويتشابك ويتلقط غرائب الأحداث والشخصيات والأمكنة وذكر المدن مثل البصرة ونيويورك وزغبار وغيرها من المدن.وتكشف البطلة والشخصية الرئيسة في الرواية عن لقائها بحبيبها خاجيك وهو مسيحي ارذوكي ارمني وزواجه منها وهي مسلمة من التركمان وكيف غير اسمه الى خيري وهي دلالة أو شفرة قصدية على طبيعة التناغم الاجتماعي ونسيج المكونات المتماسك في مجتمع البصرة العابر لكل الهويات الفرعية وتثير الرواية اشكالية الهوية التناغمية التي تتشكل من مكونات متعددة ولاتتعرض الى الصراع أو خطاب الكراهية القائم على النزعة الاقصائية وتهميش الآخر وهي احدى الثيمات التي كشف عنها السرد ودلالاته "فالطريقة الغريبة التي تزوجنا تمثل روح المحبة والسلام التي عرف به تاريخ دار زمان ،فقد اتفقت الأسرتان على زواجنا بصيغتين

رسميتين الأولى في المحاكم العراقية كما اشترطت امي (أمان) والثانية في المحاكم البراطينية كما اشترطت ماريام أم خاجيك، وفي العقدين بقي اسمي كما هو ، لكن اسم خاجيك في العقد العراقي فقط صار خيري ، وفي العقد البراطيني بقي كما هو، في العراق تم العقد في جامع المعرفي الكائن على نهر العشار، وردد خيري أو خاجيك الشهادتين وأعلن اسلامه من دون علم والدته ماريام ،ثم تم تأييد عقد زواجنا في المحكمة الرسمية")الرواية :35).

ونجد هيمنة النزعة الأنسانية في هذا المقطع السردي الدال من الرواية وذوبان الهوية الجهوية والانتصار الى الهوية الأنسانية والتناغم الاجتماعي الذي يصهر جميع المكونات وانتفاء التعصب أو التطرف بكل أشكاله ومرجعياته الدينية والاتنية والقومية والطبقية مما يسفر عن دلالة مركزية في الرواية لنقل صورة هذا الواقع الذي ينطوي عليه المكان (دار زمان) ورمزية الاسم وكونه يمثل إشارة الى مدينة البصرة التي عرفت بطابعها الكوزمويوليتي كونها ميناء يجمع كل الجنسيات والاطياف في وحدة متماسكة دون إقصاء أو عداء أو كراهية، وهذه الصورة تمثل النموذج المضاد والمعاكس لما حدث لأسرة نور من إقصاء وقتل وتهجير من قبل العثمانيين وفي الواقعة المشهورة لأبادة الارمن في نيسان -1915 والتي راح ضحيتها أكثر من مليون ونصف ارمني وهاجر القسم الأعظم منهم إلى البلدان المجاورة ومنها العراق وانتشر الارمن في البصرة وسائر مدن العراق. ونجد قصدية الخطاب السردي يتناول هاتين الدلالتين أو شفرتين لتقديم الصورة ونقيضها في مايتعلق بتاريخ الاقليمات وهجرتها ومعاناتها وما يرمز ذلك الى ضرورة الارتهان الى مجتمع متناغم رغم الأختلافات واتسمت فصول الرواية بالأختزال وكأن الرواية تقدم مشاهد بانورامية سريعة تكشف عن العمق الاجتماعي وعاداته وطقوسه وتناقضاته احيانا تلك التناقضات التي توجبها الحياة الطبيعية وليس التناقضات الصراعية وان حدثت فأنها تمثل الشخصيات السلبية ونجد الارتكاز على استحضار الماضي وجعل الذكريات بوصفها مرجعية سردية متوهجة بحثا عن الذات وبحثا عن المكان الأليف أو الشاعري كما يصف جاستون باشلار هذا النوع من النوستالوجيا الكامنة وكما وصفها ماتشادو "كل تلك الذكريات ،ذكريات الطفولة الزرقاء كما وصفها شاعر اسبانيا الكبير ماتشادو امتزجت بما رواه لي خاجيك من حكايات دار زمان وأهلها، يوما بعد يوم وانا اسيرة حبي لخاجيك بدأ الكتاب بالتشكل في ذهني وبدأت الكتابة ووضعت مخططًا اوليًا للكتاب. شجعني خاجيك ووعد بأن يوفر لي كل ما احتاجه من وثائق عن الدار وأبدى استعداده لتسهيل سفري الى العراق وتركيا وحتى أرمينيا" (الرواية:3).

ويمكن الأستدلال على تحولات النسق الواقعي الى النسق أو الدلالة الترميزية فأساس الرواية والكتابة عن دار زمان وأهلها واحوالهم وعاداتهم وصفاء نفوسهم والأحداث الفاصلة والشخصيات الغريبة كانت هذه الكتابة مرتبطة وناتجه عن الحب الحقيقي والتآصر الأنساني العميق بين نور وخاجيك أو خيري وهو ارتباط انساني متعال عابر لكل التناقضات والتمايزات لتعميق فكرة مركزية هي العلاقة أو

التماهي القيمي بين البشر وهذا التلاقح أو التألف الثنائي انتج حبا ثم زواجا ثم رواية تحكي قصة التوق الأنساني وتحولات الحياة والأزمنه والامكنة مثلما نحد صورة ناصية للحب في زمن الكوليرا لماركيز حين انبثق السرد ليوثق لقاء العاشقين الذين يمثلان رمزين وفي رواية(نور خضر خان) يتحول الحب الى دلالة وحدث كوني وليس مجرد علاقة عاطفية عابرة انه رهان على الانسان والذات والهوية ونجد خاجيك (خيري) ونور وقد تحولا الشاهدين على العصر. ومن خصائص الرواية لارتكازها على لغة مختزلة دون تزويق أو افتعال بلاغي، لغة تمزج بين الاخبار والتعبير والإيحاء كما نجد في هذا المقطع انموذجا لهذه الدلالة وفي فصل موسوم (إعدام المير) "لم يتيح القدر لمحاسن ان تنجب طفلا آخر، ولم تدم فرحتهما، فبعد ايام من ولادة آذار سنة 1769 - فز علي زمان على سوت خادمه المرعوب عنبر وهو يصرخ: شنقوا المير.. عمي شنقوا المير" (الرواية : 122). والمقطع يصف الكابوس الذي هيمن على عنبر وما ارتبط به من أحداث عاصفة. رواية نور خضر خان توليفه سردية تجمع التاريخ والمتخيل السردي وتبحث في الأنسان والذات والهوية والتوق.

مالك المطلبي : يا مالكا الحكمة... وداعا

بوصفه شاعرا وناقدا واكاديميا، تحول د. مالك المطلبي الى مصدر للبوح بحكمته واحكامه إزاء المشكلات والآراء والخطاب الثقافي الذي نضج على نار هادئة وصار يستقبل بحفاوة من قبل المبدعين والمثقفين والاكاديميين حتى بات مشروعه الأخير (رباعية المشروع البصرياثي) باجرائه الاربعة بمثابة الوداع الاخير.

هكذا كان الفقيد الراحل: د. مالك المطلبي يرى في عيون مجايليه وطلبته والمنتمين الى عطائه الباهر.

من هنا كان غيابه ثقيلا على محبيه وعلى الحياة الثقافية بكل تنويعاتها وآفاقها.

لروحه السلام والطمأنينة.. ولمنجزاته الثرة البهاء والخلود

هيئة تحرير مجلة الثقافة الجديدة

دوستويفسكي والاختبار الأخير للحرية

عمرو أبوالعطا

الخوف من العقل، خوف قديم؛ لم يكن أوله رفض قبول الوجود، ولن يكون آخره البقاء لأكثر من قرن في ظلام الشك، شك عجزت الفلسفات المادية والعقلانية المتطرفة عن تقديم خلاص منه للإنسان، شك لم ينقذه منه إلا الحب. إنسان كان اسمه (إيفان)، ولن أضيف جديدًا فالصراع معروف، يعرفه الضمير كله منذ مصيبة السقوط الروحي وحتى فاجعة العدم. لن أكشف جديدًا حين أقول المعروف والمشهور: إن ملحمة "الإخوة كارامازوف"، التي وضعها دوستويفسكي كشهادته الأخيرة على الإنسانية، شهدت تضامنًا وتعاطفًا وجوديًا، وحدّت القراء حول العالم أمام سؤال: كيف نعيش؟ ولا قلب له من لم ينخلع قلبه على إيفان، منذ سقوطه في بئر التمرد العقلي، وهو يرى أفكاره تتحول إلى دماء، ولا عقل له من لم يحزن على موت الإيمان في قلب إيفان، بعد سنين من الجدل المضني الذي قامت به روح دوستويفسكي في روسيا الأرثوذكسية. ولا قلب له من لا يسأل: ثم ماذا بعد؟ فهل العقل الذي يرفض العالم يستحق الخلاص؟

إن التعاطف والتضامن الإنساني كان حاضرًا وبقوة في "مأساتنا الكارامازوفية"، وقد كان حاضرًا أيضًا في وجه أليوشا كارامازوف؛ ونحن لم نر ولم نتابع إيفان وهو يلفظ أنفاس العقل الأخيرة في مواجهة شيطانه، وهو تجلٍّ لكبريائه ورفضه للإيمان، لكن العديد من قراء الفلسفة والتأمل الوجودي رأوا أليوشا وهو يمر بأزمة إيمانية عميقة بعد رحيل مرشده، الشيخ زوسيما. وكانت ذروة الرفض الأخلاقي والتمرد العقلي قد تجسدت بالفعل في أخيه إيفان، وليس فيه.

ففي فصل "التمرد"، يقدم إيفان لأليوشا حجته المدمرة التي ترفض "تذكرة الدخول" إلى عالم يُبنى تناغمه المزعوم على معاناة الأبرياء، معلنًا: "أنا أرفض التناغم العلوي كليًا... إنه لا يساوي دمعة واحدة... لتلك الطفلة الصغيرة التي ضربت صدرها بقبضتها الصغيرة... لا أريد التناغم، ومن أجل حب البشرية لا أريده." أما أزمة أليوشا، التي تلت ذلك، فجاءت في سياق مختلف وجوهر مغاير؛ فبعد موت مرشده زوسيما، وقع أليوشا في حيرة عميقة

تتعلق بظاهر عدم العدل في عالم تغلب عليه الفساد والقسوة، وبشكٍ عابر في القوة الخلاصة لتعاليم شيخه حين تُواجه بواقع الموت والانحطاط. إلا أن هذه الأزمة، على عكس تمرد إيفان الفلسفي الجذري والمطلق، كانت بمثابة اختبار للنفس أكثر منها إنكارًا للمبدأ. لقد دفعته نحو تأسيس إيمانه الخاص، ليس عبر الجدل المجرد، بل من خلال التطبيق العملي للحب والتضامن مع المتألمين. فإيمانه، بعد العاصفة، لم يكن هروبًا من العالم، بل كان إعادة تأكيد أعمق على قبول الحياة بكل تناقضاتها وآلامها، وقوة للمضي قدمًا في فعل الخير دون ضمانات ميتافيزيقية كاملة. وكانت آخر الكلمات التي سمعناها من الشيخ زوسيما، الذي يمثل التقليد الأرثوذكسي الأصيل لـ "الستارشيفستفو" (المشيخة الروحية) كمرساة روحية لأليوشا، هي الدعوة إلى المسؤولية الكونية والحب الفعّال، قائلاً ومؤكدًا: "على كل إنسان أن يعتبر نفسه مسؤولًا عن خطايا الجميع." في هذه الملحمة الروائية، يقدم دوستويفسكي تحليلًا غير مسبوق لجوهر الوجود؛ فـأليوشا يمثل القطب الإيجابي الذي يرى في الإيمان مصدر القوة المعنوية والراحة الروحية. وهذا الإيمان ليس مجرد اعتناق سلبي لعقائد تقليدية، إنما إيمان متجذر في الحب العملي، الذي يركز على ضرورة عدم النفور من العالم، بل تقديسه بحب الحياة المتجذر في الإيمان. حيث أن جوهر تعاليم زوسيما الذي تشربه أليوشا هو أن الإيمان عمل يومي متواصل من التضحية والرحمة، حتى تجاه أسوأ الأعداء، وهذا المفهوم يُعلي من قيمة التضحية والرحمة، ويضع ثقلاً إيجابيًا على الإرادة الحرة، التي يُطلب منها العمل بلا توقف. أليوشا هو النموذج الذي سعى دوستويفسكي لرسمه كمثال للإيمان الحي، متحديًا بذلك اليأس الفلسفي السائد في عصره، الذي كان يميل إلى التجريد والشك. فالأليوشا ليس قديسًا مثاليًا معزولًا في صومعته، إنما هو الإنسان الذي يعالج جروح العائلة والمجتمع، متجاوزًا الشك العارض الذي يواجهه بعد وفاة شيخه، ليعود إلى الإيمان من خلال رؤيا سماوية يدرك فيها أن الإيمان الحقيقي يكمن في قبول الحياة ومحبتها بجميع تناقضاتها، ليصبح الأداة التي يحاول بها دوستويفسكي علاج جروح العائلة والمجتمع من خلال الحب العملي الذي يرفض الانفصال عن العالم المادي. إيمانه يمثل الخيار الإيجابي للإرادة الحرة: الحرية هي القدرة على أن تحب الجميع دون شروط، وأن ترى جمال الله حتى في أحقر الأماكن. أما إيفان كارامازوف، فهو تجسيد للشك العميق والتمرد العقلي الذي يمثل تساؤلاً وجوديًا حول عدالة الله، وهذا الشك يتجاوز الرفض المادي لوجود الخالق ليصبح رفضًا أخلاقيًا للخليقة برمتها، وهذا ما يتجسد بوضوح في فصل "التمرد" (Rebellion)، حيث يرفض إيفان قبول فكرة وجود تناغم أو سعادة أبدية مبنية على قطرة دم واحدة لطفل معذّب، مفضلاً الشك والألم على القبول الأعمى لمأساة العالم، مفضلاً حريته الأخلاقية الشخصية فوق المصلحة الكونية المزعومة. إيفان تمثيل لأحد أقصى تجليات العقل الحديث في درجات كبريائه، حيث يطالب بالكمال الفوري ويرفض التسليم بالتناقض، معتقدًا

أنه يستطيع أن يحاكم الخالق بمقاييسه البشرية المحدودة، وهو الطريق الذي اعتبره دوستويفسكي البوابة إلى العدمية والجنون. ذروة هذا التحدي تتجسد في قصيدة "المفتش الأعظم"، التي يرويها إيفان لأخيه أليوشا، وتعد تحديًا مباشرًا للإرادة الحرة التي منحها المسيح، حيث يعود المسيح إلى إسبانيا في القرن السادس عشر، ويلتقي بالمفتش الأعظم الذي يجسد منطق السلطة المستبدة بوجهيها الديني والدنيوي، ويتهمه بأنه أخطأ عندما رفض الإغراءات الثلاثة للشيطان في الصحراء. فبرفضه لإغراء تحويل الحجارة إلى خبز، أثقل كاهل البشرية بحرية الاختيار التي لا يقوى البشر على حملها، ويجادل المفتش بأن الناس يريدون الأمن قبل الحرية، ويفضلون "الخبز" (الأمان المادي) على الحرية الروحية. كما يرى المفتش أن المسيح أخطأ برفضه السلطة الدنيوية لتوحيد البشر، ورفض المعجزة القسرية التي تجبر أحدًا على اتباعه، ليقرر المفتش أنه سيسلب الناس إرادتهم الحرة ويهبهم الوحدة والضمير الهادئ عبر الغموض والمعجزة والسلطة. وهذا يثبت أن الشك المطلق لإيفان يقود إلى الاستنتاج بأن الحرية بلا هدف، ومن الأفضل أن تُسلب ليحل محلها السكون والسلطة، وهو ما يمثل ذروة العبقرية الدرامية لدوستويفسكي في ربط الشك الفلسفي بالديكتاتورية بمختلف أشكالها التي تضحي بالحرية من أجل النظام. تشكل الإرادة الحرة والمسؤولية الأخلاقية النقطة التي يلتقي فيها الشك بالإيمان، حيث يختبر الأبناء الأربعة نتاج اختيارهم، وتظهر إمكانية كل من الخلاص والدمار. يجسد ديمتري كارامازوف الابن البكر الفوضى العاطفية والطبيعة الروسية المندفعة والمليئة بالتناقضات، فهو يمثل الصراع الأخلاقي بين الجمال "السادومي" (سودوم) والجمال "المريمي" (مادونا)، فحياته عبارة عن سلسلة من الصراعات المشتعلة، سواء كان خلافه المالي مع والده على الميراث، أو تنافسه العاطفي معه على حب جروشينكا. ديمتري الضحية الحية للإرادة الحرة غير المنظمة؛ فهو ليس شريرًا بالجوهر، لكنه يمتلك "قوة هائلة" كانت يمكن أن تقوده إلى قمة السمو أو قاع الانحطاط. ورغم إدانته ظلمًا بجريمة لم يرتكبها، يختار ديمتري في النهاية تقبّل المعاناة والسجن، وهذا القبول ليس استسلامًا بل فعل من أفعال الإرادة الحرة المقترنة بالمسؤولية، حيث يدرك أنه مذنب ليس بارتكاب الفعل المادي، بل بـ "نيته" و "رغبته" في القتل وبحياته الفاسدة بشكل عام. تصبح المعاناة لديه طريقًا للخلاص الروحي والتطهير الأخلاقي، حيث يكتشف "الإنسان الجديد" بداخله عبر الألم. في المقابل، يأتي دور سميردياكوف، الابن غير الشرعي وضحية الإهمال المجتمعي، الذي يمثل حرية التطبيق العدمي. فهو يجسد الأثر المدمر لفلسفة إيفان عندما تقع في أيدي شخص يفتقر إلى الضمير والأخلاق، حيث يتلقف سميردياكوف فكرة إيفان الفلسفية: "إذا لم يكن هناك إله، فكل شيء مباح"، ويفسرها بطريقة حرفية عملية ويستخدمها لتبرير قتل الأب فعليًا. سميردياكوف هو الوجه القبيح والأكثر صدقًا لفلسفة إيفان، فهو يمارس خياره نحو التدمير المطلق، دون أن يمتلك النبل الروحي لديمتري

أو النضال العقلي لإيفان، لكن فعلته هذه ترتد لتدميره هو شخصيًا، حيث ينتهي به الأمر بالانتحار بعد اعترافه لإيفان، مما يثبت أن الإرادة الحرة التي تنفصل عن أي رابط أخلاقي أو إيماني تقود حتمًا إلى الهلاك الذاتي والعدم المطلق. أما إيفان، فينهار عقليًا بعد الجريمة لأنه يدرك أنه كان "المحرض" الفكري لسميرد‌ياكوف، حيث يكشف صراعه الداخلي مع الشيطان، الذي هو تجلٍّ لكبريائه ورفضه للإيمان، أن الشك المطلق يؤدي في النهاية إلى الجنون والعجز. فالحرية، عندما لا ترتبط بقيمة أخلاقية متجاوزة كما هو الحال مع أليوشا، تصبح عبئًا يفقده السلام الداخلي وقدرته على مواجهة الواقع. إيفان يمثل هنا عبء الإرادة الحرة التي ترفض الإيمان، وهذه الحرية، عندما لا ترتبط بقيمة أخلاقية متجاوزة، تصبح سيفًا يقطع حاملها. يختتم دوستويفسكي روايته بتحويل التركيز من الجريمة إلى الخلاص والأمل، وبالتحديد عبر دور أليوشا ودوره القيادي المستقبلي، حيث تتركز الفلسفة النهائية للرواية في كلمات الشيخ زوسيما، الذي يحث على الحب اللامشروط وقبول المعاناة، وتمثل تعاليم زوسيما ردًا مباشرًا على شك إيفان. فبدلاً من الرفض العقلي لمعاناة العالم، يواجهها زوسيما بالدموع والشفقة، ويدافع عن الحرية التي منحها المسيح، مدركًا أن الحب المختار بحرية هو وحده الذي له قيمة روحية. ويتجسد الأمل في المشهد الختامي الذي يركز فيه دوستويفسكي على أليوشا وعلاقته بمجموعة من الصبية، وأبرزهم إيليوشا سنيجيريف الذي يموت بعد معاناة طويلة. وهذا التحول في التركيز بعيدًا عن محاكمة ديمتري (الصراع الدنيوي) يمثل بيانًا لدوستويفسكي عن الأمل والخلود الأخلاقي. ففي جنازة إيليوشا، يلقي أليوشا خطبته الوداعية الشهيرة للأطفال، والتي يمكن اعتبارها وصية دوستويفسكي الأخلاقية للأجيال القادمة، إذ يحثهم على تذكر اللحظات الجميلة والمحبة التي عاشوها مع إيليوشا، مؤكدًا أن هذه الذكريات هي أقوى سلاح ضد الشر واليأس، وأن الإيمان هو سلسلة من الذكريات الطيبة التي تربط الناس وتعدهم بالخلود في وحدة روحية، حيث يقول لهم: "اعلموا أننا لا نعيش عبثًا، وسوف نظل نحب بعضنا البعض رغم كل شيء". يقدم دوستويفسكي رؤية متفائلة للحياة، حيث إن الإرادة الحرة تقود إلى الحب الفعّال (أليوشا)، الذي يستبدل العدمية المدمرة (سميرد‌ياكوف وإيفان) بوحدة إنسانية مليئة بالأمل، ويختتمها بوعد أليوشا للأطفال بالبقاء معهم إلى الأبد، ليثبت أن الإيمان الحريقي يكمن في قوة الحب في الحياة المعاصرة وليس في التساؤلات اللاهوتية المجردة التي تجبر أحدًا على اتباعه، ليقرر المفتش أنه سيسلب الناس إرادتهم الحرة ويهبهم الوحدة والضمير الهادئ عبر الغموض والمعجزة والسلطة. وهذا يثبت أن الشك المطلق لإيفان يقود إلى الاستنتاج بأن الحرية بلا هدف، ومن الأفضل أن تُسلب ليحل محلها السكون والسلطة، وهو ما يمثل ذروة العبقرية الدرامية لدوستويفسكي في ربط الشك الفلسفي بالديكتاتورية بمختلف أشكالها التي تضحي بالحرية من أجل النظام. تشكل الإرادة الحرة والمسؤولية الأخلاقية النقطة التي يلتقي فيها الشك

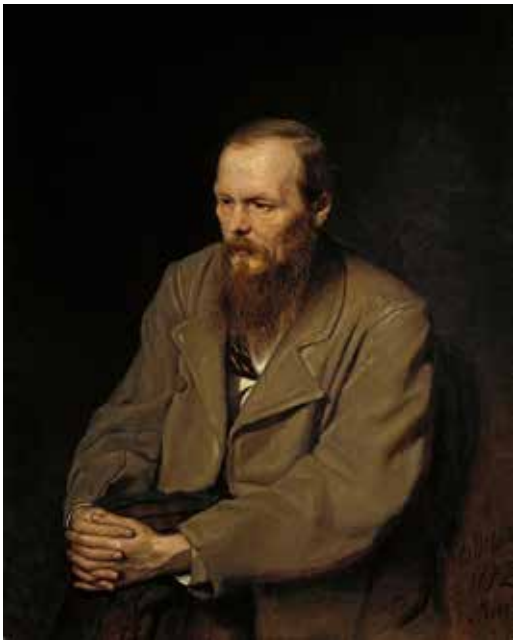

بالإيمان، حيث يختبر الأبناء الأربعة نتاج اختيارهم، وتظهر إمكانية كل من الخلاص والدمار. يجسد ديمتري كارامازوف الابن البكر الفوضى العاطفية والطبيعة الروسية المندفعة والمليئة بالتناقضات، فهو يمثل الصراع الأخلاقي بين الجمال "السادومي" (سودوم) والجمال "المريمي" (مادونا)، فحياته عبارة عن سلسلة من الصراعات المشتعلة، سواء كان خلافه المالي مع والده على الميراث، أو تنافسه العاطفي معه على حب جروشينكا.

ديمتري الضحية الحية للإرادة الحرة غير المنظمة؛ فهو ليس شريرًا بالجوهر، لكنه يمتلك "قوة هائلة" كانت يمكن أن تقوده إلى قمة السمو أو قاع الانحطاط. وعلى الرغم من إدانته ظلمًا بجريمة لم يرتكبها؛ يختار ديمتري في النهاية تقبّل المعاناة والسجن، وهذا القبول ليس استسلامًا بل فعل من أفعال الإرادة الحرة المقترنة بالمسؤولية، حيث يدرك أنه مذنب ليس بارتكاب الفعل المادي، بل بـ "نيته" و "رغبته" في القتل وبحياته الفاسدة بشكل عام. تصبح المعاناة لديه طريقًا للخلاص الروحي والتطهير الأخلاقي، حيث يكتشف "الإنسان الجديد" بداخله عبر الألم. في المقابل، يأتي دور سميردياكوف، الابن غير الشرعي وضحية الإهمال المجتمعي، الذي يمثل حرية التطبيق العدمي. فهو يجسد الأثر المدمر لفلسفة إيفان عندما تقع في أيدي شخص يفتقر إلى الضمير والأخلاق، حيث يتلقف سميردياكوف فكرة إيفان الفلسفية: "إذا لم يكن هناك إله، فكل شيء مباح"، ويفسرها بطريقة حرفية عملية ويستخدمها لتبرير قتل الأب فعليًا. سميردياكوف هو الوجه القبيح والأكثر صدقًا لفلسفة إيفان، فهو يمارس خياره نحو التدمير المطلق، دون أن يمتلك

النبل الروحي لديمتري أو النضال العقلي لإيفان، لكن فعلته هذه ترتد لتدميره هو شخصيًا، حيث ينتهي به الأمر بالانتحار بعد اعترافه لإيفان، مما يثبت أن الإرادة الحرة التي تنفصل عن أي رابط أخلاقي أو إيماني تقود حتمًا إلى الهلاك الذاتي والعدم المطلق. أما إيفان، فينهار عقليًا بعد الجريمة لأنه يدرك أنه كان "المحرض" الفكري لسميرديا كوف، حيث يكشف صراعه الداخلي مع الشيطان، الذي هو تجلٍّ لكبريائه ورفضه للإيمان، أن الشك المطلق يؤدي في النهاية إلى الجنون والعجز. فالحرية، عندما لا ترتبط بقيمة أخلاقية متجاوزة كما هو الحال مع أليوشا، تصبح عبئًا يفقده السلام الداخلي وقدرته على مواجهة الواقع. إيفان يمثل هنا عبء الإرادة الحرة التي ترفض الإيمان، وهذه الحرية، عندما لا ترتبط بقيمة أخلاقية متجاوزة، تصبح سيفًا يقطع حاملها. يختتم دوستويفسكي روايته بتحويل التركيز من الجريمة إلى الخلاص والأمل، وبالتحديد عبر دور أليوشا ودوره القيادي المستقبلي، حيث تتركز الفلسفة النهائية للرواية في كلمات الشيخ زوسيما، الذي يحث على الحب اللامشروط وقبول المعاناة، وتمثل تعاليم زوسيما ردًا مباشرًا على شك إيفان. فبدلاً من الرفض العقلي لمعاناة العالم، يواجهها زوسيما بالدموع والشفقة، ويدافع عن الحرية التي منحها المسيح، مدركًا أن الحب المختار بحرية هو وحده الذي له قيمة روحية. ويتجسد الأمل في المشهد الختامي الذي يركز فيه دوستويفسكي على أليوشا وعلاقته بمجموعة من الصبية، وأبرزهم إيليوشا سنيجيريف الذي يموت بعد معاناة طويلة. وهذا التحول في التركيز بعيدًا عن محاكمة ديمتري (الصراع الدنيوي) يمثل بيانًا لدوستويفسكي عن الأمل والخلود الأخلاقي.

ففي جنازة إيليوشا، يلقي أليوشا خطبته الوداعية الشهيرة للأطفال، والتي يمكن ان نعدها وصية دوستويفسكي الأخلاقية للأجيال القادمة، إذ يحثهم على تذكر اللحظات الجميلة والمحبة التي عاشوها مع إيليوشا، مؤكدًا أن هذه الذكريات هي أقوى سلاح ضد الشر واليأس، وأن الإيمان هو سلسلة من الذكريات الطيبة التي تربط الناس وتعدهم بالخلود في وحدة روحية، حيث يقول لهم: "اعلموا أننا لا نعيش عبثًا، وسوف نظل نحب بعضنا البعض على الرغم من كل شيء". يقدم دوستويفسكي رؤية متفائلة للحياة، حيث إن الإرادة الحرة تقود إلى الحب الفعّال (أليوشا)، الذي يستبدل العدمية المدمرة (سميرديا كوف وإيفان) بوحدة إنسانية مليئة بالأمل، ويختتمها بوعد أليوشا للأطفال بالبقاء معهم إلى الأبد، ليثبت أن الإيمان الحريقي يكمن في قوة الحب في الحياة المعاصرة وليس في التساؤلات اللاهوتية المجردة.

استأثرت مجموعة قصص الزميل حسب الله يحيى "بيت الهموم"، التي صدرت حديثا عن اتحاد الادباء والكتاب في العراق، باهتمام عدد من الادباء والنقاد والقراء. ننشر ادناه ثلاث قراءات لها..

هيئة التحرير

(بيت الهموم) فضاء السرد وتشكيل الاستجابة

د. إسماعيل نوري الربيعي

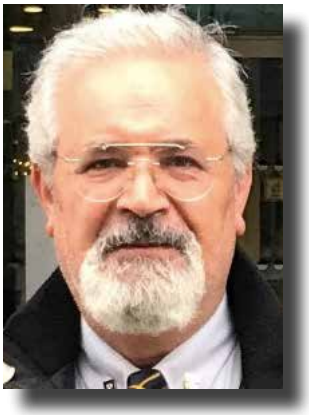

في مجموعته القصصية ''بيت الهموم''، يقدم الأديب العراقي حسب الله يحيى عالماً سردياً متشعباً يعج بالشخوص والأمكنة والتفاصيل الصغيرة التي تفضي إلى أسئلة كبرى. والمجموعة، التي تحمل إهداءً إلى ''من لا سجن لهم''، تستدعي منذ اللحظة الأولى قارئاً واعياً، قارئاً يدرك أن النص الأدبي ليس وعاءً مغلقاً للمعنى، بل مساحة تفاعل مفتوحة، تتشكل فيها الدلالات عبر علاقة جدلية بين ما يقدمه الكاتب وما يحمله المتلقي من آفاق توقع وخبرات حياتية وجمالية. هذا التصور يشكل جوهر نظرية استجابة القارئ التي تؤكد أن المعنى الأدبي لا يكمن في النص وحده، ولا في القارئ وحده، بل في المساحة التفاعلية بينهما. تفتتح المجموعة باقتباسين عميقين: الأول لموريس بلانشو ''ما من داع للسجن؛ فنحن نعلم أننا فيه فعلاً''، والثاني لفاضل العزاوي في تأملاته عن ''أجمل الأحجار'' التي جرفها الطوفان، وأجمل الأطفال الذين لم نسمع صراخهم في الزنزانات. هذه البداية تهيئ القارئ لـ ''أفق انتظار'' محدد، فهو مقبل على عوالم سردية تتشكل فيها الهموم ككائنات حية، لها ثمارها وأسرارها، كما يخبرنا الكاتب في خاتمته. القارئ هنا ليس متلقياً سلبياً، بل مشاركاً في بناء هذه العوالم، يستحضر تجربته مع الهم والبيت والذاكرة العراقية ليملأ الفجوات التي يتركها النص عمداً. يعمد حسب الله يحيى إلى توظيف التناص بشكل لافت، سواء مع نصوص أدبية أو مع شخصيات ثقافية كبرى. فإشارته إلى آينشتاين الذي فشل دراسياً ثم

أصبح عالم النسبية، ومحمد شكري الذي غادر المدرسة مبكراً ليصير كاتب سيرة عربياً مهماً، وعباس العقاد الذي لم يكمل دراسته الابتدائية، تشكل شبكة دلالية تدعو القارئ إلى إعادة النظر في مفاهيم النجاح والفشل. كما أن استدعاء شخصية دون كيشوت في قصة "فارس من هذا الزمان" عبر شخصية "حاتم الفارس" وعلاقته بـ"أبو كازو" بائع الشاي، يخلق طبقة تأويلية عميقة. القارئ الذي يمتلك رصيداً ثقافياً سيرى في "حاتم الفارس" نموذجاً للعظمة الزائفة، وفي بائع الشاي راوياً شعبياً يعيد إنتاج الأسطورة ليحولها إلى مصدر رزق، في مشهد يعري آليات تشكل البطولات الوهمية في المجتمع.

تتنوع في المجموعة الأصوات السردية: صوت السيدة مريم العجوز الوحيدة، صوت المدرس المنفي إلى قرية كردية لا يفهم لغتها، صوت الرجل العجوز الذي يقرر الخروج من عزلته يوماً واحداً، صوت الأم الثكلى "أم زاهد" التي تبحث عن ابنها في حافلة عمومية، وصوت السجين الذي أتقن لعبة الشطرنج لتكون ملاذاً نفسياً وفكرياً. هذا التعدد يفتح أمام القارئ آفاقاً متعددة للتعاطف والفهم. ففي قصة "الدرس الأول"، يجد المدرس نفسه في قرية "كويلان" حيث اللغة حاجز والتواصل تحدٍ. هنا يصبح القارئ شاهداً على عملية تفكيك للتمركز الثقافي، حيث يتحول المفترض أن يكون "معلماً" إلى "متعلم" للغة الكردية. الموقف الساخر الذي ينتهي بتعليم القرويين أكل السمك رغم تحريمه، يكشف كيف تتشكل القناعات وكيف يمكن للتجربة المباشرة أن تهدم اليقينيات. القارئ مدعو هنا لملء الفجوة بين المعرفة النظرية (التحريم) والتجربة العملية (اللذة). تحضر الأمكنة في "بيت الهموم" بوصفها كائنات حية تتفاعل مع الشخوص وتستدعي استجابات متباينة من القارئ. الحديقة في قصة "عالم السيدة الوحيدة" ليست مجرد فضاء مادي، بل هي امتداد لذات مريم، شجرة التين والجهنمية والعصافير تشكل عالماً حميماً ينهار تدريجياً بفعل تغير المحيط وتهديد الباعة الجائلين وضغوط الجيران. اللقارئ يتعاطف مع مريم ليس فقط لأنها وحيدة، بل لأن المكان الذي يمثل ذاكرتها وحبها مع زوجها الراحل نعيم يتعرض للاغتصاب اليومي. وفي قصة "فتنة مكان"، يتحول المكان إلى معادل موضوعي للعلاقة العاطفية. السائل والمكان الذي أفتتن به حبيبه، يطرح أسئلة وجودية عن الثبات والتغير: "لا يمكن أن يحدث هذا.. لا يمكن أن أعود إليه.. فالثمرة البهية في أعلى الشجرة، حين تسقط، يسقط معها بهاؤها". هنا يدخل القارئ في حوار مع النص حول إمكانية استعادة المشاعر بعد انطفائها، وهل المكان نفسه الذي شهد بداية الحب قادر على احتضان نهايته؟

تقدم المجموعة أصواتاً مهمشة بعمق: امرأة عجوز تواجه التهميش والإزاحة "عالم السيدة الوحيدة"، أم تبحث عن ابنها الذي اختطفته الحرب أو التيه "لهفة"، شيخ قرية كردية يتمسك بلغته "الدرس الأول"، وأب يكتشف زيف "الرجل الوقور" الذي كان الجميع يجلونه ("الدرس"). هذه الأصوات تخلق عند القارئ ما يسميه فولفغانغ إيزر "الموقف الجمالي" الذي يدفعه لمراجعة تصوراته المسبقة. فعندما يصرخ الأب في وجه الرجل الوقور "لقد أعطيتني ثمن علبة السجائر، ولم أستلم منك خمسة دنانير كما تدعي.. وتريد أن أعيد لك الباقي.. خذ

هذا هو الباقي" ثم ينثر النقود في الهواء، لا يكون القارئ أمام مشهد غضب عابر، بل أمام لحظة انكشاف لزيف طويل. الرجل الذي كان مثالاً للتقوى والورع يتحول في لحظة إلى كذاب، والأب "البسيط" الذي كان موضع شك وريبة يتحول إلى صاحب حكمة وبصيرة. يمارس حسب الله يحيى ما يمكن تسميته بـ"استراتيجية التشويش المتعمد"، حيث يقدم مواقف تدفع القارئ لإعادة النظر في أحكامه الأخلاقية والاجتماعية. ففي قصة "شجرة ذابلة، وردة عطرة"، العلاقة بين "نور" الشابة و"صفاء" الموظف الكبير تطرح أسئلة معقدة عن الحب والخيانة والسن والفروق الاجتماعية. الحوار الداخلي الذي تجريه نور مع نفسها، وصراعها بين زوجها و"صفاء"، يخلق مساحة استجابية متعددة الاتجاهات. هل هي علاقة حب حقيقية أم مجرد افتتان بالاختلاف؟ هل الشيخوخة حكمة تستحق الاحترام أم مجرد تراجع يهدد الشباب؟ النص لا يقدم إجابات جاهزة، بل يضع القارئ في موضع المحاور الذي يشارك في صياغة المعنى. توظف المجموعة رموزاً متكررة تحمل دلالات مفتوحة. شجرة "الجهنمية" (بأزهارها البنفسجية الجميلة) وشجرة التين والعصافير، كلها عناصر تتكرر في عدة قصص، فتصبح ما يمكن تسميته بـ"الرموز العابرة". ففي قصة "أم زاهد" في خضم الحرب والقصف، تتحول شجرة التين والجهنمية والعصافير إلى شواهد على حياة كانت، ثم إلى أطلال. موت زاهد تحت الأنقاض، وبكاء أمه التي تلمس جسده الطري، يشكل لحظة استجابة عاطفية قصوى. القارئ هنا لا يقرأ خبر موت، بل يشهد تفاصيله الحسية: "تلّمست شيئاً طرياً... زاهد.. أهذا أنت؟ انهض كفاك نوماً... استيقظ، بدأ الفجر يضيء النهار". الأم التي ترفض النطق بكلمة "ميت" تخلق عند القارئ حالة من التوتر العاطفي المدمر، حيث يصبح الصمت أبلغ من الكلام. يختم حسب الله يحيى مجموعته بكلمة مباشرة للقارئ: "لطفكم قرائي.. شاركوني في البيت المليء بالهموم". هذه الدعوة ليست مجرد لفتة بلاغية، بل هي إعلان عن تصور جمالي يرتكز على المشاركة الوجدانية والفكرية. القارئ في "بيت الهموم" ليس متفرجاً، بل هو ساكن إضافي في هذا البيت، يتنقل بين غرف السرد، يستمع إلى همسات الشخصيات، يملأ فراغات الحكايات بتجاربه الخاصة، ويخرج من المجموعة محملاً بأسئلة أكثر من إجابات. إن راهنية هذه المجموعة تكمن في قدرتها على تحويل "الهم" من حالة فردية خاصة إلى موضوع إنساني عام. فالهموم العراقية التي تطل من النصوص (الحروب، التهجير، الفقر، التهميش، فقدان الأحبة، صراع الأجيال) تتحول عبر اللغة السردية إلى هموم إنسانية قابلة للاستجابة من أي قارئ، في أي مكان وزمان. وهذا هو سر من أسرار القصص العظيمة: قدرتها على جعل الآخر يرى نفسه في مرآة الآخر، ويشعر بأن هموم العالم كلها بيت واحد مشترك. حسب الله يحيى، من خلال هذه المجموعة، لا يكتب قصصاً عن الهموم فحسب، بل يبني عمارة سردية مفتوحة الأبواب، ينتظر أن يسكنها قراؤه، ليكتمل المعنى، وتزدهر الحياة رغم كل شيء.

صور الوجع في "بيت الهموم"

زهير كاظم عبود

يتميز أسلوب القاص حسب الله يحيى بالتنوع بين القصة والرواية والمسرح وقصص الأطفال ، وهذا التنوع اكسبه موهبة وقدرة على استلال الهم العراقي ووجع الناس وملامسة تفاصيل حياتهم في الازقة الشعبية والاحياء التي يسكنها الفقراء ، فيتمكن من تحويل تلك الاوجاع والتفاصيل الى قصص يسردها للمطالع بأمانة وصدق ، ومن يطالع مجموعته القصصية الأخيرة (أصابع الأوجاع العراقية) التي اعيد طباعتها في العام 2025 من دائرة الشؤون الثقافية العامة في وزارة الثقافة والمتكونة من 20 قصة مضافا اليها ملحقا بخمس قصص يلمس بساطة اللغة ووضوح المقاصد والمعاني بعيدا عن التعقيد اللفظي أو الزخرفة اللغوية المفتعلة ، ولأنه لا يكتب من برج عالي فان جميع النصوص التي كتبها تميزت بالحس الإنساني والتقاط الالم والامل معا .

محور اغلب القصص يتركز على الشهداء والوطن والاصابع الرمزية التي ترتبط بالخبز وبالدفء والامنيات والنساء ، وقطار الموت الذي ينقل لنا صورة من داخل مقطورة الموت ثم ينتقل من عربات الصفيح الذي يشوي الأجساد البشرية الي زنزانات سجن نقرة السلمان .

في هذه القصص يتحول السرد الى مرآة تعكس صراع الانسان العراقي مع الخوف والفقر والانتظار، ويعكس قوة المرأة العراقية وصمودها بوجه التراجع والتحجر الفكري والاجتماعي الذي ينتشر هذه الأيام، ووقوفها ضد التحولات القاسية والمتخلفة من القيم التي عافها الناس، وتبرز بين قصص حسب الله يحيى أثر الحروب والازمات على البنية الاجتماعية والنفسية للمواطن العراقي، والذي نالت من نفسيته ومكانته الاجتماعية الحروب المتتالية التي ادخلته بها سلطة دكتاتورية لا ترحم ولاتفهم ، وينقل لنا صور الالتزام الفكري الثابت او القلق في شخصيات عاشت بيننا .

القصص التي تتضمنها مجموعة القصص

في أصابع الاوجاع العراقية تشكل انحيازا للإنسان البسيط، وللحقيقة العارية التي تؤمن بان الادب ليس ترفا والقصص ليست حكايات عابرة انما تؤمن بانها شهادة على العصر وصرخة في وجه الألم لصحوة المجتمع.

والكاتب حسب الله يحيى يعد من الأصوات السردية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالهم الاجتماعي والإنساني ، ويشكل صورة مشرقة من صور الحقيقة والواقع الذي يعيشه المجتمع والانسان بشكل عام ، وتركيزه على العدالة الاجتماعية وانحيازه للفئات المهمشة يشير الى الأفق اليساري الواضح في هذه القصص ، وما يمنح القصص التي يكتبها قوة الموضوع انه ينقل صورا صادقة ومتجذرة من الواقع العراقي ، يستلها من ضحايا التحولات السياسية والحروب والتطاحن السياسي الذي جرى منذ انبثاق ثورة تموز 1958 وحتى اليوم ، وتلمس ذلك الانتماء اليساري في لغة الانحياز للفقراء والمعدمين ودفاعه عنهم والتي تحمل شحنة شعورية واضحة قريبة من وجدان القارئ ، الى جانب انتقاده للبنى السلطوية والاجتماعية الظالمة ، ولا تتحول

تلك النصوص الى خطاب دعائي او صور باهتة بل تبقى داخل الإطار الفني للسرد، وتلك ميزة من مميزات قصص وأسلوب حسب الله يحيى.

القصص عند حسب الله يحيى موقف أخلاقي

واجتماعي ولها قيمة واضحة، ويستمد هذا الموقف في الصدق والالتصاق بالناس أكثر من ممارسته التجريب الشكلي للقصة او اعتماده على التعقيد فيها، ومن طالع تلك القصص يلمس قوة الموضوع وواقعيته.

وحسب الله يحيى القادم من مدينة الموصل حاملا مشعله فوق كتفه ينير الطريق، لم يهده التعب ولا السجون والاغتراب، بل وبقي امينا على موقفه الفكري والدفاع عن الفقراء والمظلومين، تاركا لنا كماً من القصص

والرويات والمسرحيات وقصص الأطفال بما يجعله مرتقيا صفف الصف الأول من كتاب القصة المؤثرين والقادرين على عجن الوجع والالم والحزن في بوتقة واحدة صورة قصة قصيرة تختزل كل هذا الوجع، وتلك قدرة وموهبة تميزه ضمن أسماء الكبار.

"بيت الهموم"
عندما تتواصل المعاناة وتلزم المبدع بالبوح

خالد الحلي / ملبورن – استراليا

بكثير من الاعتزاز، توصلت بنسخة من المجموعة القصصية "بيت الهموم"، الصادرة ضمن منشورات "الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق" للمبدع العراقي الجميل حسب الله يحيى، إذ نقلتني إلى أجواء عراقية حميمة ودافقة، كنت وما زلت أحن إليها كثيرًا في ظل ظروف اغتراب طال أمده.

هذه المجموعة التي أطلت علينا ب 128 صفحة من القطع الوسط، وضمت خمس عشرة قصة قصيرة، كتبت بأسلوب ينتمي بشفافية وجدارة إلى عالم "السهل الممتنع"، بما يحمله من ايحاءات ودلالات. وجاءت مضامينها ممتدة إلى جذور اجتماعية وإبداعية، لا نملك مع غناها وتنوعها إلا التأمل والتفكير بصفاء وعمق، متناغمين مع ما تنطوي عليه من تجارب ورؤى، على مختلف التوجهات والمسارات.

ولعل القصة القصيرة الأولى في المجموعة، والتي تحمل عنوان "عالم السيدة الوحيدة"، تقدم تصورًا عاما عما ذكرناه، ولكننا قبل التوقف قليلاً عندها، نجد انه من المفيد العودة إلى ما دونه المبدع حسب الله على الصفحة الأخيرة من المجموعة تحت عنوان "هذه القصص"، فبعد ان اكد وجود ثمار للهموم، وأسرارٍ للبيوت، وتجمع كم هائل منها في بيوتنا العراقية، قال إنه كان يعيشها ويعرف عنها الكثير.. وقد حاول اشغال ذاكرته بسواها من المشاغل.. بعد ان توقف عن الكتابة لزمن كان يحسه أزليا.

ولكنه يستدرك بالقول: " ان ثقل هذه الهموم والاسرار؛ ظل يحاصرني ويضيق علي انفاسي

ويلزمني بالبوح، ووجدت في كتابة هذه الهموم سبيلي الى الحرية، والى الحياة كذلك".

وبالعودة إلى القصة الأولى في المجموعة "عالم السيدة الوحيدة"، نجد أنها تغوص عميقًا في مشاعر الإحساس بالوحدة، وتتكثف فيها مشاعر القهر والاضطهاد والاستلاب،

وتقدم لنا صورًا عن معاناة حادة مع الوحدة، والتعرض إلى تجاوزات آخرين من الجيران وغيرهم، مورست ضد السيدة مريم، التي كانت في سنوات سابقة تعيش مع زوجها نعيم وحيدين " في منزل واسع، لا تشغله سوى انفاسهما.

لقد كان هذا الزوجان يتمنيان أن يمضيا رحلة العمر دون فراق، وأن يرحلا عند حلول الأجل سوية وفي يوم واحد، ولكن المرحوم نعيم الذي كان يعمل خبيرًا في وزارة الزراعة، رحل دون أن يتحقق له حلمه. وكانت زوجته قد عملت مشرفة تربوية في عدد من المدارس، قبل أن تتقاعد بعد رحيله. وبعد رحيل الزوج وتقاعدها، أخذت تواجه وحدة مريرة وحصارًا اجتماعيًا قاسيًا، وتم التجاوز على رصيف بيتها بشكل مفضوح ومعلن، ثم ترغيبها لبيع بيتها، وحصلت مواجهات توحي بالرغبة في إبعادها والتخلص منها.

وتنتهي القصة بنهاية حياة السيدة وانطفائها، ويصور لنا المبدع حسب الله يحيى ذلك بالقول " كانت أنفاسها تختنق، كما لو ان احدا يمسك بعنقها ويضغط على حنجرتها، كما لو ان هذا الاحد يسلبها وجودها ويعدمها الحياة بعد ان يطلق عليها النار ويضغط على أنفاسها ثم يضحك منها وهي تتلوى..

تبحث عن نسمة هواء وعن نظرة شفقة وعن رجاء غائب تماما، ومعدوم كليا عن الحركة.. لم تعد تحيا..

لم تعد أبدًا".

وقبل أن أغلق صفحات المجموعة على أمل العودة إليها في وقت آخر، وجدت أن أسماء قصصه توحي بالكثير الموحي عن أجوائها ومعالجاته ومضامينها، إذ جاءت هذه الأسماء، وكما ورد في الفهرست بالشكل التالي: عالم السيدة الوحيدة - شجرة ذابلة - وردة عطرة - عفونة امرأة سعيدة - أم - الدرس الأول - يوم في حياة رجل عجوز - وقار - النخلة والعاصفة - الخبز والأسلحة - لهفة - اللعبة

- كراهية - فتنة مكان - فارس من هذا الزمان - شيخوخة.

"خارطة الريح": التثبيت المتحرك ..

كاظم اللامي *

حين يختار شاعر عراقي معاصر أن يسُمّي ديوانه "خارطة الريح"*، فإنه يضعنا منذ العتبة الأولى أمام مفارقة تأسيسية: كيف ترُسم خارطة لما يتحرك دوماً؟ كيف يُثبتَّ ما طبيعته الانفلات؟ هذا السؤال يحمل في طياته جوهر التجربة الشعرية عند عصام كاظم جري، تجربة تتأرجح بين الرغبة في الإمساك بالمعنى واستحالة تثبيته، بين الحنين إلى المكان وتشظّيه في الذاكرة، بين صوت الذات الفردية وهدير التاريخ الجمعي. الديوان يشتغل على طبقات متعددة من الدلالة، ويستدعي قراءة تتجاوز السطح اللغوي لتحفر في البنى العميقة التي تشُكّل النص وتمنحه كثافته، ومن هنا تأتي ضرورة المقاربة التفكيكية التي تفُكك المركزيات وتكشف عن التوترات .الداخلية في النص، وتصُغي إلى ما يقوله النص وما يسُكت عنه في آن يؤُسس الشاعر هنا لأنطولوجيا شعرية قوامها الزعزعة والتقويض، حيث تتحول الريح من عنصر طبيعي إلى استعارة وجودية كبرى تختزل حالة الإنسان المعاصر في عالم فقد يقينياته. في قصيدة "عندما نتبوأ خارطة الريح" يصُرّح الشاعر: "هؤلاء الأصدقاء / سدنة الأحزان/ يجلسون على أريكة الريح / ويسمونها المنفى"، والجلوس على الريح فعل مستحيل فيزيائياً، لكنه يصف بدقة حالة المنفي الذي يسكن اللامكان، ذلك الذي فقد أرضه الصلبة وصار معلقاً في فراغ الاغتراب. هذا التوظيف يستدعي مفهوم "الرمي في العالم" عند هايدغر، ذلك المفهوم الذي يصف حالة الإنسان الملقى في وجود لم يختره، المُطالَب بصنع معنى من عبثية موقعه.

الريح في الديوان تتخذ تجليات متعددة: هي المصير حين يقول "صارت الريح أكثر احمراراً من المصير"، وهي الخارطة التي يتبوأها المنفيون، وهي الأريكة التي يجلس عليها الأصدقاء الحزانى، وهذا التعدد في التجليات يكشف عن بنية رمزية مُركّبة، حيث الريح تصير علامة سيميائية مفتوحة على تأويلات متعددة، كلها تدور .في فلك الضياع والتشظي والبحث عن موطئ قدم في عالم منفلت في قصيدة "الليل موسم خامس" يعُمّق الشاعر هذا البعد الأنطولوجي حين يكتب:

”على حين غرة / أخذتنا الريح ونحن نلهو / دون يقين / دون قوس الأرض ،“ وغياب اليقين هنا يتجاوز المعنى المعرفي ليصل إلى المستوى الوجودي، فالذات المتكلمة تجد نفسها مأخوذة، مسلوبة الإرادة، تائهة في فضاء أُفقد فيه ”قوس الأرض “- ذلك القوس الذي يمنح الإنسان إحساساً بالانتماء والتجذر. هذا الفقدان للأرض يحُيل إلى ما سماه إدوارد سعيد ”الوعي الطباقي“ - وعي المنفي الذي يعيش.في مكانين وزمانين، حاضر جسدياً في منفاه وغائب روحياً في وطنه المفقود.

يتخذ الديوان موقفاً شكياً معرفياً من إمكانية الوصول إلى حقيقة ثابتة، وهو شك يتجاوز الشك الديكارتي المنهجي ليصل إلى ما يمكن تسميته ”شك وجودي“ يطال .أسس المعرفة والقيم والهويات في قصيدة ”الإفلاس أحسن أحوال الملوك“ يصُرّح: ”الوصايا تريد الحكمة / والفضيلة والثواب / لذا لم تترك لنا فسحة للأزياء“، وهذا النقد يستهدف الخطابات الكبرى التي تحتكر الحقيقة وتصُادر حق الفرد في التجربة الذاتية. الوصايا - سواء كانت دينية أو أخلاقية أو سياسية - تفرض قوالب جاهزة تلُغي الاختلاف والتعدد.

والشاعر يستخدم استعارة ”الأزياء“ للدلالة على الحرية الفردية في اختيار الهوية وتشكيلها، تلك الحرية التي تصُادرها المنظومات الشمولية. هذا الموقف يتقاطع مع

نقد ليوتار للسرديات الكبرى في كتابه ”الوضع ما بعد الحداثي“، حيث يرى أن عصرنا يتميز بانهيار تلك السرديات التي كانت تمنح الحياة معناها الموحد - سردية .التقدم، سردية التحرر، سردية الخلاص.

الشاعر يجُسّد هذا الانهيار شعرياً حين يكتب في قصيدة ”نهايات“: ”ماذا أتحدث / عن الموج الذي لا يثور؟ / عن النفايات التي تشُير بسبابة من رصاص؟“، والسؤال البلاغي هنا يكشف عن أزمة الخطاب ذاته، عن عجز اللغة عن مقاربة واقع صار يتجاوز قدرة الكلمات على وصفه، فالموج الذي لا يثور والنفايات التي تشُير برصاص صور تجُسّ د عالماً انقلبت فيه الطبائع وتبدلت فيه الوظائف، عالماً يحتاج لغة جديدة لفهمه.

ينشغل الديوان بتشريح بنى السلطة وآليات الهيمنة بأشكالها المتعددة، مُوظفاً ما يمكن تسميته ”الحفر الأركيولوجي“ بتعبير فوكو - ذلك الحفر الذي يكشف عن الطبقات المتراكمة من القمع والإخضاع.

وفي قصيدة ”أمام نصب الحرية“ يكتب: ”العبيد / غارسو الأمل وبائعو النحيب / قادمون بأحزمة تحفر الأوطان / وتؤجل الذباب / علقوا أوزارهم بعد أن خانتهم البيانات / وناموا ملء أجسادهم / أمام نصب الحرية“، والمفارقة صارخة: العبيد ينامون أمام نصب الحرية، ذلك النصب الذي صنعه جواد سليم ليخُلدّ انتفاضة الشعب العراقي، صار شاهداً على نوم العبيد واستسلامهم. هذا التوظيف للرمز الوطني يفُكك الخطاب القومي ويكشف عن الفجوة بين الرمز ومدلوله، بين الشعار والواقع.

الشاعر عصام كاظم يتتبع سلسلة القمع عبر التاريخ حين يكتب: ”الإفلاس أجيال / من الأغاوات / والباشوات / والملوك“، وهذا التتابع الزمني يكشف عن بنية القمع المتوارثة، تلك البنية التي تعُيد إنتاج نفسها

عبر الأجيال مع تبدل الأسماء والأقنعة.
فالأغاوات والباشوات والملوك يمثلون حلقات في سلسلة واحدة، ووراثة الإفلاس تشُير إلى استمرارية الفشل التاريخي في تحقيق العدالة والحرية. هذا التحليل يتقاطع مع مفهوم "العنف الرمزي" عند بورديو، ذلك العنف الناعم الذي يمُارَس بموافقة الضحايا أنفسهم، حين يتبنون منظومة القيم التي تبُرر إخضاعهم.
الشاعر يكشف عن هذا العنف حين يكتب في قصيدة "غواية": "يرمون العلب الفارغة / كبقايا من البشر"، وتشيئ الإنسان وتحويله إلى "بقايا" و"علب فارغة "يجُسّد أقصى درجات العنف الرمزي، حين يفقد الإنسان إنسانيته ويتحول إلى مجرد .نفاية يمكن التخلص منها
المنفى في الديوان يتجاوز بعُده الجغرافي ليصير حالة وجودية شاملة، ما يمكنتسميته "المنفى الأنطولوجي "- ذلك الشعور بالغربة حتى في الوطن، بالضياع حتى في المكان المألوف .
في قصيدة "نهايات" يكتب: "وحدي / على بابك المسافر / أهيم مع مصابيح المدن الباردة / أيها المسافر / في ضوء الغفلة / دعني أبتهل / دعني أجمع الغربة / في بريد أوطاننا"، والغربة هنا تجُمع في "بريد الأوطان"، استعارة تشُير إلى تحول الوطن من مكان للإقامة إلى مجرد رسائل ومراسلات، علاقة عن بعُد، حنين مؤجل، ذاكرة تتآكل مع الزمن.
الشاعر "يبتهل "- فعل ديني يكشف عن تحول المنفى إلى حالة روحية تستدعي طقوساً خاصة للتعامل معها.
هذا التوظيف يستدعي ما كتبته جوليا

كريستيفا عن "الغريب في ذواتنا"، ذلك الإحساس بالغربة الذي يسكن أعماق كل منا، المنفي الداخلي الذي يحمله الإنسان أينما ذهب الشاعر يجُسّد هذا البعد حين يكتب في قصيدة "لعبة": "هذا اسمي / أنا الضمير الغائب / اترك واشطب / لغة أخرى"، والذات تتحول إلى "ضمير غائب"، تتموضع في موقع الغياب اللغوي، تنسحب من حضورها لتصير أثراً ومرجعاً، وهذا الانسحاب يجُسّد ما سماه بلانشو "الكتابة كاختفاء"، حيث الكاتب يغيب في نصه .ويتحول إلى صوت مجهول يتكلم من مكان اللامكان تفُتتح قصيدة "غواية" بضمير الغائب الجمعي "أولئك"، مُؤسسةً منذ البداية لمسافة بين الذات المتكلمة والآخرين: "أولئك / - أصحاب الأصوات العالية - / يلعنون بأصابعهم خرس العزلة"، والتقابل بين "الأصوات العالية" و"خرس العزلة" يكشف عن صراع مركزي في القصيدة: صراع بين الصخب والصمت، بين السلطة التي تفرض حضورها

بالضجيج والذات التي تختار الانسحاب إلى العزلة. اللعن بالأصابع - وليس بالكلمات - يشُير إلى عنف جسدي مباشر يمُارس ضد الصامتين، .إلى سلطة تجُرّم الصمت و تعده تهديدا الشاعر يعُلن موقفه بوضوح: "لن أمارس الغواية مع الأدغال / آثمون"، ورفض "الغواية مع الأدغال" يشُير إلى رفض الانخراط في لعبة السلطة والتنافس على مواقعها، فالأدغال هنا استعارة للفضاء البري الذي تسود فيه شريعة الغاب، حيث البقاء للأقوى، والشاعر يفُضّل الإثم - بمعناه الاجتماعي، أي الخروج عن المألوف والمقبول - على المشاركة في هذه اللعبة. هذا الموقف يستدعي مفهوم "الرفض الكبير" عند هربرت ماركوز، ذلك الرفض الجذري للمشاركة في منظومة القمع حتى لو كان ثمن ذلك التهميش والإقصاء، فالشاعر يختار الهامش بوصفه موقعاً .للمقاومة، ويحُوّل العزلة من عقوبة إلى اختيار وجودي القصيدة مشحونة بصور كثيفة تجُسّد حالة الفساد والانحطاط: "يشخرون في بروج من المصابيح الذهبية / ويشربون لمعان الدم"، والشخير في البروج الذهبية يشُير إلى السلطة النائمة، المترهلة، التي تسكن قصورها المُذهّبة بينما الدماء تسيل في الخارج، و"شرب لمعان الدم" استعارة مُركّبة تجمع بين الجمالي واللمعان والمأساوي والدم، وتكشف عن سلطة تتغذى على معاناة الآخرين وتستمد بريقها من آلامهم .

قصيدة "غواية" في جوهرها قصيدة رفض وجودي تؤُسس لموقف أخلاقي قائم على الانسحاب الواعي من دوائر السلطة والصخب، والشاعر يختار "حدائق المجهولين "و"أعمدة الرماد" بوصفها فضاءات بديلة للوجود، فضاءات هامشية تتُيح للذات أن .تحتفظ بنقائها بعيداً عن تلوث السلطة.أما قصيدة "عندما نتبوأ خارطة الريح" فعنوانها يجمع بين الفعل الإرادي "نتبوأ "- بما يحمله من دلالات التسلمّ واتخاذ الموقع - والمستحيل الدلالي "خارطة الريح ،"وهذا التناقض يؤُسس لشعرية قائمة على السعي نحو المستحيل، على محاولة الإمساك بما يفلت بطبيعته

القصيدة تتضمن مشهداً افتتاحياً بالغ الكثافة: "جرح هذا الجندي المجهول الذي فر إلى شرفة من يحُب / وعلقّ خوذته كزينة وبكى / في ظلمة الجدران"، والجندي المجهول - ذلك الرمز العالمي للتضحية المنسية - يتحول هنا إلى شخصية درامية حية، وفراره "إلى شرفة من يحُب" يكشف عن الصراع بين الواجب والرغبة، بين متطلبات الحرب ونداء الحب، وتعليق الخوذة "كزينة" فعل رمزي يشُير إلى تحويل أداة الحرب إلى مجرد ديكور، إلى إعلان نهاية القتال واختيار الحب، والبكاء "في ظلمة الجدران" يكشف عن .خصوصية الألم ،عن دموع لا ترُى، عن حداد صامت القصيدة تقُدم موقفاً جذرياً من ثنائية النصر والهزيمة: "حلفت ألا أكون أميراً لزمن ما / وحلفت ألا أشرب كأس الفوز / فالهزيمة سمة أبوية"، ورفض الإمارة ورفض كأس الفوز يشُيران إلى تقويض أيديولوجيا النصر السائدة في الخطاب القومي العربي، والشاعر يكشف أن "الهزيمة سمة أبوية "- أي موروث بنيوي يتجاوز الأفراد ويعُيد إنتاج نفسه عبر الأجيال. هذا الاعتراف بالهزيمة كقدر موروث يحُيل إلى ما سماه عبد الله

العروي "الأيديولوجيا العربية المعاصرة"، تلك الأيديولوجيا .التي تزُاوح بين أحلام النهضة وكوابيس الانكسارالقصيدة مُحمّلة بتناصات تفُعلّ الذاكرة الثقافية العراقية: "تذكرت الشعراء الذين شربوا أيامهم في مقهى الزهاوي / فبكيتُ لأجل جندي من الشطرنج / وآخر وزير / بكيتُ على أرضة الرشيد التي أكلتها العصا"، ومقهى الزهاوي - ذلك الفضاء الثقافي البغدادي الذي شهد ولادة الحداثة الشعرية العراقية - يتحول إلى موضوع للحنين والرثاء، والشعراء الذين "شربوا أيامهم" استعارة تشُير إلى استهلاك الزمن، إلى حياة أنُفقت في الإبداع والسهر والحوار، أما "أرضة الرشيد" فتحُيل إلى شارع الرشيد، الشريان الثقافي لبغداد، الذي "أكلته العصا "- استعارة للتدمير والإهمال والعنف الذي طال المدينة وذاكرتها. رغم كل هذا الألم، تنتهي القصيدة بدعوة إلى فعل: "علينا أن نشرب العاصفة / ونتبوأ خارطة الريح / دعنا ننزف صمت هديرنا / ونملأ الأشواط التي تغوص في الأدغال / عطراً جديداً"، و"شرب العاصفة" فعل يجمع بين الاستيعاب والمواجهة، تحويل الكارثة إلى طاقة داخلية، و"تتويج الرغبة بنافورة الدمع" يشُير إلى تحويل الألم إلى جمال، إلى كيمياء شعرية تحُوّل الدموع

.إلى نافورة - أي إلى شكل فني منظم وجميل يوُظف الشاعر تقنيات الانزياح اللغوي بكثافة لافتة، مُحققاً ما سماه شكلوفسكي "التغريب "- جعل المألوف غريباً لإثارة الوعي وكسر الآلية الإدراكية الانزياح التركيبي يتجلى في قوله "صارت الريح أكثر احمراراً من المصير"، فإسناد اللون الأحمر للريح، وجعلها أكثر احمراراً من المصير، يخلق صورة غير مسبوقة تجُبر القارئ على التوقف والتأملوالانزياح الدلالي يظهر في "يشربون لمعان الدم"، حيث الجمع بين فعل الشرب واللمعان يخلق تركيباً غرائبياً يكشف عن علاقة السلطة بالعنف. والانزياح الإسنادي يبرز في "طاولتي تنتحر"، فإسناد فعل إنساني كالانتحار إلى جماد كالطاولة يجُسّد .حالة اليأس الشامل التي تطال حتى الأشياء الشاعر يتخلى عن الوزن الخليلي التقليدي ليؤُسس لإيقاع داخلي قائم على توزيع الأسطر وفق منطق بصري يعُادل التجربة الشعورية، فالقصائد تتشكل على الصفحة. كأنها لوحات، حيث الفراغات وتأجيل المعنى والتقطيعات تحمل دلالاتها الخاصة ويستخدم الشاعر التكرار كأداة لبناء الإيقاع والدلالة معاً: "بكيتُ لأجل جندي من الشطرنج / وآخر وزير/ بكيتُ على أرضة الرشيد... / بكيتُ يوم نالت من جيوبنا رسائل الحبيبة"، والتكرار هنا يرُاكم الألم ويعُمّقه، يحُوّل البكاء من فعل عابر إلى طقس متواصل، إلى حالة وجودية مستمرة يتخذ الشاعر موقفاً مُركّباً من اللغة، يراها قيداً وانعتاقاً في آن، ففي قوله "وتحت السياط / التي تلغي الكلمات" تشُير السياط التي تلُغي الكلمات إلى سلطة تصُادر حق الكلام، إلى قمع يطال اللغة ذاتها، وفي هذا السياق، الكتابة الشعرية تصير فعل مقاومة، محاولة لاستعادة الكلمات المُصادرة لكن الشاعر يدُرك أيضاً أن اللغة ذاتها قد تكون أداة للقمع، ولذلك يكتب: "هذا اسمي / أنا الضمير الغائب / اترك واشطب / لغة أخرى"، والرغبة في "لغة أخرى "تكشف عن وعي بقصور اللغة المتاحة، عن حاجة

إلى أدوات تعبيرية جديدة تتجاوز القوالب المُ ستهلكة.

يحتفي الديوان بالصمت بوصفه خطاباً بديلاً: "دعنا ننزف صمت هديرنا"، والصمت هنا يهدر، أي يحمل طاقة الثورة والفيضان، إنه صمت مُحتقن، مشحون، ينتظر لحظة الانفجار، وهذا التوظيف يستدعي ما كتبه سوزان سونتاغ عن "جماليات الصمت "- الصمت بوصفه موقفاً فنياً ووجودياً، اختياراً واعياً في مواجهة ثرثرة العالم خارطة الريح" ديوان يقُاوم الاختزال والتصنيف، يتملصّ من كل محاولة للإمساك "به في تأويل نهائي، وهذا التملصّ هو جزء من استراتيجيته الجمالية، فالنص يصُرّ على انفتاحه، على تعدد مداخله ومخارجه، على كونه "خارطة ريح" بالفعل -

خارطة تتبدل مع كل قراءة، وتمنح كل قارئ مساراً مختلفاً. الشاعر يقُدّم نموذجاً للشاعر- المفكر الذي يتجاوز التعبير عن تجربته الذاتية ليحُوّلها إلى أداة معرفية لفهم العالم ونقده، يمارس ما سماه أدورنو "الفن الملتزم "- ذلك الفن الذي يقُاوم بجمالياته لا بشعاراته،الديوان في نهايته كما في بدايته يظل في مهب الريح، باحثاً عن خارطة للمستحيل، مُصرّاً على الأمل رغم كل شيء، يختم بقوله: "ليس ثمة شيء آخر / هذا الطيف / آخر الحكايات"، وهكذا ينتهي الديوان كما بدأ - سؤالاً مفتوحاً على الريح، وخارطةً لا تكتمل أبداً.

***ناقد وكاتب ومخرج مسرحي من محافظة ميسان صدرت له رواية بعنوان (الماجدية) .**

*** خارطة الريح / شعر : عصام كاظم جري ، صدرت من اتحاد ادباء ميسان 2011**

هبوط متكاثف

عصام كاظم جري

الحرب
عربات مهجورة
تفرش أزمنتها
للشتائم
كيف
أضع حدا
لما انا فيه؟
والبارود أغدق عليّ بالهدايا.
الأزياء
مناورة وكناية
عن جسد مبهم
أقولها ”
بأبسط طريقة
لفرط الصلة
النجوم مفتونة ببعض.
الظلام
مرفأ احلام
والغيوم تحرس الشتاء من سوء الهضم.
بعد
كل شهرة يستفحل الأثر اللعنة ...
هبوط متكاثف
وهبت
كل ما لديها للأمعان
في التخيلات القناعة زهرية اللون.
على صواب
أو بمعنى آخر
لا تناسبني غبطة الحواس

الرجل الذي قطع شجر الجنة

ياسين غالب

حدث هذا مرة في صباح عراقيٍّ شتويٍّ قاسٍ، من تلك الصباحات التي تعصف بها الرياح في الأزقة الضيقة لبغداد القديمة، فتحوِّلها إلى نايات تُصدر صفيرًا حادًّا يثير التوتر والترقب، تتسلل رائحة الخبز الساخن والشاي والسجائر وأغاني الحرب والحب من نوافذ المنازل المتراصة في الحي الشعبي. وبخفةٍ كذلك، يتسلل البرد من تحت الأبواب، ويلعق الوجوه والعظام بلسانه الأزرق.

نستنشق رائحة الشاي السيلاني الداكن الدافئ، وتفوح من بين أنفاسنا رائحة الخبز الحار، وكأننا نستنشق معها أيضاً صوت فيروز المترقرق من صندوق الراديو الترانزستور ، ذلك الصوت الذي يملأ الأرجاء بعذوبته، ويغمرها برطوبة غابات الصنوبر، حيث تمتزج النغمات بالنعومة التي تثير فينا تساؤلاً عميقاً، تضادًا غريبًا لم أفهمه إلى الآن.

كانت الإذاعة العراقية، في صباحاتها الباكرة، تبدأ ببثٍ دافئ يختلط فيه صوت البلبل العذب، يعلن عن قدوم يوم جديد، ليُتبع بعدة آيات من القرآن الكريم، وتتساقط الكلمات السماوية في الفضاء، ثم يأتي بعد ذلك صوت فيروز، كأنما يحمل في ترنمه رسالة غير معلنة، رسالة تبعث الأمل في النفوس، وكأن صوتها هو ترانيم إنجيل موجهة لإخوتنا المسيحيين.

كان الأمر يتجاوز مجرد تتابع أصوات، كان

هناك تناغم لطيف بين الأديان والثقافات، وكأن صوت فيروز يعانق ترتيل القرآن الكريم في عدالة مدهشة، يُظهر أن التعايش ليس مجرد حلم، بل هو تناغم روحاني يسمو على كل التباينات. كان في تلك اللحظات العذبة.

”خِدني يا حبيبي عَ بيت مالُو بواب
خِدني يا حبيبي عَ قمر الغِيَّاب
انْسَاني بالغَفا .. بإيّام الصفا
تَ ترجع الليالي ويرجعوا الأحباب
يا حبيبي يا حبيبي يا حبيبي
خدني ولا تاخدني .. الفرح عَ الطريق
حُبَّك بيحصدني .. وما عندك رفيق
يا أمير السيف .. وين أخذت الصيف
بشوفك وما بشوفك ضايِع بالضباب“

مُجبرًا بطلب زوجتي على شراء الخبز

الساخن الطازج من فرن الحي القريب، حملتني ساقاي المتردين إلى خارج المنزل. الراديو يغير مسلكه بعد هذا الدفق من الحياة السائلة كعادته ليبشر بالموت الكاكي في كل مكان .الراديو يحشد ويصدر عويلا لا ينقطع كصوت غراب جريح . تحشيد وعسكرة للمشاعر و الطعام والجنس والشراب والحياة والهواء من خلال البيانات العسكرية بصوت المذيع المتشنج. الصحف، والسيارات، والحياة بأكملها ترتدي الكاكي؛ زيّ الجنود وزيّ (الرئيس) الذي أعلن نفسه، في لحظة فاصلة، أنّه ربّ الحرب الرافديني الجديد. كان علينا أن ننخرط في هذا الجو العام، لا لننجو من الموت، ولكن لنبعد فاصلةً زمنيةً ما، وإلا فإنّ قدومه هو الحقيقة الوحيدة الآن في البلاد.

عودة إلى ذلك الصباح الذي لم يكن فيه ما يشي بشيء ذي قيمةٍ في مجرى نهر أيّامي المتشابهة، المدسوسة بين التخفي ومرارة القلق وقسوة الخوف والحذر من الاعتقال والإعدام كجنديٍّ رافدينيٍّ فارٍّ من حروب الماضي أو الحاضر.لم أكن أدرك وقتها أنّ حياتي بأكملها ستتوقف في ثانيةٍ وتعكس مسارها؛ كان مجرد صباحٍ عاديٍّ كسائر الصباحات التي كانت تتشابه فيها الأيام، والملامح، والمخاوف من الحرب المستعرة.. ولكن، ما لم أكن أدركه حينها هو أنّني لن أعود إلى منزلي إلا بعد أربعين عامًا؛ أربعين عامًا من الضياع، من التيه، من الغياب الذي يأكل الروح ويبتلع ماء العمر حتى آخر قطرة. وحينما عدت أخيرًا، بجسدٍ أرهقته السنوات المثقلة بالصبر والأمل الزائف وروحٍ قتلها الانتظار لعقود من الزمن المر، حين وصلتُ لم أجد أيّ أثرٍ لحياتي الماضية.

نزعة الصدارة

د. صالح الصحن

في عالم اليوم، تلعب المتغيرات المتعددة السريعة في أنماط الحياة وايقاعها، جراء التطورات التقنية، دورا كبيرا في اساليب وسلوكيات العيش الجديدة، بما يمنح اي متغير دافعية عالية في سمة التأثير على أنظمة الحياة، الأمر الذي انعكس على سياقات السلوك والعمل والذائقة ومستوى التقبل والتفاعل والاستجابة والفعل والحركة والرغبة والمزاج وكذلك السعي الاكثر تنافسا في العديد من الحقول، كل ذلك يدعو للارتقاء والوصول إلى النتائج المتقدمة.

ان افترضنا ذلك فسمة المتغير المستوفي لخصائص التطور يجدر بها ان تدفع بالاتجاه الإيجابي لنهضة الحياة وانعاشها، دون أن تشكل معضلة في السلوك والنظام واطر الحياة، فهناك حقول وميادين كثيرة قد خضعت لمجرى التأثير التقني الحديث مثلا طريقة العمل في المطارات وأنظمة السوق الحديثة واسلوب انجاز المعاملات وأنظمة الجامعات والمستشفيات كافة واسلوب السكن في الابراج الجديدة ومرافقها وانتشار عدد السيارات وأنظمة النقل والتأثير الفعال للأنترنت والنشر الإلكتروني واساليب الاعلان والتوزيع والتوصيل الفوري وأنظمة المطاعم والفنادق واساليب الهكر والابتزاز، وانتشار الوثائق والإصدارات الهالة المتاحة اليكترونيا وأنظمة الحاسوب وبرامجه الرقمية الحديثة، والأنشطة العلمية والثقافية عبر منصات الزوم وغيرها وعروض الافلام والمسلسلات انيا، وتعدد منافذ الاتصال والتواصل دون أدنى معاناة. مع المواكبة الدقيقة للموديلات والماركات الحديثة في الأزياء والإكسسوارات ومجمل التصاميم، مما انعكس على مستوى الاداء، ولكن ليس من المفيد ان تثبت عكس ذلك وبما يتقاطع مع الأصول واللوائح والسياقات، وللمرء مساحة من الحرية ان يسعى لان يتقدم في تصدر الخطوة التي يراها من استحقاقه.

فالأغلب الاعم من الناس يرغب ان يتصدر، اي يرغب ان يكون في المرتبة الأولى في الحقل او الهيئة التي يعمل أن يكون فيها، بل وحتى المكان الذي يتواجد فيه، فهي نزعة ان يكون المتصدر هو الرقم الذي لا يسبقه رقم اخر، ولكن، لطالما هي نزعة كما وصفناها، فعلينا ان نبحث بجذور هذه النزعة، هل هي نفسية أم مرضية أم شعور بالتفوق أو شعور

بتغطية النقص أو لأغراض الكسب والطمع والاستحواذ على الفرص الذهبية مهما كلف ذلك من متاعب واعاقات؟ فجذور الفعل يتصدر جاءت في قاموس المعاني الجامع من الفعل (صدر) الذي يحمل معنى: (مقدم كل شيء)، صدر الكتاب وصدر النهار وصدر الأمر. وان صدر القوم هو رئيسه، وذات الصدر: علّة تحدث فيه، وذات الصدور: أسرار النفوس وخباياها، واللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ذَاتِ الصُّدُورِ.

ورغم بعض المعاني الاخرى التي دل عليها الفعل يتصدر، الا ان بنا حاجة إلى المعنى الذي يشير إلى المرتبة الأولى في الصدر، ففي حقل الفلسفة تصدرت اسماء كبيرة، وسجلت اسسا ونظريات واتجاهات اقترنت باسماءهم وهم كثر، وتطورت العلوم والفلسفة، وتجددت الافكار والنظريات، وظهرت اسماء جديدة أيضا تصدرت المشهد الفلسفي، وهذا ما ينطبق على حقول المعارف والعلوم الاخرى في الكيمياء والفيزياء والفلك والطب والهندسة والتاريخ والآداب والفنون وغيرها.

ولهذا المفهوم ثقافة لدى الفرد هي ان يترأس المجموعة المحيطة به وان يجلس في المقام الأول وان يحتل المرتبة الأولى في المهنة التي يمارسها أو في الحقل الذي يعمل فيه، ونزعة امتلاك هذه المرتبة ليست محرمة ابدا، وإنما، يجب أن تخضع لمعايير الاستحقاق واكتمال المواصفات المطلوبة من جدارة لهذا الهدف، ويتصدر هو الفعل الاقرب إلى الفائز، الشاطر، الماهر، القائد، ذا المقام، كبير القوم، رئيس المجموعة، الحائز على جميع السمات الأروع والامثل والأفضل والارقى والاشطر، وغيرها.

ويكسب الصراع في المنافسة هو من ينتج الأفضل والاكثر رقيا وتطورا، فيستحق الصدارة كما يستحقها الفريق الفائز عندما يتصدر مجموعته في دوريات الكرة. وفي جانب المفاضلة هناك ايضا أفضل طائرة في العالم وافضل مطار، وافضل باخرة واكبر ميناء وافضل قطار، بل حتى في الحروب من يمتلك ارقى الأسلحة وأكثرها فتكا وخطورة. وغيرها، ولكن هناك من يسعى إلى ذلك بكل اجتهاد وشروط التنافس، ولكن أيضا هنالك من يكسر هذه الاشتراطات ويتخلى عنها، بل يعمل جاهدا لكسر هذا المعيار، والدخول في مرحلة منافسة غير متكافئة،

فالصدارة، هي ليست ان نكتفي بالجلوس في مقدمة المواقع والاماكن، وإنما هي حيازة لقب، أفضل شخصية، وافضل مبدع، "سياسيا، اقتصاديا اجتماعيا ادبيا علميا" وغيرها، او اشهر نحات، او رسام وموسيقي وكاتب ومخرج وشاعر وصحفي واعلامي وحاكم وقائد أو قاضي وغيرها، وهي ليست السعي للحصول على التأهل بالمرتبة (الاولى) بأسلوب المقايضة والاغراء والدفع بالمقابل أو لانه قريب أو صديق أو ما يسمى بالمحسوبية، وما يتعلق بالمصالح والنفعية والمناطقية والمذهبية، وهنا يمكن الاشارة الى ما يلي:

*الصدارة هدف واستحقاق مشروع لمن يسعى ان يسجل رقما مهما متفردا في الخير، والعطاء والكرم والشجاعة والتضحية والإيمان والثقافة والفن والمعارف والعلوم وغيرها من الحقول، والمواقف.

* في حقل العلوم كافة علميا وانسانيا، هنالك جامعات تهتم بالحفاظ على سمة الصدارة والمرتبة العلمية العليا من بين غيرها من

الجامعات اذ بنيت على أسس مستوفية الشروط المتقدمة العليا في "صنع مكانة جامعة" بمواصفات متطورة منهجيا وتعليميا، وقد تحصل على مرتبة ذات تسلسل مميز، تنفرد به دون غيرها. بما يجعلها تستحق سمة الصدارة بامتياز .

*من يستطيع أن ينافس الجواهري مثلا؟ أو أحمد شوقي؟ أو زها حديد؟ او فرويد؟ ماركيز؟ أو تولستوي؟ . أو نجيب محفوظ؟ وطه حسين؟ ، وام كلثوم؟ وعبد الوهاب؟ وفيروز؟ او اي نجم متصدر في اختصاصه؟ ومن يستطيع أن يضع اسمه قبل اسم بيتهوفن، او باخ أو موزارت؟ ، فليطرح نفسه منافسا، لعله يكسب الموقع ذلك ما تحدده اكيد جملة اعتبارات سواء كانت لجان التقييم أو الذائقة العامة، ففي الصحافة مثلا، هناك كبريات الصحف المتصدرة المشهد الصحفي لما تتمتع به من خصائص صحفية مهنية وجمالية وفكرية وحرفية،كالواشنطن بوست والنيويورك تايمز والشرق الأوسط والاهرام وغيرها، ، وكذا الحال في المنتجات الشهيرة التي حققت (تصدرا) في غاية الاستحقاق. وفي مختلف ألاجناس والانواع، مثل المرسيدس والبي ام دبليو والفيراري والشوفروليت والفورد والتويوتا والفيليبس والسوني والناشيونال والبيبسي كولا والكوكا كولا وغيرها، فضلا عن الماركات الشهيرة في العالم مثل الساعات والازياء والجواهر والعطور والسجائر والأجهزة الكهربائية والاليكترونية والمأكولات التي لا يضاهيها اي منافس. فالصدارة هي تنفيذ جملة المعايير والمواصفات، التي تقدم خدمة نافعة بأعلى المستويات، بحيث تكتسب السمة الأولى دون تقليد أو أقل من ذلك، فهي استحقاق ووجه حق، لا شك فيه.

* وهناك تقليد شائع عند بعض الدول، في منح سمة (السيدة الأولى) لزوجة الرئيس، لمجرد انها زوجة الرئيس، دون النظر إلى معايير اكتساب هذه السمة، فبعضهن قد لا نجدها امرأة عالمة او عظيمة بكفاءة أو مهارة أو شهادة أبداعية يشار لها بهذا الاستحقاق. ،فهو مجرد سياق إداري أنساق بفعل التقليد والتعود.في حين لا يمكن ان تحصل طبيبة مثلا سمة "الصدارة" وهي بمستوى بسيط جدا دون مهارة عالية.

* يسهم المتغير الثقافي أو التقني أو في مستويات الاداء في مؤسسات الحياة والتخصصات كافة في نهضة تفاصيل الحياة، وبميادينها كافة، الأمر الذي يدفع بارتقاء نسبة التحضر في التعامل المهني والاجتماعي، ولابد ان لا يدفع ذلك إلى الغرور والانفلات والتهور والطيش وطمع الاستحواذ على المزيد من الفرص دون استحقاق وبنزعة التلذذ في الحصول على كل شيء.فمثل هذه الرغبات والنزعات. لن تنتمي إلى مفهوم الصدارة ابدا.

سجلت الوقائع على ان البعض من الأشخاص قد تصدر مواقع متقدمة في مهن وإدارات ودوائر مهمة، ومنظمات ومؤسسات ومسؤوليات متعددة وغيرها ،ومنهم من نجح في ذلك، ومنهم من اخفق، دون أشتراطات التفوق والتميز، مما جعله يتمسك بهذا الموقع،الذي لم يكن يحلم به، الأمر الذي جعله يشتغل بشتى الأساليب المشروعة وغيرها من أجل أن يبقى (متصدرا) لهذا الموقع الذي لا يخلو من الاستفهام. وهذا النوع يعد كما لو كان علامة من سمات "الاستحواذ" الذي تتهيأ له الظروف المساعدة، ويعد

ايضا تسجيلا لصفحة مشوشة في (نظرية الاستحقاق) وتكافؤ الفرص.

* الصدارة ترافقها معان متعددة، تقرب وتعظم هذه السمة، منها النفسية والعاطفية والانسانية الأخلاقية والمهنية والمعرفية والعلمية والمهارات المتفوقة ، بما تتضمن من رفعة عالية في المواصفات الإيجابية المتفردة والكاريزما التي تمنحه المزيد من القدرات التي تجعله أكثر قربا وتقبلا من قبل الفضاء المحيط بالشخصية مهنيا واجتماعيا ونفسيا.

* الصدارة هي مسؤولية، وهي ان تحمل مشروعا للحقل الذي تعمل لأجله، وان تطرح برنامج عمل ناهض، نحو التغيير والتطوير، فالصدارة ليست ديكورا، ولا تشريفا، بل هي ان استحقاق الدرجة الأولى الممتازة في الحقل الذي تعمل فيه،حتى وان دخلت في سياق التنافس،

* الصدارة الحقة هي ان لا نستكثر السمة الأولى في شخصية اديسون والكهرباء واينشتاين والفيزياء

وغوتنبيرغ والطباعة وغراهام بيل والهاتف واكثر من عالم في الانترنيت وتطويره لاحقا .وسجلت الصدارة اسم بنيامين كارسو كاشهر جراح في العالم، ويعد فيرنر فون براون اشهر مهندس فضاء،وكذلك يعد اليوناني هيرودوت اشهر مؤرخ في العالم الذي وضع منهج البحث التاريخي،اما ادم سميث فيعد اشهر رجل اقتصاد في التاريخ، الذي يلقب بابو الاقتصاد الحديث ومؤسس علم الاقتصاد، وصاحب كتاب "ثروة الأمم" ومايكل انجلو اشهر نحات في الكون، صاحب تمثال (داوود) الكبير..وغيرهم من المتصدرين في حقول أخرى.كالعلماء والمفكرين في علوم النفس والاجتماع والسياسة والقانون والفنون وغيرها ..

* الصدارة هي استحقاق التفوق علميا ومعرفيا واجتماعيا وانسانيا ومهنيا وجماليا، وهي تسجيل الرقم الصعب في أداء الحقل والمحيط الذي نعمل فيه..فحقل الرسم، لا بد أن نذكر دافنشي وفان كوخ وبيكاسو ورامبرانت ومونيه وميخايل انجلو وسيزار وغيرهم هؤلاء هم الاستحقاق الأمثل في الصدارة، كما في السينما من عباقرة أمثال بريغمان وانطونيوني، وفرانسيس كوبولا، والفريد هيتشكوك وسبيلبيرغ وايستوود وستانلي كوبريك و وجميس كاميرون وكريستوفر نولان،و مارتن سكور سيزي ، وكوينتن ترانتينو،وغودار، وفيلليني، واخرين..

*هناك من يستحق ان تبقى هذه السمة مقترنة باسمه دون تراجع، "كما اقترن الاستبداد في شخصية هتلر" أو المفكر س والشجاعة عند ص وهكذا..

والأهم من ذلك هو ان تبقى هذه السمة ملازمة لاسم الشخصية، لما تتسم به من حيوية ونشاط وتطور وتواصل وتفوق في الاختصاص، ذلك لانها تمتلك قوة التفاعل الكبير مع الفرد والحقل والمجتمع، وبقاء الاستمرارية في ضخ كل ما هو جديد ونافع في أداء السمة التي تصدرها واقترنت باسمه.

جدلية فيلم (الست) أم كلثوم

منار غالب حسين / جدة

هل سينما السيرة قابلة للتأليف وما هو أحقية المؤلف في اختيارات الجوانب السوداء من الشخصية او نقاط ضعفها وتسليط الضوء عليها وهل تحتكم بها النوايا والاثر المتروك؟
دفاعا عن سيدة الغناء العربي، للعشاق واصحاب الكلمة المغمسة بالحب النقي الملحن ببذخ مطعم بالصوت الاستثنائي!
فيلم (الست) حدث ضخم انتظره الملايين؛ تطاول على سيدة الغناء العربي كوكب الشرق، بتلصيق الفيلم بمشاهد تركز على الاستخفاف بالثورة وزعمائها وايضا جدلية لشخصية ام كلثوم..
لنبدأ بها انسانه اوتيت الصوت الذي جعلها الحالة المتفردة عربيا، اجتمعت عليها كل الالسن واللهجات من المحيط إلى الخليج، في وقت كانت اوروبا لديها ماري كاري اديت بياث وآماليا رودريغز من الأصوات النسائية الاوبرالية وجودي غارلند الاميريكية، بطبقات صوت مختلفة.. تمس كل الاذواق.
ام كلثوم كانت زمنا وتاريخا، بدايات التخت العربي بعراقته والملحنين وكتاب الكلمة الذين ذهبوا معها إلى ابعد الحدود وغادروا معها، حقبة تاريخية لا تتكرر.
لم فكر الكاتب بالعبث وقسوة الظروف المعيشية الطبقية والثقافية الى جانب فكر مجتمعي اتجاه المغنواتي والمشخصاتي وطبقة مجتمعية أخرى..عملت على دعم انواع فنية جديدة في بيئة خام مثّل المسرح

و الغناء والرقص الذي كان في ذلك الوقت محصورا على تسلية الطبقة الحاكمة والباشاوات وكبار الشخصيات!
إما لإضحاكه أو سلطنته، وإتخاذها ذريعة لاستعراض الازياء والجواهر والفراء وارتداء البدلات الاوروبية بربطات عنق فرنسية للرجال في ثلاثينيات القرن..
أم كلثوم جاءت من عمق الريف المصري (قرية السنبلاوين)، من بيئة تستهجن انشاد البنت او ظهورها خارج البيت، فالبسوها اللبس العربي للاولاد و لولا قوة شخصيتها وذكائها الفطري، لما استطاعت مواكبة الموضة لتصنع النقلة الكبرى في حياتها من فتاة ريفية مغمورة متخفية الى صاحبة العصمة التي تسكن فيلا على النيل !
حين يكون الكاتب ذكيا والمخرج لديه ثقافة فنية راقية تُصنع السينما التي تظل في الذاكرة للأبد، سينما يصنعها الصغار تخليدا وتكريما

للكبار.. عمل فني ينعش الذاكرة والحنين لمن عاصر هذا القرن وتحبيبه لجيل يظن انه بلا تاريخ ولا اساطير، فام كلثوم ذاكرة الاجداد والاباء، تاريخ الاحبة الذين اجتمعوا على حفلة غنائية او دارت اسطواناتها في الصالونات بين الضيوف!

إن فيلم (آماليا) عن المغنية البرتغالية اماليا رودريغز اخراج كارلوس ويلو دا سيلفا ، انتاج عام 2008 عد انموذجا مذهلا لأفلام السيرة الفنية لامرأة كانت تغني في المقاهي الصغيرة في البرتغال حتى ذاع صيتها عبر مسيرة طويلة في الفن وعاطفتها وزيجاتها وتأثيرها على فنها .

الفيلم الأكثر انسيابية وأكثر اشباعا لنهم المعرفة للفنانة التي صنعت اغنية (مونا مور) وبات من النادر الا يعرفها احد..

إن السيرة لايحدث ابدا ان يسقط الكاتب وجهة نظره الخاصة او رؤيته وهو لم يلتق هذا الفنان، بل يرتكز على يومياته وعلى البحث الدقيق في الصحافة والاعلام والجيران وحواديت المقاهي الثقافية والمهتمين .

فكيف للكاتب هنا الاعتماد على احساسة و على الحقيقة الواضحة والروايات المتداولة وعلى الموقف العاطفي في السرد التاريخي بحيث لا يفقد الحقيقة وضوحها ،يبين ان من اهم عناصر صناعة السينما السردية اللعب على الدراما في اظهار نقاط او مواقف حقيقية واختيار الوقت المناسب ، لا افتعال مواقف خارج المألوف لابتزاز المُشاهد عاطفيا او تغيير فكره ، لان افتقاد المصداقية سقوط !.

أن تبذل جهدا للوصول الى العالمية على حساب الاساطير ، سقوط المريع ، من يملك في تاريخه ما يريد ان يخفيه ، يستخدم هذا التجني .

ام كلثوم عاشت عصر التحدي ، في اثبات حضورها ثم جدارتها في الاستمرار ، حضورا لايمحيه ظهور نجم فنان آخر كما حدث للمهدية ونور الهدى اللتان نسي الجمهور وجودهما لمجرد ان ظهر نجم السيدة ام كلثوم ، هذا الدرس الاول الذي تعلمته .

فلماذا نسيء لقاماتنا واساطيرنا، بلا حقائق ولا شهود!

هل هي بداية لإذلال الاموات بصناعة الترند كما يطلق عليه حاليا، مؤكد ان أم كلثوم، مرت بمواقف حرجة ومهينة حين كانت تنشد المدائح النبوية في بيئة معدمة تعتاش على الموالد والمناسبات الدينية والاعياد والاحتفالات المتعارفة في فترة الحكم العثماني، حفلات الطهور في القرى او الذهاب الى الحج او مناسبات أعيان القرى واصحاب (العزب) الاغنياء.

كيف لنا ان نقاضي عصر امتلأ بالفن الحقيقي والراقي الموسيقى العربية الخالدة، التي صُنعت بحفنة جنيهات؟

والان مع كل هذا الدعم، لم يخرج للنور فنان حقيقي أو فيلم او مسلسل للتاريخ، بل معظمها تنعق بخراب الذوق العام، واشارات لنهاية الهوية العربية الفنية بمجاراة افلام الكاوبوي والامراض العقلية او الكوميديا الرخيصة، كيف لنا ان نحاكم او. نستهجن ما لا نملك ان نجاريه في الموهبة والرقي الفني.

لقد عاشت (الست) حيوات أخرى امتدت الى اجيال وأجيال.

وبالنظر الى ان الافلام الاوروبية في صناعة نجوم وتخليد ذكراهم لم نجد هناك ما يسيء إليهم فقد ذكروا ما هو مشهور عنهم وتم تداولهم ومن اساء إليهم كذلك وتسبب في صنع هذه الموهبة؛ لا ان تذكر لهم مناقب او نزق الا اذا استدعى الامر، وكان فعلا من طبيعة الشخصية لا ان تصل الى حد الكراهية والابتذال فالطعن في الشخصيات التاريخية ان لم في السرد فإنها تضر في الكاتب الذي يتصيد السقطات كمن يظهر رأيا وشعورا شخصيا.

هناك مواقف وموضوعات غفل عنها الكاتب توقعنا مشاهدتها في الفيلم.

ان السيدة لم تحب فن فريد الاطرش وقد صرحت بذلك، كما انها عملت على اقصائه من نقابة الفنانين المصريين وهو حامل للجنسية المصرية، ربما كان المسار القومي الذي كانت تعتنقه في تلك الفترة هو الاقرب الى الحقيقية.. هكذا تدار الحوارات لا ان يلقن الجيل الجديد سقطات شخصية هزيلة!

ظهر كليب (الست) في الفيلم وكنا نأمل تذكر قصة قصيدة (الفاجومي) في فيلم الست!

كما غاب الملحنون الكبار: السنباطي وزكريا احمد وبلبغ حمدي وتطوير التخت العربي ودخول الغيتار الالكتروني!

امامنا جيل يتذكر وقد واجه احباطا وهو جيل لن يتذكر الا إذا احتفينا بتراثنا وهويتنا وقاماتنا الفنية!

سأطلق على الفيلم الست والضغينة المستهلكة!

والا ماذا وراء الهجوم على هذا التاريخ، بقليل من المقارنة بينه وبين أفلام السيرة الفنية، نتصالح مع فكرة جديدة، تطاول يهدم، واثارة غضب الجمهور لارتفاع المشاهدة!!

كما ان التطاول الذي يكمن وراءه ألف استفهام.

جيل معبأ يرفض التخلف والرجعية والمبهور بقيم من زجاج هش زخرفتها الهوية الغربية بالميديا عن طريق الانفتاح والحريات والاختلاف وسهولة التصريحات والتصرفات بلا ضوابط ولا عواقب، استعدادا لانصهار جيل كامل في اللاهوية والاكتفاء بالفرد وحريته المطلقة!

فرد يسهل التحكم به وقيادته بعيدا عن الانتماء!

هذه زاوية جديدة، نتبين من خلالها الأصوات النسوية البارزة والمتميزة، وذلك بهدف إعطاء فرص مفتوحة امامها لكي تبوح بالكلمات الصادقة والمعبرة ..

محرر ادب وفن

لزهرة البيضاء

زهراء اخلاص عادل *

في سماء الظل
في قطرة سقطت لآخر وجوه البرد
قتلوا التاء
والشمس
وعلا فوق تلال المجد
عار الوجود
وكُبل الرأس
كانت الأظفار بيدق
والشعر عتاد
والشفاه ينبوع سم
فخلقت الانثى بلا ذكر بالعناد ...
والورد عاد وقد تمرد ،
ماسكًا حجر الوجود
قامت الانثى تصارع
بالغصن

واللحن
وكسرّت عار القيود
قالت الزهرة البيضاء :، انت ايتها الانوثة
عار في جبهتي ،
فلتأخذيني
على عجل
وقبل اوانها
ستزاوج البتلات
بعد تسع
او قبل عشر
وقبل ان تعرف القبلات ...
وانت
تتساءلين حيرى
لماذا يخافون مني
ولماذا يخافون الحياة ؟

قالت الزهرة البيضاء :
لا ترحلي ايتها الانوثة
انوثتي ،
فإن قصة حياتي هي رحلة صعود
وان وجهًا قد جابه الاوهام بفأس الصمود
وان ظهرًا لا ينحني
ورأسًا لا ينثني
لا تكسرهما اطواق القيود

قالت الزهرة البيضاء :
حتى لو انطفأتَ يا قلب

حتى لو تمزقت يا جلد
انا للسماء الغيمة
وللأرض عماد
وبحري من عروقي
انا عرفج الصحراء وبيدق الشمس
وزهرة الاسفار
وطبعي مثل نوقي

قتلتني ؟
فلتسقط الاشلاء على بركة العبد المصلي
في وهج البنفسج
وليصعد الشهداء الى اخر خنجر منسي في نجمٍ تدحرج
هذه ظفائر موتهم
في كل شارع
تطوف
في شبح الظهيرة
وقد تمزقت اجنحة الملاك خلف رواق اعمدة الحظيرة ..
لا لا هلال او بهاء قد تعثر
قبل ان ترتفع المنارة
وتلك السماء افرغت التعبد
في حمم الدعاء
وصاح السنديان اخيرًا
لتاجي
والقمر تقعّر:
تمرّد
وصاح
وصاح : تجبّر

وان لم تجد غير الهواء مقاتلًا
ففي الغيم تبّخر
او تناثر
او تحجّر

قتلتني ؟
انت منسي خلف اسمك
وخلف
اغلفة الرماد
وقد تلاشت نشوة الاسفلت في دحر الخريطة
وانت تسل عن وجهي المجعد
وانت تفترش الركام
في لغة التكور
حول قبس في القفار
انا عرفج الصحراء
وثورة النار
قتلتني ؟
لو عرفتَ :
هذان ساقاي انحف من العيدان
ارق من انتفاض النسيم بوجه الورق
لو عرفتَ :
هذان ساقاي أبزغ من فلق

كلما شققتُ الارض
ونفختُ في الموت
وانطبقتُ على الاسلاك
والافلاك

والشعر المنمق
كلما حان للورد ان يصحو
وللفجر ان يكتب نصوص الغد
واساطير المساء
هذه لغة العناء
ولعنة المرضى تحاوط الموتى
وتنتظر القبور بدل اللقاء

قتلتني ؟
والنجم يخاطب تاجيَ :
تفحّم
او تجشّم
او ابتعث لك من في البيوت
على هيأة البركان
يخرجن كاللبوات
كالموتى
وكالجان
على سفح المخالب في سطوع الضي يقلنَ:
تكبّد او تمرّد
او خاتل وحوش الليل وحدك
بجلدك
بعظمك
تشرّد
او تفرّد
ولتحمل مناجلك في خضم التاء
واربطها كذات
كإنسان

جمدوه وما تجمّد
حنطوه
وارهبوه
وقاتلوه
وما تردد

قتلتني ؛
اين اصوات المسبحات
واغطية المعابد
والعباءات
اين الرتوش المزخرفة
لجدران الحجر
وقضبان القلاع
هذا تاج سيدة قد رفض الانصياع

قالت الزهرة البيضاء :
أنت ايتها الانوثة ،
انوثتي
لا ضعف ولا وهن ولا هزال
هذا ذراعي
وهذه قوتي
انت ايتها الانوثة
مجدٌ في جبهتي ...

*** شاعرة من النجف . صدرت لها مجموعة شعرية بعنوان " من زفير الضياع " دار سيما / 2026**
***نبات صحراوي معروف**

مطبوعات وصلتنا

• إسماعيل إبراهيم عبد ، نديمات جلنار (قصص معرفي)، دار السرد بغداد، 2026.
• حسب الله يحيى، بيت الهموم (قصص)، منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، بغداد، 2026.
• حسينة بنيان، حلم في نهر (قصص قصيرة جدا)، مع نصوص بيوتات وأمهات مستوحاة من الواقع العراقي، دار الفرات، بابل، 2025.
• حميد الكناني ، شواطئ عذبة (مجموعة قصصية)، دار الورشة ، بغداد، 2025.
• رحيم هادي الشمخي، أبو فراس الحمداني شاعر السلام والحرب (دراسة تاريخية)، دار الورشة، بغداد، 2025.
• رحيم هادي الشمخي، الحضارة العربية واثرها في بلاد خراسان (دراسة تاريخية)، دار الورشة ، بغداد، 2026.
• سلام القريني، للنساء حكايات (قصص)، دار توليب، بغداد، 2026.
• سلام القريني، عبد الله مسعود القريني المحامي، دار توليب، بغداد، 2026.
• وليد الحيالي، مرافئ الروح (سيرة ذاتية)، دار الورشة، بغداد، 2026.

ابرز اصدارات

دار الروم المزدهرة